اقرأ

تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا

دار المعارف بمصر

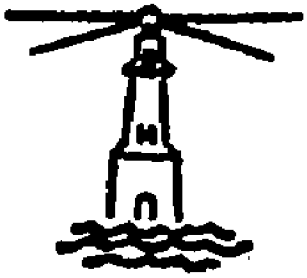

خذ المعارف من دار المعارف

إبراهيم المصري

صراع الحب والعبقرية

اقرأ ٣٩٦

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٣٩٦)

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

كلمة

إذا كان العبقرى ـ مفكراً أم فناناً ـ يصبو إلى تأدية رسالته والانقطاع لفكره أو لفنه ـ فإن قلبه يصبو ولا ريب إلى الحب وينشد المرأة التى تلهمه بجمالها وتحفزه بحنانها وتثيره بصدها وإقبالها ـ فتوقظ خياله ـ وتذكى مواهبه ـ وتمده بالتجارب ـ وتجدد فى نظره وجه العالم .

ولكن العبقرى قوة ـ والمرأة قوة ـ والصراع لابد أن ينشب بين القوتين ـ ذلك لأن العبقرى يتجه بطبيعته نحو الأبد ، والمرأة تتجه بغريزتها نحو الدنيا .

فهو يحبها ويحب صور الجمال ممثلة فيها وفى غيرها ـ ويريد فى الوقت نفسه أن يعمل ويخلد فى عمله . وهى تحبه وقد تبذل وتضحى لتعاونه وتخدمه ـ ولكنها تأبى ، والغريزة تدفعها ، إلا أن تضع الحب فوق الفكر ، وأن يدوم هذا الحب فى عاطفة مطلقة تستغرق حياتهما معاً .

ومن هنـــا يحتـــدم الصراع ، وتختلف صوره باختلاف المنازع والشخصيات ـ ولا سيما إذا كان العبقرى قد اصطفى امرأة أخلصت لفكره واتجاهه ثم تحولت فجأة وقابلته بالقطيعة والخيانة والغدر .

على أن الوضع قد ينعكس ، فتكون المرأة هى النابغة أو العبقرية ، ويكون الرجل الذى تحبه هو الغريزة ودعوة الدنيا . فينشب بينهما صراع أبلغ وأشد . إذ المرأة وهى تنشد التفوق فى الفكر أو الفن ، لا تفتأ ـ فى الواقع ـ تقاوم طبيعتها بوصفها أنثى . فتحاول إما أن تفر من ذلك الرجل الحسى الأنانى الذى يستخف بجهادها ويزدريه ولا يطلب منها غير متعته ، وإما أن تصبر على ما تعانيه فى صحبته من عذاب ، مستلهمة عذابها ، تتخذ منه مادة جمال وفن . وتجاهد فى الوقت نفسه كى ترتفع

بأهواء الرجل وميوله إلى المستوى الوجدانى الذى يتطلع إليه خيالها .

فهذا الصراع بين العقل والقلب . بين الحرية والقيد ، بين الوفاء والغدر ، بين ما يسمو بالإنسان وما ينحط به ، هو ما حاولنا أن نصوره فى هذا الكتاب ممثلاً فى حياة طائفة من العباقرة والنوابغ بين رجال ونساء ، عاشوا هذا الصراع واكتووا بناره . فكانت هذه النار برغم انجذابهم العنيف إليها وعذابهم الشديد بها ، هى التى ألهبت فيهم قوى الإرادة والعزم ، ودفعتهم إلى إبداع روائع الفكر والفن الخالدة .

إبراهيم المصرى

موريس ماترلنك
أو
بين الحبّ والواجب الأعلى

سأحدثك أيها القارئ عن أديب فذ هو الكاتب والشاعر والروائى البلجيكى « موريس ماترلنك » . وعن حياته الخاصة . وغرامه العظيم بالمرأة العظيمة التى استوحاها فكره وفنه مدام « جورجيت لوبلان » .

موريس ماترلنك شاعر ومفكر . شاعر رمزى ومفكر يمزج بين الصوفية والعلم .

وهو ناثر بليغ . يستهويه أدق وأخفى ما يكمن فى ظلمات النفس ومجاهل القلب من أسرار . فيقبل عليها . ويتأمل فيها . وينظر إليها نظرة فنية وفلسفية . لا من حيث علاقتها بأبطال قصصه فحسب . بل من حيث علاقتها بالأبد واتصالها بجوهر الطبيعة الذى لا يتبدل .

وكانت « جورجيت لوبلان » قد سمعت باسمه . وطالعت مؤلفاته الأولى . وأعجبت بفنه . فأحبته ...

أحبته دون أن تراه . أحبت فيه الشاعر الذى استطاع أن يعبر عن آمالها وآلامها . عن خلجات صباها ومطامح نفسها . عن عنصر الفن والجمال الذى أرادت أن تجعل منه هى أيضاً مادة فكرها وحياتها .

وكانت إذ ذاك فى مقتبل العمر وشرخ الشباب . على جمال رائع . مغرمة بالأزياء الصارخة الغريبة . مفتونة بالعواطف الإنسانية الكبيرة . خيالية النظرة إلى الحياة . تلتمس الشعر فى كل شىء . وتؤثر الشعر على كل شىء . كانت نزاعة إلى الحرية . تواقة إلى المجد . شغوفاً بتمثيل أدوار بطلات الحب والألم والثأر والتضحية على مسرح الواقع . ملتهبة الأعصاب . فوارة المزاج . على حظ كبير من النبوغ فى الكتابة والأدب . مثقفة وذكية . تهوى الموسيقى والتمثيل . وتعمل جاهدة لتصبح ذات يوم مغنية وممثلة يشار إليها بالبنان .

هذه المخلوقة العاصفة . رأت فى فن « ماترلنك » ما ناقض طبيعتها . الأنثوية رأت فيه من الرصانة والتأمل والحلم ما استهواها وأشعرها بأن لاسلام إلاهنا . ولااستمرار ولااتزان ولاكمال إلا فى قرب هذا الرجل الفذ العجيب .

وقدمها إليه ذات يوم بعض الأصدقاء . فما إن أبصرها الرجل حتى أحس هو الآخر أن ما ينقصه قد تمثل فيها . فأنعمت هى النظر فيه . فشاهدت رجلاً مديد القامة . مفتول العضل . صلب العود . صامتاً وخجولا . له نظرة محجبة بعيدة ، وقسمات جافة ، ويدان غليظتان كأيدى الفلاحين .

راعها منه اقتران القوة برقة الحاشية ودماثة الطبع وعذوبة الفن ، فانجذبت إليه ومضت تفكر فيه .

وتبودلت بينهما الزيارات ، وذهل « ماترلنك » لدخول هذه المرأة الفجائى فى حياته . هذه المرأة الولوع بكل ما هو عظيم وجميل . المرأة التى تقصد المتاحف ، وتقف برسوم أكابر المصورين . ثم تحاكيها وتفصل أثوابها على غرارها . ثم تخطر بها فى شوارع باريس كأنها أميرة من أميرات القرون الوسطى . عليها وشائح كوشائح الملائكة التى رسمها « جوزولى » و « فرا أنجليكو » و « بورن جونس » وأضرابهم ...

رأى فيها « ماترلنك » المثل الحى لما يجب أن تكون عليه عروس الشعر الملهمة المبتغاة . فاطمأن إليها . ووثقت بينهما أواصر الحب ، وبدت حياتهما الجديدة ملحة نادرة من ملح التفاهم . بل معجزة خارقة من معجزات الصفاء والسلام .

وكانت « جورجيت » تحنو على موريس حنو أم على ولدها ، كانت تسهر على راحته ، وتكلؤه بعين عنايتها ، وتيسر له سبل العمل ، وتتعهد شئون بيته ، وتخلق له الجو الذى لا يستطيع بدونه أن يفكر أو يكتب ، جو الصمت ، الصمت الشامل الوارف العميق ، الصمت النابض بالحركة ، الزاخر بالقوة ، المثقل بالفكر ، ذلك الصمت الذى كانت تفهم

« جورجيت » أسراره وكنوزه. وتحدث الشاعر عنه فى رسائلها ، وتغريه ببحثه وتحليله وتمزيق الحجب عن غوامضه .

وكان عقلها النابه يمطر الكاتب أغرب الأفكار . وأدق الملاحظات ، وأعجب الحقائق ، فى غير ما كلفة أو إعنات . أما هو فقد كان إنساناً منكمشاً منطوياً عجيباً . كان برغم حبه الشديد لها لا يعرف كيف يخاطبها ، أو يتودد إليها تودد الذكر للأنثى . أو يعبر لها عما تكنه نفسه فى أسلوب حار يوائم مزاجها العاصف .

كان يقف منها موقف المتفرج المشدوه . يستمرئ أحاديثها ، ويعب فى فيضها ، وهو مغرق فى صمته ، راسخ فى هدوئه ، منطو على نفسه ، يخشى الكلام لئلا يتبدد فكره ، ويخشى الإعراب عن حبه لئلا ينمو الحب ، ويصبح شغله الشاغل ، فيصرفه عن واجب التفكير والعمل والإنتاج ! كان حائراً بين حبه وعبقريته ، بين غرامه ورسالته ، بين قلبه النزاع إلى الفوضى ، وعقله التواق إلى النظام .... ولكنه فى رسائله إلى « جورجيت » كان يفرج عن نفسه فيقول :

« بى خوف من رؤيتك مرة ثانية . على أنى لا أتمنى غير هذا ... إنى لأخاف على حبنا أن يموت من فرط جماله نفسه . كل ما وقع لنا يبدو لى جديداً وغير منتظر ، لم أتخيله لا فى حلم ولا فى الحياة » .

وكانت تقول هى فى رسائلها : « أود أن أحقق لك السعادة ولو تعارضت مع سعادتى . لقد آثرتك على نفسى منذ عرفتك ، لأنى لا أحب إلا الخير الذى أستطيع أن أفعله . ولقد أدركت أن فى وسعك فعل الخير أكثر منى ... إن حبنا لنادر وعظيم . إنه لا يمكن أن يكون زهرة صغيرة غرستها شهوتان ، إنه زهرة تنبعث من الأرض وتتجه نحو الشمس . إنه نفسه أرض وشمس وسماء ! » . وكان يجيبها قائلاً :

« إنى أحبك فى جنون ، أنت من أوفر الكائنات حياة . أنت مخلوق من حياة ونور . كل ما تمسه يدك الناصعة يصبح نوراً . ليس فى وسعى

أبداً أن أردد فى قوة كافية كل ما علمتنى إياه ! » .

ولكن الغريب أن « ماترلنك » كان يكتب هذه العبارات ولا يتفوه أبداً بمثلها ... كان يبدى من الحب فى رسائله أضعاف ما يبديه فى حديثه ومظهره . كان يذكر الحب وهو بعيد عن المرأة خشية أن تطمع فيه ، وتستبد به ، وتتسلط عليه . وتحل عبادتها فى كيانه محل عبادة الأدب والفن !

فالصراع بين الحب والفكر ، بين الجسد والعقل ، بين العاطفة والعمل ، كان متقداً فى نفسه مشتعلاً فى عزمه وإرادته ، يهيب به ألا يسلس قياده للمرأة التى كانت لا تفتأ تحوم حوله وتغريه .

وهكذا اصطدمت « جورجيت » بشخصية العبقرى الخفية ، وأدركت بسليقتها أنه أنانى ، وأن قوته تنحدر من أنانيته . وأن هذه القوة التى أحبته من أجلها هى التى قد تهدد فى النهاية حبها وتقتله ...

أحست بالرجل على حقيقته . رأته إنساناً متبرماً متجهماً مستوحشاً نفوراً ، يتذرع بالصمت ، لا ليخفى فى نفسه مشاعره وفكره فحسب . بل ليقصى عنه فضول الآخرين ، ليطرد عنه أفراح الناس وأتراحهم ، فلا تتسرب إليه شواغلهم ، ولا تعكر عليه فى هدأة التأمل مجرى العمل الأدبى الأثير !

العمل الأدبى ! ... أجل .... ذلك هو دينه وغرامه وواجبه ! إنه يمثل الحب فى قصصه أروع تمثيل ، ثم يعز عليه أن يلقى « جورجيت » بعبارة حب قوى واحدة ! ...

إنه يدخر الحب والعطف والرقة والحنان وسائر الانفعالات البشرية للعمل الأدبى وحده ، العمل الأدبى الذى هو فى نظره مبعث كل شىء وغاية كل شىء .

أجل .. إنه لا يعرف الحب الإنسانى البسيط العنيف ، لا يحس لا بالقلق ، ولا بالحيرة ، ولا بالغيرة ، ولا بنعيم اللقاء أو جحيم الفراق ، أو جنون التسلط الكامل على من يحب .

إنه يحتقر كل هذا ويمقته ... إنه يحاربه فى نفسه وفى سواه . بل يجتهد فى أن يطهر منه صديقته نفسها ...

ولكن « جورجيت » لم تستطع أن تحتمل . أصابها من فرط الخسرة شبه ذهول . بيد أنها كانت تحب الشاعر . وتود أن تسعده . وتتوق لازدهار خصائصه الخالقة على يدها . وبلوغه الشهرة والمجد تحت تأثير وحيها . فنزلت على حكمه . وامتثلت لإرادته وأطاعته طاعة عمياء . . . كبحت جماح عواطفها كما يريد . خنقت نداء حواسها كما يطلب . لزمت الصمت مثله . واعتادت العيش وفق هواه . بلا حب مشترك عميق صحيح . ساكنة هادئة عاقلة . آلة مسخرة لخدمة العبقرى !

وكانت سعيدة بذلك لا تشكو ولا تتململ . تفكر فقط فى حاجة الشاعر إليها . وفى جو الراحة الذى يلتمسه منها . فتنصح الخادمة بتخفيض صوتها . وتأمرها بالتمهل فى سيرها . وتصرف الدخلاء والمستطلعين . وتمشى على أطراف قدميها . وتفتح الأبواب وتغلقها فى رفق . مخافة أن يفزع الرجل فيكف عن العمل . فيذهب جهد اليوم هباء !

ولقد ذهبت فى التضحية إلى أبعد من هذا ... أرادت ألا تحمل الكاتب عبء الإنفاق عليها . فالتحقت بالمسرح الغنائى . ومثلت فى الأوبرات الكبيرة . وظفرت بالشهرة والمال هى أيضاً . ثم أنكرت نفسها فى النهاية . وأبت إلا أن تنقطع لخدمة « ماترلنك » . فكتبت البحوث الأدبية عنه . وطافت بمختلف العواصم تلقى المحاضرات عن أعماله . ثم تخلت عن فن الغناء . وطاب لها أن تندمج اندماجاً تاماً فى فكر الشاعر فانصرفت إلى تمثيل الأدوار النسوية فى مسرحياته الشهيرة : « مونافانا » و « مريم المجدلية » . وغيرهما .

وقد يتساءل القارئ . ما سر إخلاص هذه المرأة للكاتب الأنانى القاسى . أهو الحب ؟ ... نعم . ولكن فى اتجاهين استبدا بالمرأة استبداداً عنيفاً ومطلقاً .

كانت « جورجيت » تحب موريس . ولكنها كانت قبل كل شيء تحب الصورة الشعرية التي صاغها منه خيالها . وتحب أسلوبه وفلسفته . وما في أدبه العالي من نزعات مثالية . وتأملات روحية . وأخذات صوفية مشرقة وخارقة . هذا ما كانت تحبه فيه . وهذا ما أخلصت له من أجله . وما أنكرت ذاتها لإحيائه في عمله . ولكنها كانت في الوقت نفسه امرأة أحوج ما تكون إلى حب آخر . حب يحقق ائتلافاً وثيقاً . وتواصلاً عميقاً واندماجاً كاملاً بالجسد والروح .

وكان أقصى أمانيها أن يبادرها « ماترلنك » هذا الحب . وأن ينزل بعض الشيء عن عبادته للفكر . وينظر إلى قلب المرأة نظرة هوى بشرى سليم . بيد أنه أعرض عن مشاعرها الأنثوية الحميمة . وأحبها كطيف من أطياف الجمال . واستخدمها أداة لوحية فقط . فارتدت عواطفها إلى أعماق نفسها وظلت تتجمع هناك متلهفة وصابرة ؛ ثم انطلقت مذهولة ومخبولة تشهد مصرع أمانيها وأحلامها .

وزاد في عذابها أن العبقري كان فوق إعراضه عنها لا يتورع عن استباحة كل شيء جميل وثمين فيها . كان يستغل حسنها وصباها وذكاءها . كان يقتنص ثمرات روحها ومولدات ذهنها . كان يسرقها ... ولما كانت تبعث إليه برسائلها المليئة بالأفكار العميقة والخواطر الشائقة . كان لا يتردد في السطو على تلك الخواطر والأفكار ، وانتحالها لنفسه . ومزجها بمادته ، ودسها بين سطور كتبه ، كأنها من بنات فكره ومن فيض عبقريته .

والحق أن أبدع مؤلفاته : « الحكمة والقدر » و « كنز المتواضعين » و « أجلافين وسيليزيت » فيها من آراء « جورجيت » وخواطرها ما عرف الكاتب كيف يفيد منه لنفسه ، ويطبعه بطابعه .

وعلى الرغم من كل هذا . فهو لم يستطع أن يحبها الحب الذي ظلت تنشده . لم يشفق عليها . لم يرث لحالها . لم يعترف لها يوماً بأي جميل .

وما إن تقدمت به السن ، ولاحت في جو كهولته فتاة لم تتناهز

العشرين كانت قد مثلت دوراً صغيراً فى إحدى مسرحياته ؛ حتى افتتن بسحر شبابها ، وبدا له أن فى وسعه تجديد عقله وإحساسه وخياله فى ضوئها . فرحب بمقدمها ، وأنزلها من قلبه ومن داره منزلة النعمة المنقذة ، وجمع بينها وبين « جورجيت » فى بيت واحد ثمانية أعوام كاملة . ثم جعل يستمع لوشاياتها ، ويغض الطرف عن دسائسها ، حتى انتهى به الأمر إلى الخضوع لسلطانها ، والتزوج منها ، والانفصال عن « جورجيت » . .

وبعد أن كانت « جورجيت » كل شىء فى حياته أصبحت لا شىء . بعد أن كانت عروس الشعر الملهمة ، أصبحت المرأة المنبوذة التى هدم حبيبها هيكل حبها ، وشردها ، وسلط عليها أشباح الفقر والخيبة والشيخوخة تطاردها وتسمم ما بقى من أيامها !

وهكذا قدر على مخلوقة ضعيفة ، حادة المزاج ، ملتهبة الخيال ، ساذجة القلب ، أن تقع بين مخالب عبقرى اتخذها وسيلة لا غاية ، فاعتصر حياتها ، وامتص كل ما فيها ثم مجها نفسه ، فألقى بها فى عرض الطريق دون ما رحمة .

ولكن هل الذنب فيما أصابها ذنب « ماترلنك » ، وهل لنا أن نتهمه بالشر المتأصل ، والجحود الفطرى والقسوة المتعمدة ؟ كلا . إنها العبقرية تعيش لنفسها فقط لا لصاحبها ولا لأقرب المقربين إليه . وما العبقرى إلا نصف إله لا يستطيع أن يخلق إلا إذا سلب . . . يأخذ من الطبيعة كل ما تصل إليه يده ، ليرده إلى الناس أصفى جمالا ، وأمتع لذة ، وأوفر غنى ! وهذه هى الأنانية الغيرية التى لابد لها من فرائس كى تعيش وتنمو وتزدهر ، ولقد كانت « جورجيت لوبلان » إحدى هذه الفرائس ، فتحطمت حياتها . ولكن ذكراها ستظل على الأبد مجيدة ، لأنها كافحت وبذلت وضحت ، وأنكرت نفسها فى سبيل ما جنته الإنسانية من آثار « ماترلنك » العبقرى !

الفريدو كاتالانى
أو
وثبة قلب جريح

صمت الرسام « برناردو » لحظة . ثم تفرس فى صديقه الموسيقى الفريدو كاتالانى وقال :

— وإذن فأنت تؤمن بالحب بوصفه القوة الخالقة الكبرى . وتعتقد أن الحب وحده هو الذى يمكن أن يلهب خيال الفنان ويضرم فى نفسه الشعلة المقدسة التى تدفعه إلى إبداع الروائع . أليس كذلك ؟

فقال الموسيقى وهو يشتف نفساً من سيجارته . ويرسل ذوائب دخانها فى الفضاء :

— لا ريب فى أن الحب هو كل شىء بالنسبة إلى الفنان . الفنان لا يستطيع أن يعيش فى عالم مغلق شائع مألوف . الفنان لا يستطيع أن يتحرك أو يتنفس وهو محبوس بين جدران قفص . الفنان لابد أن يتجدد . وهو إن لم يتجدد مات . والحب بما فيه من قوى التيقظ الدائم . والحركة المطردة . والانفعال المتعاقب . والكفاح المتواصل المحموم هو الذى يتعش طبيعته . ويجدد وحيه . ويضاعف فيه إرادة الخلق والابتكار .

فصاح الرسام وهو يبتسم :

— ولكنك تصور الحب فى شكل إعصار . فهل فى وسع أى فنان أن يفكر ويتأمل ويخلق وهو يعيش فى شبه إعصار ؟ ...

فقال الموسيقى :

— إن إعصار الحب هو الحياة . ومادام الفنان قوياً فلا يجب أن نخشى عليه ثورة الإعصار التى هى ثورة الحياة .

فلم يقتنع الرسام وردد :

— أريد أن أفهم كيف يمكنك أن تخلو إلى نفسك وتصور الحياة بفنك . وأنت تسمع زئير الإعصار . إن إعصار الحب قد يخلب لب فنان ناشئ ، لأنه يزوده بالتجارب . ويفتح أمامه أبواب الفكر والدنيا .

أما أنت . أنت الفنان الذى اكتهل وجرب الحياة . فمن واجبك أن تقهر الحب وتقهر الإعصار . لتستطيع أن تصور فى هدوء الفكر الثابت الواعى قوة الحب وقوة الإعصار ! لا .. يا صاحبى ... الهدوء بالنسبة لك هو الحافز على العمل . والسكينة هى الباعثة على التفكير . وراحة الضمير والقلب أبلغ ألف مرة فى التأثير على نفس فنان مثلك من عاطفة الحب المشبوبة المضطرمة . التى لا تعيش إلا فى عالم الجنون والفوضى .

واتأد الرسام فترة أخرى . ثم انحنى على صديقه وقال وهو يتفرس فيه :

ــ لا تخدع نفسك . لقد عشت مع زوجتك « سيلفيا » حياة سعيدة هادئة ، حياة مستقرة ناعمة . فاستطعت فى ظل تلك المرأة النبيلة العظيمة أن تؤلف ثلاث مسرحيات غنائية ناجحة ومسرحية رابعة فذة هى « لوريلاى » التى جعلت منك بين عشية وضحاها أكبر مؤلف موسيقى فى إيطاليا ... والآن . . الآن وقد بلغت الثالثة والخمسين . تزهد نفسك فى الراحة ، ويزهد عقلك فى الحكمة . ويصبو فؤادك إلى الحب !! أجل أنت تحب . تحب تلك المرأة . تحب « أدريانا » ، الممثلة المطربة التى حققت خيالك ، وجسمت حلمك ، ومثلت فى مسرحيتك الدور الأول ... عشقتها ونسيت زوجتك . زوجتك التى لولا حبها ورعايتها وإخلاصها المنقطع النظير ما استطعت أن تخلق ذلك الفن الرائع الذى تقدمه اليوم هدية لسواها . فاحذر ... احذر يا ألفريدو . أنت تغامر بعبقريتك من حيث تريد لها التألق والازدهار !

فصرخ الموسيقى :

ــ لم يعد فى مقدورى أن أبتكر نغماً أو أسجل لحناً وأنا أعيش بعيداً عن « أدريانا » .

فقال الرسام :

ــ ولكنك تراها ، وتتصل بها ، ومع ذلك فأنت عاجز عن العمل . . عاجز عن التفكير . لماذا ؟ . . لأنك مضطرب . . لأنك قلق . . لأنك

تحب ! أفى وسعك أن تنكر أنك أصبحت عاجزاً عن إتمام مسرحيتك الجديدة « وراء الأفق » ؟ لقد لحنت معظم مواقفها ولكنك أصبت بالشلل الذهنى التام عندما أردت أن ترسم بموسيقاك ذلك المشهد الرئيسى الفاجع مشهد العاشق المعذب الذى خدعته معشوقته ، ومزقت بخيانتها قلبه وحياته . أجل . عجزت عن رسم هذا المشهد الذى هو دعامة مسرحيتك لأنك مسلوب العقل ، مشوش الفكر ، خاضع لسلطان الحب ممثلاً فى تلك المرأة .

فصاح ألفريدو :

— أنت واهم . أنا لا أشعر بالعجز عن الإنتاج ، وعن تلحين ذلك المشهد الذى يحيرنى ويعذبنى ، إلا لأنى فى الحقيقة جبان !

— ماذا تقصد ؟ ...

فقال الموسيقى فى صوت أجش :

— يجب أن أطلق زوجتى وأقترن « بأدريانا » . ومتى اقترنت بها استطعت أن أنتج وأبتكر وأجدد فى وحياتى !

فهتف الرسام مستهولا :

— تقترن بها ؟ تتخذ من تلك المرأة الغادرة المتقلبة اللعوب زوجة لك ؟ إنها لشيطان !

فغمغم ألفريدو :

— فى وسع حبى أن يجعل من الشيطان الرجيم ملكاً كريماً !

فأمسك الرسام بكتفى صديقه ، وطفق يهزه هزاً عنيفاً ويقول :

— ثب إلى رشدك . ابق بجوار امرأتك . احرص على هدوئك وفكر فى فنك فقط . فكر فى وضع ذلك المشهد الناقص من مسرحيتك ، ذلك المشهد الذى لو فشلت فى تصويره ، فسينهار مجدك فى لحظة كما تألق وازدهر فى لحظة .!

فقال ألفريدو وهو يرتجف :

— لا أستطيع .

فصاح الرسام وقد عيل صبره :

ـ إذن صارح امرأتك ولا تعذبها . أولى لك أن تطلقها من أن تظل زوجها ثم تخدعها . إنها فى غرفتها تنتظر نتيجة مسعاى فنادها وخاطبها !

فشخص الموسيقى إلى صديقه مبهوتاً وقال :

ـ أكنتما إذن على اتفاق ؟

ففتح الباب عندئذ فى عنف ، ودخلت الزوجة المخدوعة وهتفت :

ـ نعم . أنا ... أنا التى رجوته أن يتحدث إليك عساه أن يردك إلى صوابك . ولكنك مادمت تحب تلك المرأة إلى هذا الحد ، فاذهب إليها . حاول إن استطعت أن تفكر وتعمل وتخلق بجوارها . اذهب إليها وعش معها . ولكن امنحنى أملاً واحداً ، وعداً صريحاً ، هو ألا تفكر فى طلاقنا إلا بعد مضى ثلاثة أشهر . فإذا انقضت هذه المدة وشعرت بأنك لن تستطيع أن تجعل من ذلك الشيطان ملكاً ، كما قلت ، فعد إلىّ .. عد إلىّ يا ألفريدو وأنا أصفح عنك !

فذهل الزوج من هذا العرض العجيب وقال :

ـ لا أرغب فى أن أسومك مثل هذا الذل .

فقالت المرأة :

ـ ولكنى راضية بالذل والعذاب ، لامن أجلك أنت فقط ، بل من أجل فنك أيضاً ! لقد عشت معك عشر سنوات فشب عقلك أمامى ، وترعرع نبوغك بجوارى ، وأينعت عبقريتك فى ظلى ، وبات فنك قطعة من لحمى ، وجزءاً من دمى . على أن فنك يا ألفريدو هو أعظم منى ومنك . هو ملك الإنسانية لا ملكك . فأنا أحرص عليه كما أحرص عليك ، وأذود عنه كما أذود عنك . فاذهب إلى عشيقتك .. إلى دنيا الصراع والجنون والفوضى . وإذا أحسست أن الشعلة ما تزال متقدة فيك ، فابق هناك وإلا فعد إلى أضرم النار فى صدرك مرة أخرى !

وصمتت وهى تلهث ... وفجأة انبعث من غرفة مخدعها صوت شقيقتها تدعوها لإرضاع طفلها . فاختلجت وأسرعت إلى المخدع ومكثت فيه قليلاً . ثم عادت وهى ترتعد . وما كادت تدخل الحجرة ، حتى أبصرت زوجها وقد أشرق وجهه . وزايلته بغتة عوامل الهم والقلق يلقى معطفه على كتفه . ويبحث عن قبعته . ويهم بالخروج . فعدت إليه ملهوفة . وقالت وقد جحظت عيناها :

— أفى نيتك أن تذهب إليها الآن ؟

فتطلع الفنان إلى زوجته مستغرباً وقال :

— أليس هذا هو ما اتفقنا عليه ؟

فصرخت :

— الليلة لا ... لا تذهب الليلة ... أوشك الليل أن ينتصف . فتمهل إلى غد فقط . أتوسل إليك ...

فحدق إليها ساخطاً متضجراً وصاح :

— ما معنى انقلابك هذا ؟ ..

فجثت أمامه وقالت وهى تحبس دمعها :

— ابق هنا ... إلى الغد ... إلى الغد فقط .

فلم يحفل بها ، ودفعها عنه فى عنف ، واتجه نحو الباب وخرج . فارتمت على صديقه ، وأمسكت به ، وهمست فى أذنه وهى تهدر وتنتفض :

— لم أذهب لإرضاع طفلى ... لقد نادتنى شقيقتى لتفضى إلى بما أسره إليها الآن ابن عمى الذى كان هنا ، وآثر أن يذهب دون أن يلتقى بزوجى . كنت قد عهدت إليه بأن يراقب مسلك « أدريانا » ... فأنبأ شقيقتى أن المركيز دى مونتى ، عشيق « أدريانا » المفضل ، عشيقها الشاب ، الثرى الجميل الذى تحبه وتخدع من أجله زوجى ، هو الآن معها ! فى بيتها ! فاسرع يا صديقى ولا تضيع الوقت . أسرع وإلا

تهور ألفريدو واندفع إلى ارتكاب جريمة ! اخرج بنا من هنا ... نحو هذا الشارع الخلفي .. يجب أن نسبق ألفريدو إلى هناك !

ودفعت بالرجل إلى الخارج . ثم جاشت عواطفها . فانطلقت متأبطة ذراعه . وانفجرت من عينيها الدموع .

وانطلقا في الشارع الكبير . واخترقا أزقة ساكنة . ودروباً ضيقة ، حتى بلغا ميداناً فسيحاً في وسطه حديقة عامة . ينهض في طرفها منزل صغير هو منزل المغنية « أدريانا » وقد بدت جدرانه ناصعة البياض في ضوء القمر الساطع . فاتجها نحوه وقلباهما يخفقان . وأنفاسهما المتعاقبة تكاد تخنقهما . وإنهما ليتقدمان صوب بابه ، وإذا بهما يبصران في إحدى غرف المنزل خلف ستار كبير أسدل على النافذة المفتوحة ، شبحي رجل وامرأة يتعانقان . فأرسلت الزوجة المخدوعة صرخة ممزقة وهتفت :

ـ هاهما ... « أدريانا » وعشيقها ! لقد صح ما قاله ابن عمي . ينبغي أن أراها . أن أسبق زوجي إليها . أن أحول بينه وبين ارتكاب جريمة يثأر بها منها . فإما أن تتخلى عنه . وإما أن أصارحه بالحقيقة وأكشف عن وجهها النقاب .

وتمصلت الزوجة من ذراع الرسام . ولكنها قبل أن تعدو وتتجه صوب الباب ، كان ألفريدو قد برز من الشارع المواجه . فما إن أبصر زوجته وصديقه حتى ذهل وصاح :

ـ أنتما هنا ؟ ... تقتفيان أثري ؟ ... ولماذا ؟ ...

وحدق إليهما فألفاهما صامتين حائرين مرتبكين . فساورته الشكوك بغتة . فأجال الطرف حوله ناقماً ، وهز كتفيه . وهم بأن ينطلق نحو البيت وإذ ذاك رفع رأسه . فلمح الشبحين المتعانقين يتماوجان خلف الستار في ضوء القمر . فضل عقله واندفع مستهولا . فارتمت عليه زوجته وصاحت :

ـ لا تدخل . إنها في صحبة رجل ... علمت الساعة أنها تخونك ،

فجئت مسرعة لأنقذك . إن كبرياءك قد تذهب بلبك وتوردك مورد التهلكة . فلا تستسلم لحبك وغيرتك . لا تغامر بحياتك من أجل غانية . عد معنا . عد معنا إلى البيت !

وتشبثت به ، وطفقت تضمه إلى صدرها وتقبل يديه وهى تتوسل وتبكى . فثار ثائره ، وزجرها فى غلظة وقسوة ، وتحول نحو الباب . فلحق به صديقه ، وحاول جهده أن يثنيه عن عزمه . ولكن ألفريدو دفعه فى عنف ، ومرق من الباب ، فتبعته زوجته ، وانطلق صديقه فى إثرها .

وصعد الموسيقى الدرج وثباً ، ومضى يدق باب منزل المرأة وهو تائه محموم ، لا يشعر بمن حوله ولا يحس إلا بسورة الحقد والكراهية التى كانت تسوقه ، وتضرم فى خياله نية القتل والانتقام .

وفتح الباب بعد لحظة وبرزت منه « أدريانا » مستنكرة ومذعورة . فما إن رأت ألفريدو وزوجته وصديقه حتى بهتت وتراجعت وجمعت أطراف غلالتها على صدرها العارى ثم قالت فى صوت خشن أجش :

— ما تعودت أن أستقبل إنساناً فى مثل هذه الساعة ، ولا أعتقد أن من اللياقة أن يتزاور الناس بعد منتصف الليل .

فلم يكترث ألفريدو لكلامها ، ونحاها عن طريقه ، ودخل البيت متبوعاً بزوجته وصديقه . فاشتد سخط المرأة وصاحت :

— اخرجوا !

فعض ألفريدو على شفتيه وصرخ :

— إنه هنا ... إنه فى مخدعك !

وانقض عليها كوحش ، وأوشك أن يقبض على عنقها ليخنقها . ولكنها تملصت منه ، ووقفت تجاهه منصوبة القامة ، عالية الرأس ، وقالت فى صوت يمج غضباً وكبراً وتحدياً :

— أجل . إنه هنا . فى مخدعى . وأنا أحبه . أتفهم . لقد عطفت عليك ولكنى لست حمقاء لأكتفى برجل مهدم مثلك . هو الذى أحبه

لا أنت . ولو اجترأت وخطوت إلى المخدع خطوة واحدة . فأنا التى سأردك على أعقابك محطماً ومهزوماً قبل أن تلحق به أى أذى !

فلم يصدق الموسيقى سمعه . وترنح تحت وقع الإهانة . أحس أن ذهنه يموج . وعقله يختلط . ودمه يغلى . والصراع بين الحب والكبر . وبين الحب والغيرة . يُرجف أعصاب يده المتوترة المتحفزة . ويدفعه إلى انتزاع مسدسه وإفراغ ناره فى صدر المرأة الغادرة .

وهوى تحت وطأة الصراع . واستدار وتحسس جيبه . فلمحته زوجته وصرخت . ولكنه غافلها وانتزع المسدس بالفعل ، واتجه صوب المرأة . فتطلعت إليه « أدريانا » شامخة مستكبرة . وقالت وهى تبتسم ابتسامة ظافرة وتومئ بأصبعها إلى مخدعها الذى انبعثت منه فى تلك اللحظة حركة عنيفة طارئة :

— أتسمع يا ألفريدو ... لن تصل إليه ! لقد وثب من النافذة ونجا !

فاقتلنى . اقتلنى إذا شئت . ولكن اعلم أنى سأموت سعيدة لأنى أنقذت الشاب الذى أحبه .

فتمزق قلب الموسيقى . سحقه الكمد والذل . ولأول مرة فى حياته ، لأول مرة منذ أن عرف هذه المرأة وأحبها ، أحس عذاباً مبرحاً ، عذاباً جارفاً ، عذاباً مهلكاً ومذيباً لم يحس به أبداً . فنظر إلى نفسه . ونظر إلى المرأة ، ثم نظر إلى المسدس الذى كان يتطوح فى يده ، وأطرق برأسه وتحول ... تحول فجأة ... تحول بالرغم منه ... تحول تحت تأثير قوة لاتقاوم ... تحت تأثير سيل دافق من الصور والأفكار والأخيلة . احتل ذهنه ، وعمر كيانه ، وملك عليه كل عاطفة وكل شعور . فألقى بالمسدس جانباً وتقدم ، تقدم بخطى وئيدة ، تقدم كمن يمشى وهو نائم ، واتجه إلى هناك .. إلى أقصى البهو ... إلى حيث ينهض المعزف الكبير الذى اعتادت « أدريانا » أن تعزف عليه أدوارها الغنائية للتمرس بها .

جلس ألفريدو إلى المعزف ثم فتحه فى عنف ، وشرع يعزف

عليه فى لهفة وحماسة وشبه جنون ... شرع يعزف القطعة الموسيقية المنشودة : القطعة الموسيقية التى كانت تنقص مسرحيته الأخيرة . القطعة الموسيقية التى انتزعها الآن من قلبه . والتى كان يريد أن يصور فيها عذاب عاشق مخدوع . والتى ظل الأشهر الطوال يعالج وضعها على غير جدوى ...

وبدل أن تسمع فى الغرفة طلقات رصاص . اندفقت أنغام متأججة كالنار . مدوية كالعاصفة . ممزقة كاليأس . متحشرجة كالموت . رائعة فى صدقها ونبضها الحى روعة تأخذ بمجامع الألباب . فوجم الكل . وأقبلوا على الموسيقى مأخوذين . ولكنه لم يحفل بهم . وانطلق يعزف وإلهامه يحفزه . وفنه يخلبه . حتى كلت يداه واستنفدتا فى النهاية عصارة قلبه وعبقريته . فنهض كمخبول ولم يتكلم . لم يتلفت . لم يلق على المرأة الغادرة نظرة . بل اتجه نحو الباب . ومشى أيضاً كما يمشى النائم . وخرج متبوعاً بزوجته وصديقه وهو يترنح كالشارب الثمل .

وقبل أن يبلغوا البيت . التفت الموسيقى إلى صديقه الرسام وقال :

— أرأيت يا برناردو ؟ .. هذا هو فعل الحب يا صاحبى . ولو انى لم أعشق وأُخدع . لما استطعت أن أحس ألم الخديعة . وان أبدع هذا الألم فى القطعة التى كانت تنقص مسرحيتى . ومع ذلك فأنت على حق . وليس فى مقدورى أنا الكهل أن أعاود هذه التجربة . وإلا انسقت إلى ارتكاب جريمة ... يجب أن أعيش منذ اليوم لفنى فقط . على أن أستمد من آلامى وتجاربى وحدها مادة لهذا الفن !

وتحول نحو زوجته . ولاطف خدها بأنامله . ثم تأبط ذراعها . وتناول يدها المرتعشة . وانحنى على تلك اليد النزيهة المخلصة الوفية . وضمها إلى صدره ثم قبلها !

ليون تولستوى

أو

العبقرى تجاه زوجته

كان تولستوى شقيًّا بزوجته ، كما كان سقراط من قبل ... لم تؤمن زوجته يوماً بتعاليمه ولم تفهمها . فاعترضته فى تأدية رسالته . واجتهدت فى أن تحول بينه وبين تحقيق مبادئه . وأوغرت صدور أبنائه عليه ، وجعلت من أفراد أسرته أعداء له ...

كانت امرأة مثقفة . ولكنها كانت متعصبة لتقاليد بيئتها . مفتونة بحب العظمة والشهرة والمال والجاه العريض . فلما خرج تولستوى على وسطه الأرستقراطى واهتم بحياة الفلاحين . واندمج فيهم . وشاركهم فى فلاحة الأرض وفى مختلف الأعمال اليدوية المرهقة . وانقسم عليه مريدوه . فريق يؤيده وفريق يعارضه . ذعرت الكونتس ، واستهولت من زوجها هذا التحول . ورمته بالدوس والجنون . ولما كتب وصيته المشهورة التى نزل فيها عن جميع حقوقه فى مؤلفاته للشعب ، نغصت المرأة عليه عيشه ، وسعت إلى سرقة وصيته .

والواقع أن الكونتس تولستوى ، عندما نشرت مذكراتها ، أرادت أن تبرر مسلكها ، وتثأر من زوجها . وتمثل ذلك الرجل الوديع الطيب السمح فى صورة الإنسان الأنانى المتكبر المتعصب القاسى . ولكن من ينعم النظر فى مذكراتها يحس على الفور أنها أخفقت فى انتقامها ، وأنها لم ترسم صورة صادقة من زوجها ، بل رسمت فى الحقيقة صورة مروعة منها هى . فهى تعترف أنها لم تكن فى يوم من الأيام سليمة الأعصاب ، متزنة العقل والعاطفة ، بل كثيراً ما كانت تفكر فى الانتحار عقب كل مشادة تقع بينها وبين زوجها . ولقد كانت فكرة الانتحار هذه مستولية عليها منذ صباها ، تراود ذهنها ، وتحتل خيالها وتبتليها بنوبات متعاقبة من الهستيريا .

والعجيب فى أمر هذه السيدة المثقفة ، أنها لم تستطع أبداً أن تسيطر بثقافتها على فكرها وأعصابها . فكانت لا تفهم كيف يمكن لزوجها أن

يظهر فى بيته وأمام الناس بمظهر البشاشة والبهجة والفرح ثم يخفى فى الوقت نفسه حقيقة شخصيته . ولا يخفل البتة بالأثر الخطير الذى تحدثه أفكاره وتعاليمه فى محيط أسرته .

كانت لا تفهم أن هذا التناقض فى مسلك تولستوى . بل هذا الازدواج فى شخصيته . يرجع إلى طبيعة عبقريته التى كانت تفرض عليه احتمال الحياة فى بهجة ومرح وهى تضطره رغم ذلك إلى التشبث بفكره . وستر هذا الفكر المتمرد الثائر خلف مظاهر الرقة والبشاشة التى يحتمها عليه مركزه بوصفه رب أسرة لا تشاطره آراءه ولا تعاونه على تحقيقها . وهكذا اتهمته امرأته بالأنانية والقسوة والنفاق . لم تفهم أن بشاشة العبقرى الظاهرية التى تتعارض مع صرامة أفكاره . ليست قسوة ولا نفاقاً . وإنما هى رغبة نبيلة فى مسالمة خصوم يمتون إليه بأوثق الصلات . أو هى منصرف يلطف من ألم التفكير . أو هى اطمئنان إلى الحقيقة التى انتهى إليها العبقرى ، أو هى فترة مهادنة يعقدها العقل لمصلحة العمل ...

ومما يدل على مبلغ تحامل الكونتس على زوجها : أنها قد اتهمته أيضاً فى مذكراتها بالصلف والاعتداد بالنفس والظمأ الجنونى إلى المجد ، بدون أن تدلل على ذلك ببرهان واحد أو بحادثة واحدة . وهى فوق ذلك تنتقص فى مذكراتها من قدره ، وتعلى من شأنها هى . فتقول عنه بالحرف الواحد : « إنه مخلوق قذر تنبعث من جسده ويديه رائحة كريهة » . ثم تقول عن نفسها : « أنا امرأة مولعة بالطهارة ، وكل شىء طاهر هو شىء مقدس لدى . وإنى فى أعماق نفسى أوثر الفنون والآداب والقيم المعنوية العليا على كل ما هو تافه ووضيع مما تهتم به معظم النساء .. » وفى هذا ، وفى غيره ، تميط الكونتس اللثام عن وجهها . وتدلل على أنها كانت مزهوة بفضيلتها . فخوراً بذكائها . غيوراً من زوجها . تعتقد أنها مساوية له فى التفوق ، وأنها مصدر وحيه وباعث عبقريته ...

على أننا نشعر فى أقوالها بشىء من الصدق عندما تتحدث عن حب

تولستوى الشديد لها . بيد أنها فى هذا الجانب الوثيق الصلة بأنوثتها ، كانت أيضاً مغرورة ، وكانت واهمة . لأن تولستوى كان يحبها بجسده ويكرهها بقلبه . كان يندفع إليها بحيويته الجثمانية المتدفقة لا بفكره ولا بوجدانه . كان كمعظم الأزواج الأقوياء يتلهف على امرأته ، فتظن المرأة أن هذا التلهف الحسى المجرد هو الحب الكامل العميق . فتأخذها نشوة الاستبداد والكبر ، فتحاول أن تمتلك زوجها ، وتحوزه ، وتخضعه . وتسيره وفق مشيئتها . ولكن الزوج لا يكاد يرتد إلى عقله حتى يرى امرأته على حقيقتها . فلا يتردد فى محاسبتها على أخطائها ونقائصها حساباً عسيراً .

وهذا ما كانت تسميه الكونتس أيضاً تناقضاً . . إذ لم يكن فى وسعها أن تدرك أن تولستوى الذى أحبها بجسده كان يريد فى الوقت نفسه أن يعجب بها بعقله . كان يريدها مخلصة لفكره ، أمينة على رسالته ، حريصة على مبادئه ، مشجعة له على تضحياته ، تشاركه فى مطالب العقل والروح كما كانت تشاركه فى رغبات الحس والبدن !

وهذا الخلاف بل هذا الصراع هو الذى حفر الهوة العميقة بينه وبينها ، تلك الهوة التى نشعر بعمقها فى هذه الرسالة الفذة التى كتبها تولستوى إلى زوجته :

قال الراوى :

«لن أرجع إليك هذه الليلة يا عزيزتى . سأمكث فى بيت صديقى « فيدور » حتى أطمئن إلى مستقبلى معك ، وأثق بأن كل شىء فيك قد تغير .

وقد تدهشك منى هذه الجرأة وهذا العزم . ولكن ما حياتى ، لم يعد فى وسعى أن أحتمل . إن حياتى بالقرب منك أصبحت بليدة خاملة بحيث بت أخشى منها على شخصيتى . وعلى عملى ، وعلى كل ما كنت أحلم به من عظمة ومجد .

وأرى من واجبى فى هذه الساعة الفاصلة أن أشرح لك كل شىء ،

وأصارحك بالسبب الذى من أجله عقدت عزمى على مغادرة البيت ...

أنت يا عزيزتى امرأة مصابة بجنون الحب والغيرة . لم يكد القدر يحقق أحلامك ويجعل منك زوجة لى ، حتى اضطرب عقلك ، واستعرت عواطفك وخيل إليك أن الزواج لم يخلق إلا ليكون وسيلة مشروعة يجب أن تسخر لخدمة الحب والغيرة .

فالحب فى نظرك ، ولاسيما الحب المتقد غيرة وشكاً ، هو المجهود الفرد الذى يجب أن تبذله المرأة فى ظل الزواج ، وهو الغاية الوحيدة التى من أجلها تتزوج ، وهو المتعة الدائمة التى يجب أن يقدرها الرجل ، ويعب فيها ، ويعيش منها ولها .

وهكذا أحبيتنى بعد زواجنا حباً صاخباً عاصفاً ، زين لك خيالك الجامح أنه لا يجب أن يضعف ، ولا يجب أن يفتر ، ولا يجب أن يسبقه شىء أو يعترضه شىء أو يقف فى وجه سيله الجارف أى شىء ...

وكنت أنا أحبك أيضاً وما زلت أحبك . ولكنى شعرت ، وا أسفاه ، أنك تحبين حبك وغيرتك أكثر منى ، وتحبين ملذاتك ونزواتك أكثر من صحتى ، وتحبين غرائزك أضعاف حبك لواجبك البيتى .

على أن واجب البيت عندك هو الحب . فالعناية بشئون زوجك لا تهمك ، وتربية أطفالك لا تهمك ، ومسئوليتك حيال عملى وجهادى لا تهمك أيضاً . كل هذه الواجبات المقدسة يخضعها جنونك لعاطفة الحب المقرونة بالغيرة . ومادامت هذه العاطفة مشتعلة فى صدرك ، فأنت مبتهجة ، وأنت سعيدة ، وأنت معتقدة بل مؤمنة بأن زوجك هو الآخر لابد أن يكون مبتهجاً ، ولابد أن يكون سعيداً ، ولابد أن يكون مثلك مؤمناً بأن ملذات الحب وآلام الغيرة ينبغى أن تظل فوق مصلحة العائلة ، ومصلحة الأبناء ، ومصلحة العمل ، وقانون الحياة بأسرها . تلك هى نزعتك الطائشة . ذلك هو شيطانك . أنت عاشقة لا زوجة ، أنت أنثى

لا امرأة ؛ أنت غريزة تسعى لا مخلوق اجتماعى عاقل متزن يعرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات .

وإنى لأصارحك هنا بأن حبك العاصف الغيور المخبول أرهقنى وأضجرنى ولفنى فى شبكة مروعة من البلادة والكسل والخمول والظلام .

والحق أنى بت أبحث عن نفسى فلا أجدها . وأفتقد عقلى فيفر منى ، وأهيب بإرادتى فلا أقع إلا على أعصابى الحائرة . وقواى المحطمة . وعزمى المسلوب !

نعم .. إن عدواك سرت إلىّ .. فأنا اليوم خائف منك وخائف من نفسى ... خائف منك على شخصيتى وعبقريتى وعملى . وخائف من نفسى أن أطاوعك فأجهز بيدى على أحلامى ومستقبلى . وهذا الخوف المزدوج هو الذى دفعنى إلى الرحيل ... إذ كيف يمكن أن أعيش مع زوجة تأبى إلا أن تمثل طوال حياتها دور العاشقة المفتونة الغيور ؟ ...

إن الحب يا عزيزتى جميل . ولكنه ليس كل شىء فى الحياة . وأروع ما فى الحب هو التضحية . فإذا لم تضحى ببعض حبك من أجل أسرتك وأولادك وزوجك ، فأية قيمة لهذا الحب وأى نفع منه ؟ ... إنه ليتحول إذن إلى أنانية جنائية لابدّ أن تدمر الأسرة ، وتقضى على الحب نفسه شر قضاء !

وأنا أحس أن حبى لك سيموت من فرط عنف حبك وغيرته وجبروته المتسلط الأعمى .

فثوبى إلى رشدك وفكرى .

أنعمى النظر وافهمى . افهمى أن على الرجل فرضاً آخر غير الحب . وعملاً آخر غير العاطفة . ورسالة أخرى غير الفناء والموت بين أحضان امرأة .

الرجل يعيش للبيت والعالم ، للقلب والعقل ، للأسرة والإنسانية . فلا تحبسيه بين جدران قلبك ، لا تسجنيه بين حنايا ضلوعك ، لا تقتليه

فى حيوانية بدنك !...

إنك إن أطلقت الرجل كسيته . وإن حررته أنقذته ؛ وإن تعففت عنه ولو فترات ؛ سموت به وقويته وشجعته وأغريته بعظائم الأعمال .

فاطلقينى من ربقة حبك المجنون وإلا أطلقت نفسى . طهرينى من لوثة غيرتك الوحشية ؛ وإلا طهرت نفسى . مكنينى بتضحيتك فى سبيل أولادك وبيتك من أن أضحى أنا الآخر ببعض قوتى وشبابى فى سبيل إنقاذ نبوغى وتوكيد عبقريتى وخدمة العالم .

إن مجد المرأة لا يتمثل فى حب الرجل ؛ بل فى استخدام حبها وحنانها لخلق الرجل ! ... فاخلقينى بحبك بدل أن تقتلينى . أنقذى البقية الباقية من قوتى بدل أن تجهزى علىّ . ولكنك لو استرسلت فى غيك . وأبيت إلا أن تتبعى شيطان حبك وغيرتك ؛ فسيثبت لك الزمن أن فى مقدورى أن أدافع بمفردى عن شخصى ؛ وأدافع بمفردى عن عملى . وأستغنى آخر الأمر عن حبك كما استغنيت أنت عن التفكير فى مصلحتى ! ..

هذه رسالتى إليك فاقرئيها بإمعان وفكرى ... فكرى ولا تنتظرى أن أعود إلى البيت قبل انقضاء شهر على الأقل ... فإذا عدت ووجدتك المرأة الطائشة نفسها ، العاشقة نفسها المفتونة الغيور ، والزوجة المستهترة نفسها ، فسأقبل يدك شاكراً ، وأعتمد بعد الله على نفسى وأودعك الوداع الأخير ! ...

* * *

وأحدث هذا الخطاب أول الأمر أبلغ الأثر فى نفس زوجة تولستوى . فهذبت بعض الشىء من أخلاقها ، ولطفت من غلواء حبها وغيرتها . ولكنها عادت فاستبدت بالرجل مما اضطره فى نهاية حياته إلى هجر بيته مرة أخرى ، والموت وحيداً شريداً بائساً فى غرفة عارية بإحدى المحطات ...

هيلينا سيكورسكى

أو

النور المفقود

كانت « هيلينا سيكورسكى » الشاعرة البولندية الفذة تجهل مواهبها ؛ ولا تفكر إلا فى العاهة التى ابتلاها بها القدر ... فهاهى ذى تتوكأ الآن على عصاها ، وتمد ذراعها اليسرى ، وتضرب بها الهواء ، متحسسة طريقها ، متلمسة أوراق الشجر . مشرئبة بعنقها إلى القناة الكبيرة الممتدة تجاه حديقة البيت .

كانت تسير مرفوعة الرأس ، متئدة الخطى ، محدقة إلى السماء بعينيها السوداوين الواسعتين اللتين لم تعرفا نعمة النور منذ تفتحت أجفانهما على ظلمة الدنيا .

كان وجهها مشرقاً ، وشعرها الثائر الجميل متناثر الخصلات على خدها الناضر ، وابتسامتها العريضة تورق وتزدهر على شفتيها الحمراوين .

وطفقت تمشى حتى بلغت القناة . فألقت على الأرض بعصاها ، وارتمت فوق الحشائش ، ولبثت فترة طويلة ساهمة شاردة ثم حنت رأسها فى لوعة وإعياء ، وتقلص ظل ابتسامتها الساحرة ، وتحدرت على خدها دمعة .

وعادت فالتقطت عصاها ، وأخذت تنكت الأرض وتفكر ...

لماذا قذفت بها الأقدار إلى هذه الدنيا ، وفى سبيل أية غاية مجهولة ولدت عمياء ، وقدر عليها أن تعيش هكذا ، والناس جميعاً يمرحون مبتهجين فى فسحات الشمس والنور ! ... إنها بنت أعظم وأغنى رجل فى هذه القرية .. فلماذا لم يهبها والدها نعمة البصر ، وما جدواها من نعمة الجاه والثراء ؟ ... كان أجدر بأبيها أن يخنقها فى المهد من أن يصب عليها لعنة هذه الحياة !

واهتاجت أعصابها ، وضاقت ذرعاً بحظها . ولكن الجو ترفق بها ، وأرسل إليها فيضاً ندياً من النسمات . فتأوهت من أعماق نفسها ، وخيل إليها أنها تسبح فى عالم من القبل . فاستسلمت بجمع كيانها لقبلات

النسيم . وسرعان ما سكنت ثورتها ، وقرت أعصابها ، وآمنت بالله . واستشعرت رحمته ، وذكرت النعمة الكبرى التى أسبغها عليها .

وتطلقت أساريرها ، وأشرق وجهها البديع ، وهتفت : « كارل ! .. أين أنت ؟ .. »

وتلفتت حولها كمخبولة . ورفعت ذراعيها وعانقت الفضاء ، ثم مرغت وجهها فى لجة النسيم الناضر ، وطفقت تلثمه كأنما هى تغمر وجه كارل بالقبلات ...

ومضت هيلينا تنكت الأرض بعصاها ، وهى مطرقة برأسها ، منطوية على حلمها ، تحدق إلى منطلق صوت الماء .

وفجأة سمعت وقع أقدام خفيفة تدب على الحشائش . فهبت واقفة ، مدت يديها الحائرتين ، وصاحت : « كارل ! .. » .

فوثب إليها الشاب ، وتلقاها بين ذراعيه ، وضمها إلى صدره فى رفق ، وغمغم وهو يقبل عينيها وجبينها : هأنذا ! .. هأنذا يا هيلينا ...

وأجلسها على العشب الأخضر الناعم ، وتربع بجوارها . فأمالت رأسها إلى كتفه ، وتصاعدت أناملها المرتعشة وجعلت تتحسس فى لهفة وشوق وجه حبيبها .

وكان صامتاً واجماً ، فتطلعت إليه مستغربة وقالت : ما بك اليوم يا « كارل » ؟ ...

فاستضحك وقال وهو يشيح بوجهه كأنه يخشى أن ينعم النظر فيها : لا شىء .. لقد بذلت جهدى فى خدمة والدتك ثم أعددت لها ... لسيدتى .. طعام الإفطار ... ثم غافلتها وأسرعت توًّا إليك ! ...

فانبسطت أسارير الفتاة ، ورفت أهدابها غبطة وفرحاً ، وطوقت الشاب بذراعيها وقالت :

— لم نتم الدرس بالأمس يا « كارل » ويجب أن نعود إليه اليوم ... فتكلم ... أجبنى ... إن النور أبيض ، أعلم ذلك .. ولكن ما هو البياض يا كارل وماذا يشبه ؟ ...

فأجاب الشاب :

ـ البياض يشبه الصفاء يا هيلينا ... يشبه الحلم الهادئ الجميل ... يشبه السعادة التى نستمتع بها الآن ! ...

فقالت :

ـ والشمس .. الشمس الدافئة تارة والمتقدة أخرى ؟ ... أعلم أنها حمراء ، ولكنى لا أفهم اللون الأحمر ... فحدثنى عنه ... أشعر أنى أحب هذا اللون من دون الألوان جميعاً ! ...

فقال كارل وهو يرتجف :

ـ وأنا أحبه مثلك فهو كل الحياة ، وفى وسع بصيرتك أن تراه . أن تلمسه . فى نفسك ، فى صدرك ، فى شبابك ، فى قوة هذا الحب الذى يجمع بينك أنت الفتاة العظيمة وبينى أنا الخادم الفقير الوضيع !

فقالت :

ـ إذن فاللون الأحمر هو الحب ... هو حب الشمس للأرض ، وحب الرجل للمرأة ، وحب الإنسان للخير ؟ ..

فغمغم كارل :

ـ وللشر أيضاً ! ...

فبهتت الفتاة وقالت :

ـ كيف يجتمع الخير والشر فى لون واحد ؟

فأجاب الشاب :

ـ كما يجتمع الحب والغيرة فى قلب واحد يا هيلينا !

فقطبت الضريرة حاجبيها ، وضمت الشاب إلى صدرها ، وقالت :

ـ أنا أفهم الغيرة تماماً يا كارل ، وأشعر أن فى وسعى أن أقتلك لو حدثتك نفسك يوماً بخيانتى !

فقال :

ـ وهذا هو الشر يا هيلينا ... هذا هو اللون الأحمر الصارخ الشبيه

بلون الدم ! ... ولكنى لن أخدعك أبداً يا هيلينا ! ...

فصاحت الفتاة وهى تقبله :

ـ وأنا لن أكون أبداً لسواك ! ... أنت كل حياتى ! ..

فحدق إليها فترة ، ثم قال :

ـ ومع ذلك فقد تنصرفين فى غد عنى ! ... إن الطبيب المشهور ، العالم الفرنسى الكبير ، ذلك الرجل الذى حدثتك عنه والدتك بالأمس ، سيكون هنا بعد لحظات ... وقد تقع على يديه المعجزة ... المعجزة التى يتوقعها الجميع ... قد يشفيك .. وقد تبصرين .. فترين النور ، وترين الجمال ، وترين الرجال ، وترينى أنا ... وعندئذ ... .

فصرخت :

ـ اصمت ! ..

واستطردت فى صوت أجش :

ـ أجل . أنت على حق . وأنا مثلك . أنا خائفة من الحياة . خائفة من المعجزة . خائفة من النور . أود أن أبصر ، وأخشى لو رأيت النور أن تحدث فاجعة .

فصاح وهو يكاد يبكى :

ـ أرأيت ؟ ! .. أنت منذ الآن ترتعدين ! .. أنت منذ الآن تشعرين أن النور قد يعقبه ظلام ، وأنه لو قدر لفتاة مثلك أن تنعم بالنور بعد ظلام فلا يمكن أن تكون هناك أبداً سعادة بل شقاء .

فتأوهت هيلينا وهتفت :

ـ إذن ليتنى لا أشفى أبداً !

ولم تكد تتم عبارتها حتى دق جرس باب الحديقة الخارجى . فأجفل كارل وصاح :

ـ هذا هو الطبيب !

وارتمى على الفتاة ملهوفاً ، وعانقها عناقاً حاراً ثم غمغم : سيشفيك .

أحس أنه سيشفيك وأنك ستنسينى ! . . . لتكن مشيئة الله . . . إلى الغد . . . عسى أن يكون فى مقدورى أن أراك غداً . . خذى طريقك من هنا ! . . . على مهل ! . . .

وتملص من بين ذراعيها ، واندفع وسط الأشجار . وعندئذ وفيما هو يركض ليدخل القصر قبل أن يفطن أحد لتغيبه . تراجع مذعوراً ، وخفق قلبه إذ أبصر نفسه فجأة أمام سيدة القصر والدة هيلينا وجهاً لوجه .

وارتبك وحاول أن يتكلم ، ولكن السيدة العظيمة أهابت به وهى ترعد :

— قف ! . . أين كنت ؟ . . على حافة القناة . . فى صحبة ابنتى ؟ . . أليس كذلك ؟ . . ما شأنك بها أنت الخادم الأجير الوضيع ؛ ولماذا غادرت القصر فجأة وجئت إلى هنا ؟ . . ليست هذه هى المرة الأولى التى تحاول فيها الاتصال خلسة بابنتى . لقد أثرت شكوكى ، فتربصت بك اليوم ، وهأنذى أفاجئك معها ! . . أسرع . . أعد حقائبك حالا . . . وسيصرف لك الوكيل مرتبك على الفور . هيا ، وإياك ومحاولة الاتصال ثانية بهيلينا ! . . .

فامتقع وجه كارل ، وغشى الدم عينيه ، وتمتم وهو يومئ بأصبعه إلى باب الحديقة مستجدياً .

— ولكن الطبيب أقبل يا سيدتى . . . وهو سيعالج ابنتك وقد يشفيها . . . فألتمس منك بل أتوسل إليك ، أن تصفحى عنى ، أن تبقينى فى القصر ولو بضعة أيام أيضاً ، بضعة أيام فقط أطمئن فيها على سيدتى الصغيرة ! . . .

فصرخت ربة البيت فى غضب :

— أعد حقائبك حالا وارحل .

فثارت ثائرة كارل ، وهتف متحدياً :

— لن أرحل ! . . . سأمكث هنا ! . . . بجوار القصر ! . . فى كوخ أحد الفلاحين ! . . . وسأنتظر حتى يتم العلاج وأطمئن على سلامة سيدتى الصغيرة ! . . .

فرشقته السيدة بنظرة مستنكرة ، ثم هزت كتفيها فى احتقار وقالت :
ـ أنت وشأنك .
واستدارت وذهبت لملاقاة الطبيب .

أما هيلينا التى كشف لها كارل عن عالم الألوان والأضواء ، وهداها إلى عاطفة الحب ، وبصرها بمعنى الخير والشر ، فقد أحست بغتة وعلى دهش منها أن شيئاً عميقاً يستيقظ فيها ، وأن قوة طارئة عجيبة تستبد بعقلها وخيالها ، وتأبى إلا أن تندفق من ذهنها وتفيض . فلم تكد تخلو بنفسها فى حجرتها حتى شرعت تكتب بطريقة « برايل » هذه القصيدة الشائقة التى كانت أولى قصائدها والتى تغزلت فيها بطيف حبيبها ، وتغنت بربيع الحب وربيع الحياة :

* * *

« هذا هو الربيع اليانع المشرق .
فماذا أريد اليوم وماذا أطلب .
الأشجار أزهرت . والورود تفتحت . والسماوات تألقت ، ومن غصن كل شجرة تتهدل ثمرة ، وفى لب كل وردة تحوم نحلة ، وعلى كل سماء يتمزق غيم وتسطع شمس ! . .

* * *

أريد أن أضع قلبى على قلبك ، وشفتيك على شفتى ، كى أحس قبلاتك تنفرط فى نفسى كأوراق الزهر ، وتترقرق فى روحى كزرقة السماء .

دع أناملك تتحرك فى بطء كهمس الأسرار ، وتنساب فى ليونة كليونة قوارب النجاة ، وتحتضن أناملى ، كى تصب فى عروق الخامدة سيل الربيع وعصارة الحياة .

* * *

أى معنى للشجرة المزهرة بدون جسدك ، وأية قيمة للوردة الناضرة

بدون خدك ، وأية لذة للثمرة الشهية بدون فمك ؛ وأية روعة للسماء الصافية بدون جبينك الناصع الوضاح .

* * *

هو ذا العالم يندمج فى جمالك اندماج البذرة فى الأرض . ويسرى فى كيانك مسرى الفكر فى العقل ، ويتغلغل فى صدرك تغلغل الحب فى القلب ، ويتسلل فى دمك تسلل النار فى النار . ومادمت أنت رجع صدى الكون ، فلابد أن أكون أنا رجع صداك !

* * *

فتعال وخذنى ... خذنى إلى هناك ، إلى مدينة الأحلام ، إلى حيث النسيم يهمس ، والظل يحضن ، والشجر يغنى ، والطير العاقل يسخر من الورد الزاهر ، ويفتح أجنحته ثم يطويها علينا يا حبيبى ! ..

* * *

وفى صباح اليوم التالى أجريت العملية لهيلينا ثم عصب الطبيب عينيها وأرقدها على الفراش فى حجرة ساكنة مجللة بأستار سوداء .

واستبد القلق بنفس الفتاة ، وتلهفت على معرفة مصيرها ؛ ومكثت أسبوعين طويلين ممددة على فراشها ، سابحة فى ظلام وحدتها ، تفكر فى كارل ، وفى المستقبل المجهول الذى ينتظرها ، بدون أن يخطر على بالها لحظة واحدة أن حبيبها قد انتزع منها ، وطرد من البيت .

وفى ذات صباح ، فتح باب حجرتها ، ودخل عليها أبوها وبنات عمها يصحبهم الطبيب .

وتقدم إليها الطبيب ، وحل العصابة عن عينيها . فرفت أهداب الفتاة ، وانفتحت أجفانها ، وطفقت عيناها الجاحظتان تحدقان إلى الفضاء الحالك فى شبه حيرة يخالطها ذهول ...

خيل إليها أن الناس حولها تتراقص كالأشباح ، فجعلت تنظر حتى استشفت الوجوه والقامات غائمة بعيدة كأنها تسبح خلف ضباب . فهبت

من فراشها مذعورة ثم وقفت فى وسط الغرفة تجيل الطرف فى أهلها وترتعش . وعندئذ وثب الطبيب ، ومد يده ، وشرع يجذب الأستار فى بطء . فصرخت هيلينا من أعماق قلبها وهى تفتح عينيها لتستقبل النور :

ـ أماه ! ... إنى أرى ! ...

فأرسلت الأم صيحة مدوية . وهلل الأب والفتيات ، وانهمرت من عيونهم الدموع . أما الطبيب فأسرع يسدل الأستار مرة ثانية ، ولكن هيلينا أمسكت به ، ونحته عن النافذة ، واندفعت صوبها وفتحت مصراعيها فى عنف وتركت النور يندفق إلى وسط الغرفة .

ولبثت واقفة تحدق إلى السماء الزرقاء ، إلى النور الأبيض الساطع ، وهى مسلوبة الحول ، طائرة اللب ، تكاد تصرعها الحيرة ، ويخنقها الفرح .

وتلفتت حولها كمن يفتقد شيئاً . وما لبثت أن اربدّ وجهها ، وغام بصرها ، وصاحت بغتة فى صوت ممزق :

ـ النور أبيض ! .... النور جميل ! .... ولكن يخيل إلىّ أنه كان بالأمس أجمل! ... لم يعد يشبه الصفاء والحلم والسعادة كما كان يقول كارل ! ...

وحدقت إلى السماء فترة وهتفت :

ـ والشمس ؟ .. إنها حمراء ولكنها مخيفة ! ... ليس فى لونها ما يشبه الحب كما كان يقول أيضاً كارل ! ...

وانتفضت وأردفت :

ـ وهذا النسيم ... لا أرى فيه شيئاً ! ... أين قبلاته ؟ ... أين روحه ؟ ... أين سحره الشائق العجيب ؟...

وصرخت :

ـ أماه إنى أرى النور ، ولكنى لا أرى الحياة ! لا أرى الجمال الذى طالما حلمت به والذى كان يتفجر من صوت كارل مدوياً مجلجلا

كالينبوع ! ... المعجزة لم تقع يا أماه فانقذيني ... أنقذيني من هذا النور المهلك ، وابعثي إليّ بكارل ! ...

فامتقع وجه الأم ، وخشيت على ابنتها وقد أبصرت ، أن تعود فتقع تحت تأثير حبها الوضيع . فصاحت بها توقظ عقلها وتستنهض كرامتها :

— عار عليك أن تعشقي مثل ذلك الرجل ! لاسيما الآن .. الآن وقد أصبحت مبصرة . لقد طردته ! ... طردته ! ...

ففغرت هيلينا فاها كبلهاء ، واحتقنت عيناها ، وشخصت إلى أمها ولم تتحرك .

وفجأة مدت ذراعيها كما كانت تفعل بالأمس ، وضربت بهما الهواء ، واتجهت صوب الباب وصرخت :

— إذن فالوداع !

ثم استجمعت قواها ، وغافلت الجميع واندفعت نحو حديقة البيت وهي تردد كمعتوهة :

— كارل ! ... كارل ! ...

وانطلق الجميع فى إثرها حتى جاوزت الحديقة وبلغت القناة . وهناك بين الأشجار الباسقة ، وحول العشب الأخضر الناضر ، وعلى حافة القناة الكبيرة ، أبصروها تقف فجأة . ثم تلطم صدرها بقبضتيها ، وتبكى بكاء مرا ، وتهم بإلقاء نفسها فى الماء . فأحاطوا بها وحاولوا ردها عن عزمها . وإذ ذاك اصطفت أغصان إحدى الأشجار ، وبرز من خلالها كارل واندفع نحو الفتاة وصاح :

— أنا كارل يا هيلينا .. لقد طردونى ، ولكنى بقيت معك ! ... بجوارك ! ... فى كوخ أحد الفلاحين .. حتى علمت اليوم أنك شفيت فأسرعت وانتظرتك هنا ! فلماذا تنشدين الموت وقد ردت إليك نعمة البصر والنور ؟ ! ...

فتحولت إليه وتأملته وهى ترتجف . تأملت كل شىء فيه : جماله الرائع

شبابه الساحر : عينيه الزرقاوين الفاتنتين ... وراءه هو الآخر جمالها الخلاب وإشراق عينيها المبصرتين . فجثا عند قدميها وردد : لماذا تطلبين الموت يا هيلينا ؟ ..

فغمغمت قائلة وهى تتأملهِ :

ـ لأنى كنت رغم المعجزة ما أزال عمياء ! كنت ما أزال فى حاجة إلى نور القلب يا حبيبى ... أما الآن .. الآن وقد رأيتك يا كارل ...

وعقد الفرح لسانها ، فالتفتت إلى أمها وقالت ، وقد انفجرت من عينيها الدموع :

ـ أعطنى .. أعطنى كارل يا أماه ! ...

فتمزق قلب الأم ، وذابت كبرياؤها تحت تأثير حنانها فهتفت من أعماق قلبها :

ـ خذيه يا ابنتى فهو زوجك !

فارتمت هيلينا على حبيبها ، وانكمشت بين ذراعيه وطفقت تحدق إليه وتقبله فى نشوة وجنون .

وعندئذ ، عندئذ فقط ، وقعت المعجزة الحقيقية ، وارتد إلى الفتاة بصرها ، ورأت فى ضوء الحب فتنة النور ووجه الحياة !

* * *

وهذه هى القصيدة البديعة التى كتبتها هيلينا سيكورسكى بعد أن اقترنت بحبيبها كارل . وهى قصيدة تمجد فيها الحياة الزوجية متى جمعت بين قلبين مخلصين طاهرين :

* * *

« لم أعرف سواك فى حياتى يا حبيبى .

كنت زهرة على وشك الذبول ، فضممتنى إلى صدرك ، وغمرتنى بعطفك ، وأغدقت علىّ حناناً كالندى ، وحباً ساطعاً كشعاع الشمس .

كنت حبيبى ، فأصبحت حبيبى وزوجى وأخى ! ...

يا لنعمة الأخوة تؤلف بين قلبين فى ظل الزواج !

إنى لأشعر بأن أفكارى . وعواطفى ، ودمائى ، وكل شىء ينبض فىّ . قد استقر فيك يا زوجى . وبات قطعة من فؤادك يا حبيبى ، وشطراً من روحك يا أخى ! .. يا أخى فى القلب والجسد . فى البؤس والفرح . فى الظلمة والنور !

ولقد اخترتك وحدك لنجتاز معاً طريق الزهر والشوك !

وهأنذا أسند رأسى الضعيف إلى كتفك ، وأضع يدى الصغيرة فى يدك ، وأحدق إلى المستقبل المجهول بعين لا تعرف الخوف !

وكيف يمكن أن أخاف وأنت معى ، وفيض إخلاصك يملأ ضلوعى وسحر ماضينا الجميل يتصاعد كالنغم العذب ، ويذوب فى قرارة أذنى ؟! ..

إنى لأستمع إلى هذا النغم العظيم ، ولا أستطيع أن أحبس دموعى! ...

لتنهمر الدموع صلاة شكر لله على سعادتى .

هذا هو دمعى الطروب وهذه هى نغمة صلاتى :

يا إلهى ، لقد وهبتنى رجلاً يحمينى ، وعقلاً يرشدنى ، ونفساً ترعانى . وفراشاً أبيض طاهراً يضم جسداً نقياً أنا له وهو لى ، وأنا منه وهو منى! ..

ذلك هو زوجى وحبيبى وأخى . زوجى للعمر كله وللحياة بأسرها ، ولما بعد العمر ، وبعد الحياة ، وبعد الموت أيضاً ! ...

فاحفظه لى يا إلهى ، واحفظنى له حتى نلتقى .

وسنلتقى معاً فى لحظة خاطفة أمام وجهك الرائع يا إلهى . سننفض أكفاننا معاً ، وننفض ترابنا معاً ، ونتقدم إليك هاتفين مهللين !

فامنحنا فى تلك اللحظة الخاطفة نصيبنا . امنحنا فى تلك اللحظة الفاصلة ثوابنا . وجد علينا وعلى أولادنا بنعمة الخلود الأبدى فى حبك الأسمى ، وفى ذاتك السرمدية يا الله !

إيزادورا دنكان
أو
بين خريف وربيع

كان ذلك فى باريس . فى ليلة من ليالى عيد الميلاد . وفى منزل روائى وكاتب مسرحى .

كان هذا الروائى قد أقام حفلة شائقة دعا إليها طائفة كبيرة من أصدقائه معظمهم من الأدباء والشعراء والرسامين والممثلين . وكانت زينة الحفلة وبهجتها الراقصة الذائعة الصيت « إيزادورا دنكان » التى خلبت ألباب الباريسيين فى ذلك العهد برقصاتها الرائعة المستمدة من فن الرقص عند الإغريق ، ونزعته إلى تمثيل مختلف ظواهر الطبيعة . وشتى انفعالات القلب البشرى فى حركات دقيقة وبسيطة وحرة ، يقصد بها تمجيد الحياة سواء أكانت رحيمة أم قاسية ، سعيدة أم شقية » .

* * *

لم تكن إيزادورا امرأة خارقة الجمال . ولكنها كانت امرأة ساحرة ، فى نحو الخامسة والأربعين ، ذات عينين واسعتين ملتهبتين ، وجبهة عالية ناصعة . وأنف صغير ، وفم عريض ، واتقاد فى الحركة والإشارة والكلام ، يقترن بليونة عجيبة فى الأعضاء وانسجام كامل فى تقاطيع البدن .

وكانت عبارات الثناء تنهال عليها من كل صوب ، وآيات الإعجاب تطرح عند قدميها أشبه بالقرابين ، وزفرات الحب والهيام تتصاعد إليها من صدور رجال الأدب والفن ، فلا تظفر منها بغير ابتسامة لطيفة ، أو رنوة رقيقة . أو عبارة تفيض بالمجاملة بدون أن يزاولها طابع الكبر المتأدب والتحفظ الحريص .

ودارت على المدعوين كؤوس الشراب ، ولعبت برؤوسهم نشوة الخمر . فشرعوا يغنون ويرقصون ، وإيزادورا تشاركهم فى لهوهم ومراحهم ، فاترة ساهمة حالمة ، تغشى وجهها سحابة خفيفة من الكآبة والضجر ، تحاول أن تخفيها بابتسامتها المشرقة ، وضحكتها الرنانة التى لا تكاد تنطلق من صدرها

حتى تنفرط كعقد من البلور . وفجأة ، وفى نحو الساعة الثانية صباحاً ، أعلن خادم الدار مقدم الشاعر الروسى العبقرى « سرجى إيسينين » . فهتف المدعوون وهللوا ، وأحاطوا بالشاعر الروسى مرحبين ، وأبوا إلا أن يشرب بعد « إيزادورا » من كأسها نفسها ، مبالغة فى تكريمه ، وإشراكاً للشخصيتين العظيمتين فى إعجاب واحد وصداقة واحدة ومجد واحد .

وكانت هذه هى أول مرة يلتقى فيها الشاعر بالراقصة ، وأول مرة تقع فيها عين الراقصة على الشاعر .

ورمقته « إيزادورا » بنظرة . فراعها منه جماله الشاحب الحزين . فشخصت إليه فترة ، وتولتها رعدة خوف طارئ عقلت لسانها ، وأشاعت فى نفسها إحساساً غريباً بالحيرة والوجوم .

وكان الشاعر فتى فى نحو الثانية والعشرين ، مديد القامة ، أهيف القد ، ينعقد شعره الأشقر حول جبينه كإكليل من ذهب ، وتضطرم فى عينيه الزرقاوين شعلة النبوغ ، وتستعر فى خديه الضامرين الغائرين شبه نار تدل أبلغ الدلالة على أن الشاب يشكو مرضاً عضالا يبرح به ، ويثير حسرته على نفسه ، ويضاعف جماله بهاء وفتنة .

وكان وديعاً ، رقيقاً ، عذب الروح ، حلو الحديث ، جم الفكاهة ، يخفى آلامه العميقة فى ضوء ابتسامته ، ويخفى حسرته الدفينة فى أطواء حلمه ، ويخفى مصيره الفاجع الذى لا يفتأ يطارده ، فى تصورات وتأملات تساوره وهو بين الناس ، فيضم عليها عقله وروحه ، كى يرسلها فى وحدته قصائد تختلج بحب الصحة وحب القوة وحب السعادة وحب الحياة .

ولمحته « إيزادورا » يسعل سعالا جافاً يزعزع صدره ، ويهز كيانه من الأعماق . فأيقنت أنه مصدور . فلم تنفر منه ، بل على النقيض أشفقت عليه ورثت لحاله ، وأحست كأن المرض يخرج به عن الدنيا ، ويجعل منه مخلوقاً رائعاً فى جماله ، شاذاً فى مظهره وروحه ، يلتقى فيه الضعف بالقوة ، والشباب بالألم ، والمجد بالحسرة ، والحب بالموت .

وكانت « إيزادورا » امرأة ذات قلب عامر بأسمى العواطف وأنبلها : قلب يسعده أن يحنو ، ويسعده أن يخلص ، ويسعده أن يبذل ويضحى . فعشقت الشاعر عشقاً مازجت فيه بين الرغبة الحسية الطبيعية ، وبين مشاعر العطف والرعاية والحنان وإنكار الذات .

وفتن الشاعر منها سحر نضوجها ، وعمق طيبتها ، ووفرة ثقافتها ، وتلك الحيوية المتقدة الكامنة فى أعضائها اللينة المتوثبة ، وفى عينيها السوداوين الملتهبتين ... فتقرب إليها ، ولاطفها ، وانصرف عن الجميع وأقبل عليها ، وطفق يحدثها فى غمغمة طويلة عذبة حديثاً مبتكراً خالباً ، مفعماً بالصور الباهرة ، والأخيلة النادرة ، والاستعارات والمجازات العجيبة التى تبدعها العبقرية الشعرية فى لحظة . فاشتد انجذاب المرأة إليه ، واشتد ولعها الطارئ به ، وراحت تتأمله وهى تسبح فى شبه غيبوبة وتفكر فى رقصة جديدة تستمدها من وحيه ، وتستلهمها من عذابه ، وتصب فيها عصارة هذا الحب الغاشم الذى عصف بها ، وضربها فجأة فى صميم كيانها كما يضرب البرق الشجرة بالصاعقة فيحرقها .

ولم يكد يطلع الفجر ، وتنتهى الحفلة ، حتى كان الشاعر والراقصة قد تآلفا وارتبطا ، فى عالم زاخر بالمطامع والآمال والأحلام ...

وقدم إليها ذراعه ، فرافقته وهى ترتعش . فخرج بها شامخاً ومعتزاً . تجول معها فى الشوارع ، وشاهد فى صحبتها ضوء الفجر البنفسجى ، وهو يتبدد شيئاً فشيئاً ، ويطلق من صدره المتمزق وهج النهار ... ولما ارتد بها إلى بيتها وحياها ، ضغطت على يده ، ودعته لزيارتها فى يوم من الأسبوع التالى . فلم يصدق سمعه ، وأفقده الفرح صوابه . فانحنى وقبل يدها . ثم خشى أن تحونه قواه فيطفر الدمع من عينيه ، فقبل اليد الغالية مرة أخرى ، ثم أسرع واستدار ، وانطلق يمشى فى الشوارع على غير هدى .

وأحرزت الرقصة الجديدة التى ابتدعتها « إيزادورا » من وحى حبها

وأسمتها « الخريف الناضر » نجاحاً منقطع النظير . فازدادت هياماً بشاعرها ، ولكنها رغم ثقتها المطلقة فيه ، ويقينها الراسخ من صدق حبه ، أرادت أن ان تمتحنه أيضاً قبل أن تهبه البقية الباقية من حياتها . فأقصته فترة عنها . فازداد الشاعر تعلقاً بها ، ورغبة فيها ، ثم اهتاجت عواطفه وكتب إليها هذه الرسالة الرائعة الشبيهة بقصيدة من الشعر الخالص .

« ... أنا لم أعرفك إلا منذ شهر واحد .. ومع ذلك فأنا أحس أنى قد التقيت بك منذ سنين ، وعشت معك قبل مولدك ، واتصلت بروحك فى دنيا غير هذه الدنيا ، وفى عالم كله شموس وأقمار وأشجار وبساتين ! .. أنكون حقاً قد تعارفنا فى كوكب غير هذا ؟ .. أم هو الحب الساحر خلاق المعجزات يولد فى نفس المحب أحلاماً لا تمت بصلة إلى الواقع ومنطق الحياة ؟ .. على أنى أهزأ بالمنطق وأسخر بالواقع ، ولا أومن إلا بصوت القلب ... وقلبى لا يفتأ يقول لى إنك كنت حبيبتى منذ الأبد ، وإنى عرفتك فى أول يوم من أيام الحياة ، ورأيتك فى نفس اللحظة التى نفخ الله فيها من روحه ، فدبت الحركة فى الدنيا واستحالت فوضاها إلى نظام وجمال.

هو ذاك .. لقد اصطفتك نفسى منذ بدء الخليقة ، ووجد فيك خيالى مثل المرأة الأعلى . ولقد أحببتك لأنك امرأة لا كبرياء فى نفسها ، ولا خبث فى عقلها ، ولا دهاء فى قلبها ، ولا خلاعة فى أخلاقها ، بل رقة كرقة الورد ، ودماثة كدماثة الماء ، وعذوبة كعذوبة أروع الشعر ، وسذاجة كسذاجة الأطفال أحباب الملائكة والله ! .. فهبينى القوة أنا المريض ، قوة الفكر الثاقب ، والقلب الطيب ، والروح الحافزة . هذه القوة التى أراها ممثلة فيك ، مستقرة فى أطواء نفسك استقرار اللآلىء النادرة فى أعماق بحر عظيم ... فتعالى إلىّ وطهرى خلقى ونفسى ، إذ فى مقدور المرأة أن ترتكب جريمة ، كما أن فى مقدورها أن تصنع معجزة . فى مقدورها أن تقتل الرجل ، كما أن فى مقدورها أن تخلق الرجل . فاصنعى المعجزة وابعثينى ، ابعثينى ، فى ظل روحك الطاهرة ، فقد كنت حتى

الساعة ميتاً مكفناً فى غلائل ضعفى ومرضى ، أخالس هيثاً يوم النشور ولحظة الخلود ! .. وأنا فى انتظار ردك يا حبيبتى ، أنحنى فى خشوع ، وأقبل يدك الناضرة التى أسرتنى ، والتى أرجو أن تطوق فكرى وقلبى وروحى مدى الحياة ! .. » .

وكانت هذه الرسالة هى عروة هذا الغرام الوثقى . فاندمج العاشقان بالروح والجسد ، وغادرا باريس وراحا ينشدان الحب فى وكر أعدته « إيزادورا » فى ضاحية ريفية نائية .

وهناك بعيداً عن العالم ، وفى هدأة الطبيعة الكبرى ، وبين الحقول الشاسعة والمروج الخضراء ، أمضى الحبيبان ثلاثة أسابيع كانت نعمة من الصحة والقوة أسبغها الحب على الشاعر ، وفيضاً من الفرح والبهجة أغدقها على الراقصة المفتونة التى لم تعد تذكر أنها فى مهبط العمر وفى عامها الخامس والأربعين .

ونسيت « إيزادورا » مفاخر الشهرة والمجد ، وأضواء المسرح ، وهتاف الجماهير ، ولم تعد ترقص للناس ، بل لحبيبها . فكانت تغافله ، وتدخل عليه فجأة وقد تجملت بأبدع أثوابها التمثيلية ، ثم تأخذ فى الرقص أمامه ، وهو جالس يرقبها ، مشرئب العنق إليها ، مستنزلا وحيه من روعة التعبير الحى الماثل فى حركاتها ، حتى إذا ما سكنت وهدأ وقع خطاها ، عكف هو على نظم شعره ، ممتلىء النفس بها ، مفعم الروح بإلهامها ، منتشياً بقوته الخالقة التى استمدها منها ، والتى تمثلت فى قصائد شائقة ، كانت تذهله وتبهره كأنه ليس هو صانعها ومبدعها .

وهكذا اقترن الفن بالحب ، وأضرم الحب شعلة الفن ، . فأخرج الشاعر ديوانه الخالد « نبع الحياة » الذى استفاضت شهرته بين يوم وليلة . ولكن القدر كان واقفاً بالمرصاد يأبى إلا أن يكشف عن وجهه الساخر ، ويمد يده الغادرة كى يصب السم فى كأس الحبيبين .

تحرك الداء الخبيث الذى كان قد تقلص أول الأمر فى غمرة الصحة

الزائفة التى أطبها الحب والفرح . وعاد فاستبد بالشاعر الشاب . فضمر وجهه وشحب لونه . وساورته الحمى . وانتابته نوبات السعال الشديدة العنيدة متعاقبة لا ترحم .

وفى ذات صباح ، أبصرته إيزادورا ، وهو يبصق الدم فى منديله . فاقشعر بدنها وارتعدت فرائصها . لم تستطع أن تتصور أنها يمكن أن تفقده ؛ فأبت أن تكون له حرصاً على صحته . فعادت به إلى باريس . وأرغمته على ملازمة الفراش ، وآلت على نفسها أن تودع الدنيا وتنقطع لخدمته . وأن تجاهد وتبذل المستحيل كى ترد عنه عادية المرض وتنقذه .

وكانت لا تفارقه لحظة واحدة . كانت تسعفه بالدواء فى الميقات ، وترقب سير حرارته ، وتعنى بتغذيته ، وتغسل بيديها مناديله الملطخة ببقع الدم ، وتسهر عليه الليل بطوله بدون تبرم أو كلل .

وراعه صدق حبها وعظيم إخلاصها وعمق تضحيتها . فعاونها بصبره وامتثاله وطاعته ، وبذل هو الآخر جهد المستميت كى يقاوم المرض من أجلها .

وشيئاً فشيئاً ، وعلى مر الزمن ، دبت فيه وقدة النشاط والصحة ، وتماثل للشفاء . فجنت المرأة فرحاً ولم تعد تسعها الدنيا . أحست أن حبها قد انتزع الحياة من بين براثن الموت ، ورد إلى حبيبها نعمة العافية والقوة ومتعة الحركة والانطلاق . فأيقنت أنها انتصرت ، وأن أيام الهناء قد عادت وأن فى وسعها بعد جهادها الطويل أن تطمئن وتسعد . بيد أن القدر ، القدر نفسه ، القدر الذى كان قد استخفى فترة ليضحك ، عاد فكشف عن وجهه الساخر ، وطاب له أن يطعن « إيزادورا » فى الصميم ...

* * *

حدث أن فتاة فقيرة من هواة فن الرقص تدعى « بلانش فلورى » جاءت لزيارة الراقصة مساء يوم ، وطلبت إليها أن تدربها على بعض فنون الرقص التى استحدثتها « إيزادورا » .

وكانت « بلانش » فى نحو العشرين من عمرها ، ذات وجه أبيض مشرب بالسمرة . وعينين زرقاوين لعوبين . وخدين شهيين موردين . وابتسامة ناضرة . وأعضاء وطيدة . وبدن غض . وكانت ضحاكة صخابة ، يمشى المرح فى ركابها ، وتضفى عليها الفتوة المعتزة حلة رائعة تفتن القلب والعقل .

كانت هذه الفتاة هى مشرق النهار ، وأما « إيزادورا » فكانت غروبه .. كانت « بلانش » هى الربيع بسمائه الساطعة وأزهاره اليانعة ونسماته المسكرة ، وعصارته البكر الزاخرة بالحياة الخصبة والأمل العريض . وأما « إيزادورا » فكانت الخريف بسمائه الغائمة . وأزهاره الذابلة ، وأوراقه اليابسة ، وانكماشه المتعب الحائر القلق الحزين .

واستجاب الشباب لنداء الشباب . وأحس الشاعر بالرغم منه أن قلبه يهفو إلى « بلانش » ، وأنه يضطرب أمامها ، ويجزع لمرآها ، ويصد عنها ثم يسعى إليها ، يفر منها كى يتعقبها عامداً ويطاردها . أحس أن صورتها تحل فى خياله رويداً رويداً محل تلك الصورة التى كان يعتقد أنه لن يقدس أبداً غيرها . فملكه الذعر ، وكافح جهده الإغراء . حاول أن يقاوم ، أن يبتعد ، أن يكون مستقيماً وصريحاً ، أن يكاشف « إيزادورا » بالعاطفة التى استولت عليه ، ويلتمس من المرأة أن تطرد الفتاة الدخيلة وتنقذه منها . ولكن طبيعته كانت أقوى من إرادته . فلم يستطع ... لم يستطع وهو الشاعر أن ينقطع لحب امرأة واحدة ، أن يمثل الدنيا كلها فى امرأة واحدة ، أن يجمع الجمال ويحصره كله فى امرأة واحدة . كان لابد له أن يجدد وحيه ويجدد خياله ويعب فى نبع الشباب ليحس بالقوة التى ارتدت إليه ، وبالشباب الذى عاد يضطرم فى عروقه . فتاقت نفسه إلى أفق آخر ، وعالم آخر وفتنة طريفة لا عهد له بها .

على أن الصراع كان محتدماً فى نفسه . كان يحب « إيزادورا » ويتعذب . لم ينس إخلاصها ، لم ينس تضحياتها ، لم ينس أنه مدين لها

بحياته . ولكن هذا الدين بالذات كان يشعره بجحوده فيثيره على نفسه ، ويضاعف حبه للفتاة الساحرة ، تأججاً واشتعالا . وهكذا كان يحب ويكتم ، يتعذب ويصمت ، يهم ويحجم ، يشرد ويتأمل ... كان يشفق على « إيزادورا » ، بل يتمزق لتصور عذابها ، ويتمزق لشعوره بأنه هو الذى سيعذبها ، وهو الذى سيشقيها ، وهو الذى سيقضى فى نفسها على آخر حب وآخر أمل وآخر عزاء ... ومع ذلك فقد قسا قلبه ، وغلظت عواطفه . وتفاقمت بغتة أنانيته . فبدأ يفكر فى الفتاة فقط وفى الإقدام على طلب يدها ، وفى متعة الزواج بها ، وفى انتهاز فرصة تمكنه من التحرر من « إيزادورا » مع الإبقاء على صداقتها فى جو لا تشوبه الحسرة ولا يكتنفه العذب ...

وأما المرأة المسكينة فقـــد تنبهت ... تنبهت ولاحظت وأدركت كل شىء .

شاهدت نية الغدر تبرق فى عينى حبيبها . شاهدت روح الخيانة تستأثر بعقله ، وتذهب بلبه ، وتدفعه إلى نبذها فى غير ما وازع من عاطفة أو ضمير . شاهدت الرجل الذى منحته الحياة ، يصدف عنها ، ويقدم هذه الحياة هبة لغيرها ، فى قسوة وحشية وعدم اكتراث مروع .

هاهنا ختام غرامها الفاجع . عز عليها أن ينهار صرح أحلامها فى أقل من عامين . كبر عليها أن يقابل إحسانها بالإساءة ، وأن تجزى تضحياتها باللؤم ونكران الجميل . فتقطع فؤادها لوعة وأسى ، وأسودت الدنيا فى عينيها ، وكادت تختبل وتفقد صوابها شعوراً منها بأنها كهلة ، وأنها غير جميلة ، وأن الشباب أقوى منها ، وأن إعصاره الجارف يوشك أن يكتسحها اكتساحاً ويسحقها .

بيد أنها أبت أن تنهار ، بل أحست أنها لو انهارت فلابد أن ينهار فنها معها . فاستبد بها الذعر ، ولم تستطع أن تتصور الهزيمة بعد المجد . فأهابت بروح الفن الرابضة فيها ، واستمدت من عذابها قوة ، وراحت

تبدع رقصة جديدة تمثل فجيعة الكهولة عندما تبطش بها أنانية الشباب .
وكانت رقصتها « خريف وربيع » من أبدع رقصاتها .

ومع ذلك فهي قد عجزت بغمها عن التغلب على حبها . كان حبها في تلك الفترة أعمق من فنها ؛ وغرامها أبلغ من حقدها ؛ وإخلاصها أشد من غيرتها . فخنقت الألم في صدرها ؛ وأخمدت ما استطاعت ثورة غضبها ؛ ولم تطرد الفتاة ، بل تركت حبيبها يستمتع ويهنأ بحبه الطارئ الجديد .

كانت تخشى عليه الانفعالات النفسية العنيفة . كانت تخاف عودة المرض إليه لو واجهته بثورتها وسخطها . كانت تود أن تسعده ولو على أنقاض حبها ، ولو على أطلال نفسها . أما هو فكان منصرفاً عنها ، يجلس إلى الفتاة على مشهد منها ويحادثها ويغازلها ويبتسم لها وينهل من محاسنها ، غير حافل بذلك القلب الكبير الذي كان يتفطر على مقربة منه ، ويقطر دماً دونه ذلك الدم الذي كان يقطر بالأمس من رئتي الشاعر المصدور .

على أن عذاب « إيزادورا » لم يلبث أن ظهر وتجلى في صورة لم تدع للشك سبيلاً . غاض ماء وجهها ، وانطفأ سحر عينيها . وخبت وقدة أعصابها ، ودب فيها الهزال ، واستحالت إلى هيكل بائس للحزن واليأس والحسرة .

وعندئذ تأثر الشاعر وتنبهت فيه حاسة الضمير . واجه الجرم الشائن الذي اقترفه . أشرف على الهوة السحيقة التي توشك أن ترتطم فيها ضحيته . فتوزع وتخبط ، وأصبح قلبه ميداناً لمعركة عنيفة يتقاتل فيها الماضي والحاضر ، والواجب والحب ، والإنسانية والأنانية .

وكاد أن يرحم . كاد أن يقطع . كاد أن يطرد بنفسه الفتاة ويتخلص . ولكن الفتاة التي ألهبت عواطفه أول الأمر باصطناعها التحفظ والتجاهل والسذاجة والإعراض ، أقبلت فجأة عليه ، وبادلته حباً بحب ، واتصلت به خارج بيت « إيزادورا » ، ولوحت له باستعدادها للزواج منه لو حزم أمره وتشجع ، وقطع كل علاقة له بالراقصة .

وأذهل الشاعر إقبال الفتاة ، وخلبه اتصاله الخفى بها ، فعاوده إعجابه وولعه بازدهار جمالها . ومرح شبابها ، وفيض حيويتها . فاستسلم لها ، وعاهدها على الزواج ، ولم يجد بدًّا من مكاشفة « إيزادورا » بعزمه على الانفصال النهائى عنها .

ورزحت المرأة تحت وقع الصدمة . أصابها منها شبه ذهول . فكفت عن الرقص واعتزلت العالم . حبست نفسها فى بيتها ، وطفقت تتجول فى حجرات البيت ، مشوشة الذهن ، منهوبة العقل ، مشبوبة التصور والخيال ، تذكر حبيبها ، وتتمثله ، وتناجيه ، وتدعوه . فلا يجيبها سوى الصمت الجامد الأصم . فتعصف بها الحسرة الآكلة ، فتصرخ صراخاً يائساً مستغيثاً ، وتظل تبكى ولا راحم ولا مغيث .

وكان الشاعر فى غضون ذلك تائهاً عن نفسه . مستغرقاً فى فرحته وأمله ، منصرفاً بكليته إلى حبه وحلمه ، يعد معدات العرس ، ويتهيأ ليوم الزفاف . ولكن الفرحة ظلت مجرد لهفة ، والأمل مجرد رغبة ، والسعادة مجرد حلم .

وقع شىء جديد أهول وأفجع مما وقع من قبل .

ظهر على مسرح المأساة رجلان ، أحدهما كهل عريق فى الحسب والنسب ، موفور الجاه والثراء ، يبلغ الستين من عمره . والآخر مصور مشهور يبلغ الأربعين ويدعى « ريتشارد » طيب القلب ، نبيل النفس خدعته زوجته فطلقها وتاق إلى امرأة تكون فنانة مثله فى مقدورها لو تزوجته أن تحنو عليه وتأسو جراحه .

والتقت « بلانش » بالكهل الثرى فى إحدى الحفلات قبل ثلاثة أسابيع من موعد زواجها بالشاعر . فافتتن الكهل بها ، وغازلها ، وأثارها من طرف خفى على خطيبها ، وانطلق يحوم حولها ، ويستدرجها بماله ، ويزين لها الحياة فى قربه ، زاخرة بألوان من الترف والنعيم لم تكن لتحلم أبداً بها .

أما « إيزادورا » ، فقد كان المصور معجباً غاية الإعجاب بفنها

بشخصيتها . فلما ترامى إليه نبأ اعتكافها عقب الصدمة التى أصابتها ، ألح فى طلب زيارتها . ثم اقتحم بابها . ثم أبدى لها من ضروب الود بالعطف والاهتمام ما أدهشها . فأصبح هو الرجل الوحيد الذى يتردد كل يوم على دارها ويستفسر عن صحتها ، ويخدمها فى تهافت وإخلاص . كما كانت هى بالأمس تخدم وترعى الشاعر الغادر المصدور .

واستفاق الشاعر ذات يوم ، وإذا بخطيبته الوفية ، خطيبته التى توشك أن تصبح زوجته ، تتنكر له فجأة ، وتصد عنه ، وتصارحه فى غير ما خجل أو أسف أو تردد أنها قد عدلت عن الزواج به ، واعتزمت أن تبذل المستحيل كى تتزوج الكهل الثرى .

وسقط القناع عن وجه « بلانش » الفاتنة ، وبدت على حقيقتها . بدت فتاة لا قلب لها . شيطاناً فى زى ملاك ، شتاءً بارداً قاحلاً فى زى ربيع ، نفعية وصولية طماعة ، ملؤها الختل والنفاق ، تضرب رجلاً بآخر متى وجدت فى الرجل الجديد إنساناً متفوقاً فى الجاه والعز ، فى وسعه أن ينقذها من فقرها ، ويرفعها بماله وجاهه إلى مصاف السيدات المترفات .

* * *

والعجيب أن هذه الفتاة التى كانت فى نظر الشاعر عنوان السذاجة ورمز البراءة ومثال الطهر والنقاء لم تغضب عندما رفض الكهل الثرى أن يتزوجها بل ارتضت أن تكون خليلة له ، على شرط أن يمنحها قطعة من أرضه يسجلها باسمها ، وأن يستأجر لها مسكناً فخماً ، وأن ينفق عليها وعلى أهلها فى كرم وسخاء . . .

وانهار حلم الشاعر ، وتبعثرت أطلاله ينخر فيها الديدان . فاختبل بدوره وتخبط .

وكما عذب هو بالأمس « إيزادورا » ، عذبته اليوم « بلانش » ، كان

جزاؤه من جنس عمله . أصيب فى مقتل من كبريائه وعزة نفسه . نهشته الغيرة ، وافترسته الخيبة ، وسحقه اليأس والعجز والذل والاستنكار . ومع ذلك فقد تهالك على الفتاة . تشبث بها . هددها بالقتل إن لم تعد إليه . ولكن « بلانش » هزأت به ، وسخرت منه ، وتحدته . فأحس أنه ما يزال يحبها ، بل ما يزال يعبدها ، وأنه أضعف من طفل أمامها . وأن ليس فى مقدوره أن يلحق بطرف بنانها الناعم أى أذى . فناء عليه الكمد والحنق ، واحتوته سورة العجز واليأس . وجرفته هو أيضاً مرارة النبذ والإعراض . فاستوحش وانطوى ، ولم يستطع أن يتخلص من ألمه حتى فى فنه . فاقشعر بدنه إذ أبصر عقله يتوزع ، وذهنه يتبلد . وخياله الجامح المتدفق يجف يوماً بعد يوم . ويستحيل إلى أرض قاحلة لا تنبت غير الشوك والعذاب ! . .

خيل إليه أن عبقريته قد ماتت فاشتدت حسرته ، واشتدت لوثته ، وعز عليه أن تخنق فى المهد روائع ذهنه الخارق . فلم يجد ملجأ يهرع إليه غير المرأة التى شفته وأيقظته وكان إلهامها العظيم هو الذى عقد على رأسه إكليل الشهرة والمجد .

واستجمع قواه ذات صباح ، واستقل سيارته الصغيرة التى كان قد أهداها إليه جمع من الأدباء المعجبين بشعره واتجه بها صوب منزل « إيزادورا » .

وكانت المرأة فى فراشها ، ما تزال مجهدة وعليلة . فما إن رأت الشاعر حتى قفز قلبها بين ضلوعها . فنهضت شبه واثبة وارتمت عليه . ارتمت عليه بالرغم منها . فأبرقت عيناه واعتقد أنه قد وجد الراحة بعد التعب ، والملاذ بعد التخبط ، والهواء المنعش المحيى بعد ريح السموم الغاشمة الفاتكة . ولكن المرأة ما لبثت أن تراجعت ، . . . تراجعت وارتعدت من قمة رأسها إلى أخمص قدميها . أرادت أن تضم الشاعر فلم تستطع . أرادت أن تقبله فلم تستطع . جمدت فى مكانها وتأملته لحظة . تأملت هذا الفتى التائه

الفذ الذى كان بالأمس كل حياتها . ثم لوحت له بيدها تلويح مخبول ، وغمغمت والحب يمضنيها ، والواجب يحفزها ، والعقل يهديها ، والشفقة تقطع نياط قلبها :

ــ محال ! ... لقد ارتبطت ... أعطيت كلمتى للرجل الذى أخلص لى فى محنتى وخدمنى .. سأتزوج المصور ريشارد ! ..

والتقطت أنفاسها ، وأردفت وهى تتلوى :

ــ أنت شاب .. وحرام علىّ أن أشقيك .. لن تقنع أبداً بخريف بعد ربيع .. ستكرهنى غداً بأشد مما كرهتنى بالأمس .. ستغدر بى مرة أخرى .. هذا أقوى منك .. لقد أحببتك أنا كامرأة وأم . أما أنت فقد أحببتنى كأم فقط ، ثم لم تكفك المرأة فىّ ولا الأم فنبذتنى . ومضيت تطلب الأنثى ... فاذهب إليها . وافرح وتزوج . وابتعد عنى يا حبيبى ولا تلوث حرمة الذكرى !

فجن جنون الشاب وارتمى عند قدميها ، توسل وطفق يبكى . ولكنها لم تتحرك . لم تتأثر ، بل قطبت حاجبيها ، ورفعت رأسها ، ورددت فى صوت حاسم المخارج قاطع النبرات :

ــ لقد أعطيت كلمتى . ! .. فصمت الشاب وحملق فيها . حملق فيها ثم تطوح . ثم عصف به السعال بغتة ، فارتج صدره كأنه ينخلع . فأسرع وأطبق على فمه بمنديله ، وإذا به يبصر المنديل ملطخاً بالدم . فارتاعت « إيزادورا » وصرخت وانحنت عليه . بيد أنه أقصاها فى عنف وهو يلهث وانصرف .

° ° °

وانقضت ثمانية أيام . وفى مساء اليوم التاسع ، وبينما « إيزادورا » فى بيتها تتهيأ للرقص فى أحد المسارح ، وتفكر فى الشاب الذى علمت أنه قد سافر إلى روسيا وتتمثل على الرغم منها طيفه المحبوب ، دخل عليها

صديق من أصدقائه ، وأبلغها أن الشاعر قد انتحر فى أحد الفنادق بمدينة لينينجراد . فذهلت المرأة وانسحقت تماماً ، وجعلت تضرب صدرها وتصيح كمعتوهة :

ـ أنا ... أنا التى قتلته ! ...

* * *

ولم تستطع « إيزادورا » أن تحتمل وجود المصور ريتشارد ، فأحلت نفسها من عهدها له وصرفته ... ولما أضناها العذاب وبرحت بها الذكرى ، لم تجد فى غير الفن عزاء لنفسها . فأبدعت رقصة أخرى كانت هى أيضاً من أروع وأشهر رقصاتها ، وأسمتها : « أشجان الغروب » !

فردريك نيتشه

أو

بين إرادة القوة وسطوة الحب

« ليس بين كبار المفكرين والشعراء من كان أشد جرأة وكبرياء من الفيلسوف الشاعر الألمانى فردريك نيتشه ، فقد حاول هذا الرجل أن يهدم الأخلاق والآداب المستمدة من نزعة الرحمة ، وأن يبشر فى حماسة وشبه جنون بعقيدة القوة . وأن يؤكد أن القوة المعنوية والحسية هى رأس الفضائل . وأن المجتمع الأرستقراطى القائم على تمجيد هذه القوة هو خير مجتمع يمكن أن تصدر عنه أفضل حضارة .

ومع ذلك فالحب أذل هذا الرجل وأخضعه لسلطانه ، وأشعره أن العواطف شىء ، والأفكار المجردة شىء آخر . وأن الإنسان قد يكون عبقريًا ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يكون سعيداً فى هذه الحياة الدنيا » .

* * *

كان نيتشه مخلوقاً حساساً إلى أبعد حد ، غزير العاطفة ، قوى المخيلة ، واسع أفق التصور ، ولوعاً بالعزلة ، ميالا إلى دراسة الحياة وفهمها عن طريق خيال الشاعر وعقل الفيلسوف ، أكثر مما كان ميالا إلى دراستها عن طريق ملاحظة الحقائق اليومية الحية الماثلة فى حوادث الأيام وأخلاق الناس .

كان يعتقد أن المرأة إنسان ثانوى ، وأنه من الخير للمفكر أو الفنان ألا يصل حياته بحياتها ، وأن يعرف كيف يأمن شرها ، ويتقى نزواتها ، ويتخذ منها عند الضرورة أداة لبقاء النوع فحسب . ومن أشهر ما قاله عنها : « المرأة راحة الجندى بعد المعركة » . أى جزاؤه ومتعته لا غير . وقد فات نيتشه أن المرأة معركة تضاف إلى معركة . وأن هذه المعركة التى تنشب بين الرجل والمرأة قد تكون أقسى من معركة الحياة الكبرى بل قد تكون هى معركة الحياة الكبرى نفسها .

وهذه المعركة هى التى استعر ضرامها فى قلب نيتشه ، وهى التى

فاجأته وهو شارد محير ؛ فاضطر أن يخوضها على الرغم منه .

أحب فتاة عذراء حيًّا عاصفاً مبرحاً ؛ نبع من عقله . واستقر فى وجدانه . فألهب عواطفه . وعذبه شر عذاب .

التقى بها فى إيطاليا ذات صباح . وكانت تدعى « لوسالوميه » . فما إن رآها حتى راعه منها فيض شبابها ؛ وسحر جمالها . وتوقد ذهنها ؛ واكتمال ثقافتها ، واقتران الأنوثة فيها بجاذبية الفكر الراجح المتزن العميق .

أعجب بها الإعجاب كله . . أحس وهو ذاهل مبهوت أن تأثيرها أقوى فى كيانه من قوة إرادته نفسها . فمضى إلى داره محتل الذهن بها ، مستغرقاً فى التفكير فيها . باذلا قصاراه لإقصاء طيفها عن خياله . ولكن على غير جدوى .

كان يراها فى نفسه ؛ وفى وحيه ؛ وفى شعره ؛ وفى شتى ألوان الجمال الماثلة فى الطبيعة والتى تقع عليها عيناه . كان يسمع فى الوحدة رنين صوتها ، ويخيل إليه أن فراغ حجرته ملىء بها ؛ وينصت إلى حفيف الأشجار فيجفل ويختلج ويذكر حفيف ثوبها .

واستولت عليه وتمكنت منه . فكبر عليه أن ينكر عقله ، وينكر إرادته ، وينهزم أمام طيفها . فكان ، كما يؤكد المؤرخ الدكتور كابانيس ؛ يعمد إلى سكين يحز بها أصابعه ، كى يقهر ضعفه ، ويقهر حواسه ، ويروض نفسه على الصبر والتجلد واحتمال الألم .

وكان مصاباً بصداع مزمن ، تخلف فيه من وراثة ملوثة . فكان إذ ينتابه هذا الصداع ، يعجز عن الكتابة . فيسلم ذهنه لطيف الفتاة ، ويظل بين وطأة الصداع وملازمة الطيف ، متخبطاً فى عواطفه ، ممعناً فى هواجسه ؛ لا يعرف الراحة ، ولا يقوى على النسيان ، ولا يستطيع أن يجد الخلاص المنشود فى السكين التى يحز بها أصابعه !

وكانت « لوسالوميه » مأخوذة به ، مسحورة بروعة ذكائه ، وعمق تفكيره ، وغزارة ثقافته . ولكنها كانت فى الوقت نفسه مفتونة بعبقرية

خصمه وعدوه اللدود الموسيقى الكبير « ريتشارد فاجنر » .

وكان « فاجنر » رجل ألمانيا الأول فى ذلك العهد . وكان نيتشه قد تأثر به ثم انقلب عليه . وراح يهاجم فنه الموسيقى : وينعته بالضعف والفوضى ، وينعى عليه نزعته الصارخة إلى المبالغة والطنين الأجوف ، وعبوديته للعقائد الدينية الرجعية ، ويصفه بأنه فن ضبابى خانق كثيف ، لا شمس فيه ولا هواء ولا قوة ولا فرح .

وكانت « لوسالوميه » موزعة الفكر والقلب بين فلسفة « نيتشه » وفن « ريتشارد فاجنر » . كانت تتأرجح بين الرجلين ، وتضطرب بين العقليتين ، وتحار فى أيهما تفضل : رجل الفكر والقوة ، أم رجل الفن والجمال ...

وكانت تخلبها من « نيتشه » جرأته وكبرياؤه ، وتفتنها من « فاجنر » روائع أخيلته ، وعظمة أساطيره ، وجلجلة ألحانه . فلبثت حائرة مترددة ، تستطلع طلع نفسها ، وتحرص جاهدة على استقلال فكرها ، وتأبى أن تخضع لأحد من الرجلين .

ولم يكن نيتشه على علم بالصراع الذى يدور فى نفس الفتاة . فاعتقد أنها خالصة العقل من كل تأثير ، وأنها ما تزال عجينة رخوة فى وسعه أن يصوغ منها الدمية التى يشتهى . فأمعن فى حبها ، وظل يلاحقها ، مستعطفاً ملتمساً متوسلاً ، أشبه بالفتى الغر فى أول عهد الشباب .

ولما كان مولعاً بحياة الإغريق ، ينشد الصحة والطلاقة والمرح ، مقترنة بالفكر الحر اللامع الوثاب ، فقد خيل إليه أن « لوسالومية » تمثل الروح الإغريقية الأصيلة . فطفق يداعب الآمال ، ويبنى القصور ، ويحلم ببعث هذه الروح فى زواج مثالى يصل بين حظه وحظ الفتاة .

ونما الخيال فى نفسه وترعرع ، واتقدت العاطفة فى قلبه واضطرمت . فكان يرتجف لمقدم الفتاة وينخلع ، ويحزن إذا غضبت ، ويضحك إذا ابتسمت ، ويعض شفتيه حتى يدميهما إذا تبرمت به ، أو أعرضت عنه ،

أو شعر أنه يوشك أن يفتضح وتتفجر من عينيه الدموع .

وأحس - وهو رسول الإرادة والتفوق والقوة ، أنه لا يتراجع ويستضعف حيال القوة ، بل أمام المرأة : أمام رمز الضعف ...

أحس وهو ثائر مستنكر : أنه واهن العزم . لا يكاد يصارع نفسه ويغالب حبه ويقصى عنه طيف الفتاة : حتى يشتهيها مخلوقة من لحم ودم . فيسرع إليها بالرغم منه : خجولا حيياً متردداً ، يرتبك لأقل شيء . ويجزع من أى شيء ، وتهوله الهفوة البسيطة تفلت منه فى لحظة طيش فتهدم قصر أحلامه ، وتقوض صرح مستقبله كله .

ولم يكن واثقاً من حب الفتاة له . فخشى إن هو عرض عليها الزواج أن تقابل عرضه بالرفض ، فاحتدم فى نفسه الصراع . فكان لا يعرف كيف يكاشفها ولا يعرف كيف يستدرجها ، ولا يعرف كيف يميط اللثام عن حقيقة نفسها . وهكذا اصطدم لأول مرة فى حياته بسر المرأة الأبدى . فذعر واختبل ، وبرح به العذاب .

والعجيب أن حبه أفقده فى تلك الفترة وعيه ، وجرده من سلطانه على عقله ، ورده إلى طور الطفولة . فكان إذ يخلو إلى نفسه يعكف على رسم عدة صور تخطيطية « للوسالوميه » ، ويكتب على أوراقه الحرف الأول من اسمها والحرف الأول من اسمه متشابكين متعانقين ، ويطلق اسمها على أحب الزهور إليه ، وينظم الشعر متغزلا فيها ، ويسخط عليها تارة ، ويهلل للوحى الهابط منها أخرى ، وهو ذاهل عما يفعل ، سابح فى نشوة دونها نشوة المجد الأدبى الخالد الذى يحلم به .

وكانت لوسالوميه تستشعر بغريزتها النسوية المشرقة ، أن الفيلسوف يحبها . ولكنها كانت قد بدأت تضطرب وتنكمش وتخاف . كانت تخاف على نفسها عثرة من عثرات الإعجاب ، أو كبوة من كبوات العاطفة ، أو سقطة من سقطات الجسد . كانت تحس أن الحب المتأجج فى صدر الفيلسوف يهب عليها كالنار ، ويكاد يحرقها . فكانت تفكر ، وكانت

تقاوم . وكانت تعلم علم اليقين أنها لو تزوجت نيتشه . فيجب أن تودع الشباب وداع الأبد . ويجب أن تحب الفكر والعزلة . والتأمل والصمت . والزهد والتجرد . أكثر ألف مرة مما يجب أن تحب الفيلسوف نفسه وتحب الحياة ... ومع ذلك فقد كانت تتمنى لو أن فى مقدوره أن يفهمها . لو أن فى وسعه أن يتغير ويتحول ويبدل جوهر فلسفته من أجل الحقيقة ومن أجلها .

وكانت فى غضون ذلك . قد أنعمت النظر فى كتبه . وتعمقت فلسفته . وأنصتت إلى رنين روحه . فهالها دوى صوته الذى يرتفع فوق كل شىء . وضوء عقله الذى يمزق كل شىء . وجبروت إرادته الذى يتحدى كل شىء . وقدرته الذهنية الشيطانية على تحطيم كل ما آمن ويؤمن به البشر من فضائل الطيبة والرحمة والحنان والتضحية والمساواة والإخاء .

هالها هذا كله ، فازدادت تراجعاً ، وازدات تحفظاً ، وانطوت على نفسها . وأصرت على أن تلزم جانب الإعراض والصمت وعدم الاكتراث .

وروع نيتشه إعراضها . وخشى أن يفقدها . فحزم أمره ذات صباح . وذهب إلى صديق يدعى « بول رى » وكاشفه بحبه . ورجاه فى حرارة وحماسة أن يطلب له يد الآنسة لوسالوميه ... وكان نيتشه لفرط ما تعذب وكافح تحت وطأة الصراع . قد زايله تردده واشتعلت فجأة كبرياؤه . فارتد إليه إيمانه بنفسه ، وبات يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الفتاة لابد أن تخر صعقة أمام رغبته ، ولابد أن تهرع إليه شاكرة ومبتهجة ومتراصية عند قدميه .

ولكن الفتاة رفضت رفضاً باتاً قاطعاً صريحاً . رفضت بدون إبداء أى سبب . رفضت الزواج كما رفضت أن تقابل الفيلسوف . عندئذ تاه عقل نيتشه . كبر عليه أن يسعى فيرد ، وأن يتكرم فيذل ، وأن يتفضل فيجحد فضله ، وتمتهن كبرياؤه . فصغرت نفسه فى عينيه ، وهان الفكر فى نظره . وخالجه شعور مر بأن عقله الفذ لا قيمة له ، وأن ليس فى وسع عبقريته

الخارقة أن تجعله سعيداً ...

وحل به عذاب لم يحل قط بإنسان . فاستجمع قوته وعزم أن يقطع كل صلة بالفتاة . ولكن حبه كان أقوى من عزمه ؛ وأمله أقوى من سخطه ؛ وفضوله أقوى من عقله . فأراد أن يعرف على وجه التحقيق لماذا رفضته الفتاة ؛ وهل هى تحب رجلاً آخر . فكبح جماح كبره ، وتغلب جاهداً على لوعة ذله ، وكتب إليها يقول : « ليس من حقى أن أعترض مشيئتك . إن إرادتك مقدسة عندى ؛ بل أنا أحب أن تكون لك إرادة لكى تكونى على الدوام قوية فيزداد إعجابى بك . على أن من حقى أن أسألك لماذا رفضتنى زوجاً لك ؟ ... كان يخيل إلى أن فكرك قد استجاب إلى فكرى ، وأن قلبك قد خفق لقلبى . ولهذا أحببتك ... فهل كنت واهماً ؛ هل كنت مغروراً ، هل ختمت كبريائى على بصرى فأعمتنى عن رؤية الواقع الذى يذهلنى اليوم ويكاد يذهب بلبى ؟ ... إنى أحبك ؛ فصارحينى بدخيلة نفسك . ومهما كان حكمك قاسياً وفظيعاً ؛ فسأعرف كيف أحتمله لأنى أعتقد أن كل ما لا يقتلنى يقوينى ! »

وبعد بضعة أيام ؛ تلقى نيتشه من الفتاة الجواب التالى : « لقد أعجبت بك ؛ وامتزج إعجابى شىء كثير من العطف عليك ، وكدت أخضع لك وأستسلم . ولكنى استيقظت والحمد لله قبل فوات الوقت .. أتعلم لماذا رفضت الزواج منك ؟ .. لأن عقيدة القوة التى تدعو إليها تقلقنى وتخيفنى . أنا امرأة ، وكل امرأة تحب القوة وتنشدها . والقوة فى ذاتها شىء عظيم ، ولكنها شىء ناقص . القوة تخلق الفكر ، وتخلق الحضارة ، وتنظم المجتمع ، ولكن الحرص على الفكر ، والحضارة والمجتمع ، لا يمكن أن يتم فى عرفى بدون محبة ... فالمثل الأعلى فى نظرى هو اقتران القوة بالمحبة ، أى اقتران فضائل الإرادة والعمل والسيطرة والاستعلاء التى يمتاز بها الرجل المتفوق ، بفضائل الطيبة والرحمة والحنان والتضحية الكامنة فى نفس المرأة المتفوقة ... ومن مجموع هذه الفضائل تتكون الحقيقة الإنسانية الكبرى ! ولقد كنت

أعتقد عندما عرفتك أنك إذا كنت تمثل القوة فأنا أمثل الحب ، وأن فى وسعى بفضائل المحبة الكامنة فى نفسى أن أستكمل النقص الملحوظ فى قوتك ، بحيث نحقق معاً تلك الوحدة الإنسانية المبتغاة ! ولكنى أدركت أنك تضع القوة فوق كل شىء ، وتؤمن بأن القوة وحدها قادرة على كل شىء . لهذا رفضت الزواج منك ، وأصبحت أثق أنه من المستحيل علينا أن نتفاهم يوماً ونتحاب . فامض فى طريقك ، فأنا لست لك ، وأنت لست لى ولا لغيرى ، بل للفكر المجرد الذى تعتقد أن فى مقدورك أن تفرضه عنوة واقتداراً على حقائق الحياة ! .. » .

ولم يكن نيتشه ليتوقع أبداً من الفتاة مثل هذا الخطاب الجرىء ، ولم يكن ليتصور أنها يمكن أن تقف منه موقف المعلم . فاستشاط غضباً وسخطاً ، وأبت عليه كرامته أن يعود فيتوسل ويستجدى . ولكن اعتراض الفتاة على تعاليمه أثار فيه حنق المفكر ، واختلط هذا الحنق فى نفسه بعاطفة حبه التى ألهبها الإعراض والصد . فتخاذل بالرغم منه ، وأبى إلا أن يجرب أيضاً حظه . فكتب إلى الفتاة مرة ثانية ، لا ليبثها غرامه ، بل ليشرح لها فلسفته ، . ويحاول أن يقنعها بأن المحبة ضعف ، وأنها هزيمة ، وأنها تجرد القوة من خصائصها الخالقة ، ولا تحافظ على الفضائل والخيرات التى تصدر عنها ، بل على النقيض تعصف بها ، وتدمرها تدميراً ...

وأمعن فى تمجيد رسالة القوة ما شاء له إيمانه ، وما شاءت له رغبته فى التأثير فى الفتاة وإقناعها :.. ثم بعث إليها بالرسالة ولبث ينتظر ..

انتظر أياماً ، أياماً طويلة . ولكنه لم يظفر من الفتاة بأى رد . . فثار ثائره عليها ، وفكر فى طردها من حياته والتخلص منها . ثم عز عليه أن يفقدها . فأراد أن يذهب إليها . غير أنه أشفق فى النهاية على البقية الباقية من كبريائه وآثر أن يحتجب أيضاً وينتظر :..

ولكن « لوسالوميه » كانت قد تحولت شيئاً فشيئاً إلى الطريق الآخر :.. كانت قد اتجهت بوجدانها وعقلها صوب الموسيقى الكبير « ريتشارد

فاجنر » الذى خيل إليها أنه هو المجدد الأعظم ، وهو العبقرى الفذ الذى تقترن فى فنه الساحر دعوة القوة بدعوة المحبة ، والذى يعبر عن مثلها الأعلى فى الإنسان الكامل أتم وأصدق تعبير :

وكان نيتشه ما يفتأ يهاجم فاجنر ، ويحمل على فنه حملات شعواء. فاستنكرت « لوسالوميه » هذه الحملات الجائرة ، وعزتها إلى الحسد والغيرة. فاشتد نفورها من « نيتشه » ، وتضاعف إعجابها وتعلقها بالموسيقى النابغة :

وكان « فاجنر » فى أوج مجده إذ ذاك ، وكانت أوبراته تمثل على مسرح مدينة « بايروت » . فحدث أن دعيت شقيقة « لوسالوميه » إلى تلك المدينة لمشاهدة مسرحية غنائية جديدة « لفاجنر هى « برسيفال » .

ورافقت « لوسالوميه » شقيقتها وشاهدت المسرحية .

ولأول مرة فى حياتها شاهدت فكراً خارقاً ، وفناً رائعاً ، ونصراً ساحقاً ، ومجداً « لفاجنر » منقطع النظير . فاضطرمت عواطفها ، وجاشت أنوثتها ، وخضعت بجمع كيانها لسلطان الفن وسحر الموسيقى .

خاطبت تلك الموسيقى ، الصاخبة الرقيقة ، الهادرة الوديعة ، العاصفة الحالمة ، الدنيوية السماوية ، نزعة القوة والمحبة الكامنة فى قلب الفتاة فأيقظتها ، واستطاعت أن تحدث فى نفسها ذلك الأثر العميق الذى لم يستطع أن يحدثه لا شعر نيتشه ولا فلسفته .

وأخذ الإعجاب من الفتاة مأخذه ، فطلبت مقابلة « ريتشارد » فأذن لها .

وما إن دخلت عليه وأبصرته أمامها يبتسم تواضعاً ، ويختلج عبقرية ، ويتألق جمالا ، حتى انتشت ، وأصابها من فرط النشوة شبه خبال . فجثت على الأرض ، وحدقت إلى « فاجنر » تحديق العابد ، ثم انحنت فى خشوع وقبلت يد عدو « نيتشه » اللدود .

ومنذ ذلك اليوم ، بل منذ تلك اللحظة ، أصبحت من عشاق « فاجنر » ودعاته ومريديه ، وعاهدت نفسها وأصدقاءها على ألا تكتب لنيتشه

أو تتصل به أو تراه أبداً .

ولما بلغ « نيتشه » النبأ ، انخلع قلبه ، وغلى الدم فى عروقه . وكاد الصراع يقضى عليه . ولكنه غالب ضعفه . وتمالك نفسه ، وغمغم فى هدوء كلمته المشهورة معرضاً « بفاجنر » : « لقد اجتاز طائر سماء غرامى فاختطف المخلوق الذى أحببته . ولكن هذا الطائر لم يكن نسراً . وفى هذا عزائى ! ... » .

ثم ترك صديقه « بول رى » الذى نقل إليه النبأ والذى تزوج فيما بعد لوسالوميه ، تركه ، وصعد إلى مخدعه . وهناك أوصد عليه الباب . وتناول السكين ، وشرع يخز بها أصابعه !

روزينا مولر
أو
وحي الأمومة في الفن

« روزينا موار شاعرة ألمانية نابغة من شاعرات القرن التاسع عشر : وقعت فى حياتها مأساة ما أظن أن مثلها قد وقع لإنسان . وإلى القارئ قصة هذه المأساة التى خلقت فن الشاعرة وأحدثت فى حياتها أعمق تأثير » .

* * *

فى صباح يوم من أيام شهر نوفمبر ، شديد البرد ، ملبد السماء بالسحب ، كان القطار الحديدى البطىء الذى يسير فى أراضى « بوميرانيا » القاحلة ذات المستنقعات الكثيرة ، يقل فى إحدى عربات الدرجة الثالثة فتاة عانساً فى الثانية والثلاثين من عمرها ، قضت عليها الحياة الغاشمة أن تكون فريسة البؤس والمرض .

كانت والدتها العجوز قد جُنت عقب إصابتها بمرض عصبى حار فى علاجه نطس الأطباء . أما والدها الذى كان موظفاً فى إحدى الشركات ، فقد أدمن معاقرة الخمر بعد وفاة امرأته ، واجترع منها فى إحدى الليالى أكثر مما يحتمل بدنه الضعيف ، فما إن غادر باب الحانة حتى وقع مغشياً عليه ثم مات فى الحال . وأما « روزينا » نفسها ، روزينا التى انحدرت من أب سكير وأم معتوهة ، فقد كانت نحيلة البنية ، صفراء اللون ، ضامرة التقاطيع ، تغشاها نوبات عصبية طويلة المدى ، وتعتريها أزمات تشنجية يمازجها سهوم فى الذهن وشرود فى العقل وتشوش فى المنطق والتفكير .

وكانت قد تلقت بعض علوم أولية تمكنها من ممارسة مهنة التدريس بيد أن مرضها العصبى كان يعيقها عن القيام بعملها ، وكان يغرى التلميذات بها ، ويطمعهن فيها ، ويدفعهن إلى التطاول عليها . فحز فى نفسها أن تفشل فى التعليم بالمدارس . فعقدت عزمها على طلب الرزق من وظيفة

معلمة أولاد فى البيوت : فنشرت إعلاناً فى الصحف : وسرعان ما تلقت رسالة من أسرة تقيم فى ضواحى بوميرانا ، تعرض فيها على الفتاة عملاً ثابتاً بأجر معقول .

وها هى ذى « روزينا » تفكر فى هذا العمل ، وفى الحياة الجديدة التى تنتظرها ، وفى ماضيها الأسود الذى كانت ترتعد فرقاً من تصوره ، وتخشى أن يلازمها ملازمة مرضها .

كانت فتاة بسيطة القلب ، مولعة بقرض الشعر ، يشغلها طلب الرغيف عن النظم ، ويصرفها الواقع عن الخيال ، وتطويها الحقائق فى غمرتها فتباعد بينها وبين عالم التأملات والأحلام .

فلما وقف القطار فى المحطة التى كانت تقصدها ، ولفظها من جوفه الصاخب الهادر ، تلفتت حولها ، فإذا بها فى مكان قفر جاثم فى سفح تل كبير . فاضطربت وخفق قلبها . ولكنها أسرعت واستفسرت من ناظر المحطة عن مقر الأسرة . فأنهى إليها أن البيت يبعد عن المحطة نحو ميلين عليها أن تقطعها مشياً على الأقدام ، فتولاها من فرط ضعفها يأس مفاجئ حيرها وأكربها .

وفى تلك اللحظة ، أبصرت صبياً يقفز من عربة حقيرة يجرها جواد مهزول ، ويدنو منها ، ويسألها عن اسمها . فلما علمت أنه موفد من قبل الأسرة ، تهلل وجهها ، ووثبت إلى العربة ، ومضت تحدق إلى الصبى الذى كان يبتسم لها ابتسامة ساذجة لا تنم عن سرور أو فرح ، بل عن سخرية خفية تومض فيها ، الوقت بعد الآخر ، لمعة خاطفة من عطف صبيانى غريب .

وانطلقت العربة فى طريق ضيق لا أشجار فيه ولا أعشاب حتى بلغت قرية نائية تؤدى إلى عزبة كبيرة ، ذات أكواخ متناثرة ، يقطن فيها جمع من فقراء الفلاحين .

وتخطت الفتاة حاجزاً خشبياً ، وسارت خلف الصبى ، فإذا هى فى

حديقة مهملة ، تفضى إلى البيت .

ووقف الصبى تجاه الباب ، وجذب سلسلة من حديد هراها الصدأ . فدق جرس محزون ، وبرزت خادمة عجوز مهلهلة الثياب . استقبلت « روزينا » فى فتور ، وقادتها إلى حجرة مظلمة حيث كان ينتظرها رب البيت وزوجته المشلولة .

وكان صاحب البيت رجلاً مفتول العضل . وثيق التركيب ، تلمع عيناه السوداوان تحت حاجبيه الكثيفين لمعاناً حاداً ماضياً مزعجاً. فرمقته « روزينا » بنظرة واختلجت . ولكنه تقدم نحوها وحدق إليها وقال وهو يكاد ينهرها :

ـ أرى فى وجهك شيئاً غير عادى ... فما هذا ؟ ..

فاختلجت الفتاة وقالت :

ـ هذا من فرط التعب يا سيدى فسامحنى

فقال وهو يتفرس فيها :

ـ لا ... إن أصابعك لا تفتأ ترتعش ... لقد استفسرنا عنك ، فعلمنا أن والدتك ماتت مجنونة ، وليس فى هذا ما يبعث على الاطمئنان...

فهتفت الفتاة :

ـ ولكن صحتى جيدة ... وهذا الاضطراب العصبى لا ينتابنى إلا إذا خفت أو قلقت أو تهيبت الناس ...

فالتفت الرجل إلى زوجته ، وقال :

ـ وما رأيك يا « أوحستا » ؟ ..

فقالت المرأة المشلولة بصوت جاف

ـ هذه الفتاة دميمة ... وأنا لا أحب الدميات ... وأكبر ظنى أن ابنى « جوتفريد » لن يحبها ! ...

فصرخ الرجل فى وجه زوجته :

ـ لابد أن يألفها وسيألفها ... يجب أن ينزل على حكم الظروف ...

أما نزواته فلا ينبغى أن نحفل بها !

فارتجفت مدام « أوجستا » ، وهمت بالكلام . ولكن زوجها ألقى عليها نظرة صارمة ، وأردف وهو يتجه صوب « روزينا » :

— ستذهب بك الخادمة إلى غرفتك .

وعاد فألقى عليها نظرة غريبة ، ثم هز كتفيه هزاً خفيفاً ، وصافح الفتاة مبتسماً وخرج .

وكانت الغرفة ضيقة ورطبة أشبه بسجن . فأجالت « روزينا » الطرف فيها وهى ترتعد . ثم شرعت تفتح حقيبتها ، وترتب متاعها ، وتقر الهدوء الممكن فى أعصابها المتوترة التى كانت تتلهف على رؤية الصبى « جوتفريد » .

وفجأة دق جرس الغداء ، وجلس الجميع حول المائدة . فدهشت « روزينا » إذ أبصرت فتى فى نحو السابعة عشرة من عمره ، بدين الجسم جميل الوجه ، نفوراً ، كئيباً ، صموتاً ، ينظر إليها من طرف خفى ، ويزدرد الطعام فى سرعة وحشية منهومة .

وعلمت « روزينا » أن هذا الفتى هو ابن مدام « أوجستا » من زوج آخر توفى منذ أعوام ، وخلف لها ولابنه هذا المنزل والعزبة المحيطة به .

أحست الفتاة أن الزوج يكره الغلام ، ويضطهده ، كما أدركت ببصيرتها أن « جوتفريد » هو العقبة الوحيدة التى تحول بين زوج أمه وبين استيلائه على المنزل والعزبة والتصرف فيهما كيف شاء ... فأشفقت على الغلام وبدأت تميل إليه ، وتعطف عليه ، وتضاعف من رقتها فى معاملته ، ورقتها فى التحدث إليه كلما شاهدت أمه تنتفض رعباً أمام زوجها ، وتوشك أن تستبد بابنها هى أيضاً خضوعاً لأمر قرينها ، وكسباً لرضاه .

والحق أن مدام أوجستا كانت تتعذب فى صمت ، وتحتمل فى صبر ، وتنهر ابنها وتزجره عن طواعية واختيار ، كى تقر الهدوء فى نفس قرينها والصفاء فى البيت ،

ولكن الزوج كان يحقد على الفتى حقداً أعمى . كان يبغضه بغضاً خبيثاً لئيماً يتجلى فى نظراته الشريرة ، وعباراته الناهرة اللاذعة .

والغريب أن « جوتفريد » كان يقابل هذا الاضطهاد بضرب من الغضب البارد ، والاحتمال المعتز ، والازدراء غير المكترث . فكان هذا المسلك السلبى فى الدفاع عن النفس يثير ثائرة الزوج ، ويتسلل فى الوقت ذاته إلى سائر أخلاق الفتى جوتفريد وطباعه . فيتزع به إلى العزلة ، ويحبب إليه الانطواء ، ويغريه بالامتناع عن التفكير والامتناع عن التأمل خشية الاصطدام بالواقع المرير .

وهكذا ولد فيه مسلكه السلبى عجزاً فى الإرادة ، وتبلداً فى الذهن ، وخمولا فى الفكر ، وبلاهة فى العقل .

فلما اتصلت به « روزينا » ، وأرادت أن تعلمه وتثقفه وتهذبه ، ألفت نفسها حيال مخلوق أصم الحافظة ، جامد الإدراك ، مغلق الخيال ، لا يمكن أن يعى شيئاً . فتساءلت لماذا أرادوا أن يعلموه بعد فوات الوقت ، ولماذا استقدموها إلى هنا ؟ ...

وتضاربت فى ذهنها الخواطر ، وفكرت فى الرحيل . ولكنها كانت فقيرة بل كانت معدمة ، فآثرت أن تصبر وتبقى .

والواقع أنها بقيت لا بدافع الفقر فحسب . بل بدافع آخر خفى أبت أن تفكر فيه أو تتصوره .

كان الفتى خاملاً أبله بليداً . ولكنه فى جماله الحالم ، وسكونه الشارد ، وهدوئه المستسلم ، ووحشيته النافرة ، كان ساحراً جذاباً ، يغرى المرأة بالحنان ، ويوحى إليها الرعاية الصادقة والعطف المشفق العميق .

وشيئاً فشيئاً ، وبعد أيام وأسابيع ، روعت الفتاة العانس المسكينة ، — وبدأت تحس أمام الفتى المضطهد الكسير ، أنها تتبدل فجأة وتتحول ، وأن جوهر كيانها المحروم يستيقظ فيها وينبعث إلى النور ممثلاً فى « جوتفريد » ... أحبته على الرغم منها . أحبته وهى تعلم علم اليقين أنه

لا يمكن أن يكون عاشقاً ، ولا يمكن أن يكون إنساناً ، ولا يمكن أن يكون زوجاً . أحبته كما لو كان ابنها الغالى وطفلها المعبود ؛ وأحبت فيه ثمرة غرام مخيل ، وطيف زوج فاتن منشود ...

كانت إذ تجلس إليه لتعلمه ، تشعر بقلبها يخفق ، وبدنها يرتعش ، وأعصابها تتصدع وتنهار . فتود أن تبكى ، وتود أن تضحك ، وتود أن تنحنى وتقبل الأرض وتشكر الله على هذه النعمة التى لم تكن لتحلم بها أبداً ...

وكان « جوتفريد » يقبع عند قدميها ، وينظر إليها بعينيه الخاويتين ، ويتلهى عن الدرس بمداعبة كلبه الأبيض الجميل « هارى » الذى لا يفارقه لحظة ...

كان يحب هذا الكلب إلى حد العبادة ، وكانت « روزينا » تغار منه وتتزعج من نباحه ، ولا تطيق من الشاب أن يلاطفه ويدلله ويغمره فى بعض الأحيان بالقبلات .

ولكم تمنت أن يضمها « جوتفريد » بين أحضانه كما يضم ذلك الحيوان ، وأن تعبث أنامله فى شعرها ، وأن تترفق شفتاه يوماً فتمنحها ولو قبلة واحدة .

على أن « روزينا » برغم عذابها كانت راضية . كانت قانعة . كانت سعيدة . لا يعكر عليها صفو سعادتها غير ذلك الحيوان الذى كان يفصل بينها وبين حبيبها ، ويشعرها شعوراً مؤلماً قوياً مذيباً بأن « جوتفريد » ليس ملكاً لها وحدها .

وأحست « روزينا » فجأة أن هذا الحب الطارئ الخارق ، يلهب كيانها ، ويضرم فيها على دهش منها شعلة الفكر والخيال .

رأت نفسها تولع بالمطالعة ، وتشغف بالتأمل ، وتنزع إلى تسجيل أحلامها وتأملاتها وعذاباتها فى شبه قصائد نثرية تفرج بها عن قلبها الشارد المحروم :

وضربها برق الحب بصاعقة الوحى ، فلم يحرقها ، بل حرك هامد نبوغها ، وأثار كوامن عبقريتها ، فاندفعت ومضت تقرض الشعر .

وأدهشتها هذه المعجزة . فأرادت أن تعرف قيمة شعرها . أن تقرأه على إنسان . أى إنسان ... فقرأته على « جوتفريد » . بيد أنه لم يفهم شيئاً . واكتفى بأن هز رأسه مبتسماً ومضى يداعب كلبه الأبيض ...

هذا الحب التاعس المقرون بعبقرية مغمورة ، ضاعف من حيرة الفتاة وقلقها وعذابها . فلم تجد بداً من خنق لوعتها فى حبها نفسه . فأسرفت فى خدمة « جوتفريد » ، وأسرفت فى رعايته ، وأسرفت فى تدليله . ولم تفطن وهى فى غمرة بؤسها ونعيمها إلى أن هناك عيناً ترقب غرامها الوليد . وتتربص بها . وتحفر تحت قدميها هاوية مروعة لا قرار لها .

كان الزوج الجشع المستبد يحوم حولها ، ويتتبع حركاتها وسكناتها ، ويعد العدة لتنفيذ الخطة الرهيبة التى كان قد استقدم الفتاة من أجلها .

وفى ذات مساء ، روعت « روزينا » إذ أبصرت من نافذة مخدعها « جوتفريد » يصرخ فى جمع من الفلاحين ويتوعدهم . فهرولت إلى الخارج مسرعة . فلما أبصرها الفتى اندفع نحوها وصاح وهو يرتعد من فرط الكمد والغضب :

— لقد اختفى « هارى » ... بحثت عنه منذ الفجر فى كل مكان فلم أجد له من أثر . لا بد أن يكون أحد هؤلاء الفلاحين قد سرقه !

وعاد فارتمى وسط الجمع المحتشد ، وطفق يصرخ ويتوعد وقد اتقدت عيناه ، والتوت شفتاه ، واندفق الدم إلى وجهه ، فشوه تقاطيعه ، وضاعف وحشيته غلظة وقسوة .

وعندئذ ، وبينما الفتى يهدر حانقاً يائساً مخبولا ، ويغلى كمرجل حى ، أقبل زوج الأم ساكناً هادئاً مهيباً ، وتوسط الجمع الذاهل المتطلع ، وقال فى صوت غائر أجش وهو يرمق « روزينا » بنظرة هائلة صارمة :

— هذه الفتاة هى التى سرقت الحيوان المسكين ! ... هى التى أغرقته

فى الترعة المجاورة ليلة أمس ! ... كان نباح الحيوان البرىء يزعجها فتخلصت منه ! ... ولقد رأيتها تربط حجراً فى عنقه وتدفع به إلى جوف الماء ! .. فلما أخذت بتلابيبها ، زعمت أن مرضها العصبى هو الذى ساقها إلى الجريمة على الرغم منها . ثم التمست إلىّ وهى تقبل يدى أن أخفى السر عن « جوتفريد » وأن أصفح عنها ... ولكنى الآن وأمام الألم الفظيع الذى يشعر به هذا الفتى ، جاهدت نفسى على الصمت فلم أستطع ...

وكان يتكلم فى نبرة صادقة متحمسة ، وفى حرارة مؤمنة مقنعة ، وكانت « روزينا » تنظر إليه تائهة العينين ، شاردة اللب ، تود أن تتحرك وتثب وتنطق فيردها الذهول . وتخنقها الدهشة ، ويخمد الخوف والذعر فى قلبها كل إرادة .

وفجأة وقد فاض بها شعور الاستنكار والسخط ، استجمعت قواها وصاحت :

ـ أنت كاذب !

فامتقع وجه الزوج ، وقال :

ـ ألم تعترفى أنت نفسك بجريمتك ؟ ... حدقى فىّ إن استطعت وحاولى أن تنكرى ... اذهبى حالا ، وأعدى حقيبتك ، وتهيئى للرحيل قبل مطلع الفجر !

وفى تلك اللحظة أرسل « جوتفريد » صرخة مدوية وهتف :

ـ لا .. لن ترحل قبل أن تلقى جزاءها .

وانهال على الفتاة ضرباً بكفيه ، ولكماً بقبضتيه . وركلاً بقدميه . فتطوحت « روزينا » وذهلت ، ولكنها احتملت وتجلدت وجثت عند قدمى الفتى وصاحت وعيناها مغرورقتان بالدموع :

ـ أنا بريئة يا « جوتفريد » ! .. اضربنى ! .. اضربنى ما شئت ، ولكنى أقسم بحياتك الغالية أنى بريئة ! ...

فلم يزده تحييها إلا هياجاً . فمضى يضربها ويركلها كمعتوه ، فثارت

اعصابها وصاحت على الرغم منها والدم يسيل من خديها :

— سينتقم الله منك ! ...

وانتفضت كأنما قد عز عليها أن تصيب حبيبها بكلمة سوء واحدة ؛ فتشنجت عضلاتها ، وتمشت الرعدة فى بدنها ، وجعلت تصرخ وتهذى . ثم انطلقت صوب حجرتها وهى تئن وتتلوى وتجهش بالبكاء .

وارتمت على فراشها لحظة ، ثم نهضت وأعدت حقيبتها ، ثم انهارت وتجمدت ولم تقو على مغادرة الحجرة ...

وانقضت ساعات ، ورقد كل من فى البيت ، ومزقت « روزينا » فكرة الرحيل ... فتاقت نفسها إلى توديع حبيبها . فنهضت وفتحت باب حجرتها ، ومشت على أطراف قدميها العاريتين ، واجتازت الممشى الطويل ومرت بالغرفة التى ترقد فيها الخادمة ، حتى بلغت مخدع « جوتفريد » ... وهناك انحنت على نفسها ، ونظرت من ثقب الباب ، وجعلت تتأمل وجه الفتى ، وتنصت إلى وقع أنفاسه ، وتشرب روحها الظامئة من فيض كيانه المعبود .

ولما ارتوت وهدأت ، كرت راجعة وهى تحبس أنفاسها ، وتخنق دموعها ، وتحاول أن تنزل على حكم القدر الذى أبى إلا أن يتعقبها ويحرمها كل سعادة ويبطش بها . ولكنها ما إن تقدمت حتى سمعت حركة غريبة منبعثة من أقصى الممشى ، حركة تلتها صرخة ، صرخة واحدة ، صرخة مفزعة ، سرعان ما انطفأت وغابت فى سكون الليل .

واقشعر بدن الفتاة ، وارتدت ملهوفة إلى الممشى . ولكنها قبل أن تبلغ مخدع « جوتفريد » ، لمحت شبحاً ينسل منه ويتجه نحو حجرتها هى ؛ ثم يصطدم بها . ثم ينقض عليها ويمسك بخناقها . ويجرها إلى المخدع جراً . فحاولت أن تتملص وتصرخ ، ولكن الشبح جذبها إليه ، ودفعها إلى داخل المخدع ؛ وألقى بها على فراش الفتى ، وأوقد النور .

وانصب على المخدع ضوء ساطع . فأجالت « روزينا » الطرف حولها ،

واحتواها من فرط الذهر همود وذهول ... أبصرت أمامها ، على الفراش الأبيض الناصع وفى وهج الضوء المتراقص الغامر ، جثة « جوتفريد » ، جثة ابنها وحبيبها ومصدر وحيها وإلهامها ، مشوهة الوجه ، ممسوخة التقاطيع ، مطعونة فى صدرها ، ينزف منها الدم . فارتمت على الجثة والذعر ينهبها ، فتلوثت بالدم يداها ووجهها وثوبها . فتحولت وقد تاه عقلها ، وأنشبت أظافرها فى عنق الزوج وصاحت به وهى تختلج والظلام يغشى عينيها :

ـ قتلته ؟ .. أنت الذى قتلته !

فعاجلها الرجل بلطمة ألقت بها على الأرض . ثم اندفع هو إلى النافذة وفتحها وطفق يصرخ :

ـ النجدة ! ... الغياث ! ...

وفى مثل خطف البرق ، ماجت القرية النائمة ، ولمعت فى جوها الأضواء ، وتقاطرت جموع الفلاحين على البيت وامتلأت بهم حجرة القتيل .

وثابت « روزينا » إلى رشدها لحظة . فأبصرت العيون الحاقدة مصوبة نحوها ، والقبضات المهددة ممتدة إليها ، والصرخات واللعنات منهالة عليها ، ثم سمعت المجرم يتهمها ويؤكد أنها مجنونة ومختلة الأعصاب كأمها ، وأنها كما قتلت الحيوان المسكين ، قتلت « جوتفريد » أيضاً ، انتقاماً منه لأنه ضربها أمام أهل القرية وأذلها !

رأت « روزينا » كل هذا وسمعته فطاش صوابها . حاولت أن تنطق : ولكن شيئاً كالموج الجارف طغى فجأة عليها . عقد لسانها ، وشوش ذهنها ، وأخمد إرادتها . فبدل أن تتكلم تمتمت ، وبدل أن تصرخ قهقهت ، وبدل أن تدافع عن نفسها وتجابه المجرم ، ارتمت على جثة جوتفريد ، ومضت تقبلها وتضحك وتبكى وهى لا تردد غير كلمتين :

ـ حبيبى ! ... ولدى ! ...

فهتف الفلاحون :

— مجنونة ... إنها مجنونة ! ...

وتراجعوا مذعورين . وهم البعض منهم بالخروج لإبلاغ البوليس . وفى تلك اللحظة انشق جمعهم . وانفسح بينهم الطريق ، وظهرت مدام أوجستا المشلولة متكئة على ذراع الخادمة ووجهها مصفر . وعيناها زائغتان . وأوصالها ترتعد . وما إن شاهدت الجثة حتى أرسلت شهقة ممزقة ؛ ثم تفرست فى زوجها لحظات ، ثم أغمضت عينيها وأمسكت قلبها بيدها . وندت عنها صرخة وهوت على الأرض فاقدة الحركة والحياة بجوار جثة ابنها .

وحملقت « روزينا » فى الجثتين كما يحملق النائم فى حلم مزعج يريد أن يتبين أحقيقة هو أم خيال . فصدمتها الفاجعة الطارئة ، ونبهت ذهنها فترة . ولكن هول الحوادث المتلاحقة عاد فراكم على عقلها الضباب . فلم تفهم شيئاً . لم تحس بشىء . غابت عن وعيها ، وجرفتها بغتة شبه نوبة صرع أعقبها إغماء .

* * *

وفتحت عينيها فأبصرت نفسها فى مكان غريب ، يحيط بها رهط من النسوة ملتمعات العيون ، مكشوفات الصدور ، عليهن غلائل بيضاء ممزقة ، يضحكن تارة ، ويصرخن أخرى ، ويمرحن فى حديقة كبيرة كأنهن طوائف من الجن . فأفاقت « روزينا » من سباتها ، وانجابت السحب عن ذهنها ، واهتز بدنها وانخلع ... أدركت أنها فى مستشفى مجاذيب . فذكرت كل شىء . كل ما وقع لها . ذكرت ماضيها ، وذكرت حبها ، وتمثلت الحقيقة المروعة مجردة من كل قناع . فلم تتردد . واقتحمت حجرة طبيب المستشفى ، وجعلت تصرخ :

— لست مجنونة ولا مجرمة . القاتل هو زوج مدام أوجستا . هو الذى دبر المكيدة ، وهو الذى قتل « جونفريد » وتخلص من المرأة المشلولة ، ليصبح المالك المتصرف الأوحد فى ثروة زوجته !

وفحصها الطبيب وأيقن أنها سليمة العقل وتأكد من براءتها . فأشفق

عليها وتحمس لقضيتها وحالفه مدير المستشفى ورئيس البوليس . فبعثوا فى طلب المجرم ، فأنكر وأصر على اتهامها . فزجوا به فى السجن ، وحرموه الطعام والشراب . ثم أمعنوا فى استجوابه . وضيقوا عليه الخناق حتى اعترف . فحوكم أمام القضاء وحكم عليه بالإعدام شنقاً فى قريته وعلى مشهد من الفلاحين .

أما « روزينا » فقد أثلج الحكم العادل صدرها . فاضطرم خيالها واشتعل نبوغها . وقبل أن تغادر المستشفى وترتد إلى حياة البؤس والمجاهدة والكفاح ، التمست إلى المدير أن يبقيها حيث هى بضعة أسابيع أخرى . تؤدى فى خلالها رسالتها ...

وبُهت المدير إذ علم أنها شاعرة . فنزل على حكمها . فكانت تقضى سحابة يومها فى خدمة المريضات . فإذا هبط الليل ، هرعت إلى حجرتها . وفزعت إلى قلمها ، وشرعت تنظم القصائد الرائعة تمثل فيها مأساتها .

وهكذا وضعت جنينها المعنوى وأتمت ديوانها « حب ودم وموت » . فغادرت المستشفى وفى عزمها أن تشق طريقها فى دنيا الأدب والفن . وما هو إلا عام حتى توج الديوان هامتها بإكليل من الشهرة والمجد . ولكن ضفائر هذا الإكليل كانت معقودة بدم ابنها ، بدم حبيبها ، بدم زوجها المخيل وقرين أحلامها . فآلت على نفسها ألا تجحده . وألا تخونه ، وألا تعيش إلا لتجدد شبابه وحياته فى فن يخلد إلى الأبد حبها وذكراه .

مكسيم جوركى
أو
القلب فى مغرب العمر

« أولع الروائى الروسى الأشهر مكسيم جوركى وهو فى الخمسين من عمره بفتاة فى العشرين تدعى أولجا إيفانوفنا . وبعث إليها بهذه الرسالة التى تمثل أروع تمثيل قلب عبقرى . كما تمثل مبلغ ما فى غرام الكهول من عنف وحسرة وجنون » .

* * *

قال الروائى :

« لا أعرف لماذا كتبت إليك هذه الرسالة . كان يجب ألا أكتبها أبداً . ولكن قوة قاهرة دفعتنى ، وعاطفة عميقة أخذتنى ، ورغبة مستبدة قاسية ختمت على بصرى . وجردتنى من كل عقل وكل فكر وكل إدراك .

إنى لأخشى أن أتكلم . وأخشى أن أكتب . وها هى ذى الكلمات تفر منى ، وتتملص من قلمى ، وكأنها تقول لى : مكانك أيها الرجل فأنت غر أبله ، وأنت أحمق معتوه !

ماذا ؟ أفى مقدور مثلى أن يتطلع إلى السعادة ؟ أفى مقدور مثلى أن يجالس النعيم ؟ . . أنا رجل فى الثالثة والخمسين ، وأنت ، أنت فتاة فى الثانية والعشرين ! ومع ذلك فيجب أن ألقى عند قدميك بحملى ، ويجب أن أفتح لك مغاليق صدرى ، ويجب أن أعترف لك بهذا الحب الطارئ العنيف الذى غافل فكرى ، واستقر من كيانى المعذب فى الصميم .

نعم أنا أحبك يا فتاتى . . أقولها والخجل يملأ نفسى ، والذلة تسحق فؤادى . والعار يجلل هامتى . ولكن ما حيلتى فى عواطفى ، ما حيلتى فى نداء الشباب والحياة الذى يجلجل من حولى ، ويصم أذنى ، ويعمينى عن رؤية حقيقتى ؟ !

إنى مريض وضعيف وحزين . ولكن المرض هو الذى يغرينى بالصحة ، والضعف هو الذى يغرينى بالقوة ، والحزن هو الذى يغرينى بالفرح ، ويزين لى تجربة السعادة فى حبك لآخر مرة .

لا يمكنك أن تتصورى مبلغ الحرقة التى أحس بها كلما رأيتك ، أو تحدثت إليك . أو نحت فى فورة حلمى ظل ابتسامتك . أنت الجمال بنضرته الذهبية ، وأنت الشباب بإشراقه الحى . أما أنا فخوفى من الموت هو الذى يدفعنى إليك . ولأنى أخاف الموت أجد نفسى بالرغم منى مرتمياً فى حضن حبك ، هو ذاك . المرض الذى أشعر به يذوب ويضمحل فى فيض صحتك ، والضعف الذى أثور عليه يتبدد ويفنى فى قوتك . الحزن الفاجع الذى أغالبه وأقاتله ينطرح على الأرض صريعاً وتموت صرخاته فى ضحكاتك البريئة المدوية النشوى !

فأنت الدم لمن جفت دماؤه ، وأنت العصب لمن تصدعت أعصابه ، وأنت الشمس لمن وهنت عظامه ، وبات يتحرق ويتلهف على وقدة نار تحييه وتنقذ جسده البالى من همود القبر وبرودة العدم .

إنى لأكاد أنكر رسالتى ، وأكره الخلق والإبداع . وأنفر من الكتابة والتأمل كى أنقطع لحبك . ولكن شيطانى يرتد إلى ويعود فيتغلب على ويغرينى بأن أمسك بالقلم وأضع قصة أو مسرحية . ثم يشتد فى نفسى الصراع . الصراع بين واجبى وقلبى ، بين رسالتى وحبى . فأشرع فى الكتابة والتأليف بالرغم منى . ثم أمزق الورق وأفكر فيك ، ثم أعود وأحاول أن أخلق وأبدع فأعجز وتنهمر من عينى الدموع .

بيد أنى سأقهر هذا الصراع بالارتماء فيه ، بإبداعه فى عمل فنى يخلده ، فى قصة رائعة تصوره وتصور مبلغ حبى العظيم لك .

بهذا أستمد منك نوراً وإلهاماً . بهذا أجعل من غرامى طرفة حية وباقية . ومع ذلك فأنا أتمنى لو أحببتنى . . . لا . . . بل لو تصدقت على بالنزر اليسير من عطفك . ولكن كيف أطمع فى المستحيل . كيف

أخالس مثل هذا الأمل . كيف يطاوعنى ضميرى على محاولة الجمع بين موتى وحياتى ؟ !

إنها لجريمة منى أن أفكر فيك ، وجريمة منى أن أعبدك ، وجريمة منى أن أخط هذه الرسالة إليك . ولكننى أريد أن أعيش وأنت واسطة حياتى . أريد أن أنتشى وأنت صبابة كأسى . أريد أن أتغلب على المرض والضعف والشيخوخة والموت ، وأنت حافز قوتى ! . . . فانقذينى يافتاتى . أنقذى روحى من الظلام ، وعقلى من الجنون ، وجسدى من الفناء والبوار . انحنى على ولو لحظة ، أشفق على ولو خدعة . مالئينى على حبى ، ومالئينى على أملى ، ثم اهزئى بى واضحكى منى ، على شرط ألا أفهم أو أسمع أو أرى .

هذا كل ما أطلبه إليك : كلمة وبسمة ، نظرة وتحية ، رقة وعذوبة شفقة ورحمة ، عطف وحنان . . . ولك بعد ذلك أن تسعدى . لك بعد ذلك أن تعشقى ، لك بعد ذلك أن تتزوجى .

وإنى لأشهد قلبى الممزق ، وأملى المخيب ، وحظى المنكود ، أن أحب أبناءك كما لو كانوا من فلذة كبدى وعصارة دمى !

فامنحينى النعمة الأخيرة التى تصبو إليها نفسى ، نعمة أن أراك فقط ، وأحس وجودك فقط ، وأعيش فى ظلك فقط . ولسوف أدفن همى فى صدرى ، وأكتم سرى عن الجميع ، وأستحيل أمام الناس ، بملء إرادتى واختيارى ، وملء لوعتى وعذابى ، وملء نشوتى وفرحى ، إلى تمثال للصمت ، تغلى فى صدره العواطف ولا تتحرك شفتاه برجفة شكوى أو لهفة زفرة ، أو كلمة عتاب ، أو همسة أنين !

وإنى لواثق من أنى عندئذ سأعيش وأتمتع ، وأخلق وأبدع ، وأهزم بقربك المرض ، وأصرع بوجودك الألم ، وأقهر بحبك النقى الكريم ذل الضعف وعجز الشيخوخة وسلطان الموت .

ومتى استنفدت فى ظلك كل قوى حبى ، وكل قوى ذهنى ، وكل

قوى حياتى ، ثم غافلنى القدر فأسلمنى إلى الموت بالرغم منى ؛ فسأرقد فى مثواى الأخير ساكن النفس ، هادئ القلب ، طاهر الضمير . سأرقد يافتاتى ، يا ابنتى ، يا أختى ، فى ظلمات العدم الأبدى وأنا أبتسم وأنظر إلى عينيك ! » :

• • •

وكانت « أولجا إيفانوفنا » كريمة النفس ، فأجابت جوركى إلى سؤله . ولما تزوجت عرفته إلى زوجها ، وأفسحت له صدر بيتها . فكان الصديق المثالى الذى احترم حبه واحترم وعده ، وظل صامتاً نبيلا عفيفاً حتى ضاق ذرعاً بحظه ، فاختفى عن الزوجين ذات مساء ، وغادر بيتهما ولم يعد إليه أبداً .

ماريا جارسيا

أو

صراع الحب والمجد

من النساء النابغات اللاتى تألق نجمهن فى أوربا فى مطلع القرن التاسع عشر المغنية الفنانة الموهوبة « ماريا جارسيا » .

ولدت هذه المرأة فى باريس عام ١٨٠٨ من أبوين إسبانيين فقيرين ، وكان والدها نفسه مغنياً يقوم بأدوار ثانوية فى بعض الأوبرات فلم تكد « ماريا » تبلغ الخامسة من عمرها حتى بدأت هى الأخرى تغنى مقطوعات شتى كانت تسمعها من أبيها وهو يستظهرها فى البيت . فأذهلت الرجل رخامة صوتها ، ودقة تعبيرها ، وشعلة العاطفة المتقدة فى أدائها . فآلى على نفسه أن يهذبها ويصقلها ، ويعلمها أصول فنه ، ويجعل منها فى يوم من الأيام مغنية لامعة .. : وكان الرجل مستبداً قاسياً وبخيلا ، لا ينفذ إلى قلبه ضوء من حنان أو سخاء . فشرع يحبس الطفلة فى البيت ، ويفرض عليها الغناء كل يوم ، ويراجع القطع فى صحبتها مرات ، ويضربها ضرباً مبرحاً إذا أخطأت ، ويكافئها متى أحسنت وأجادت بأن يخرج بها إلى النزهة ، بدون أن يمتعها ولو ببعض ما تشتهى من لعب أو فاكهة أو حلوى .

كانت « ماريا جارسيا » طفلة عاقلة وطائشة ، متحفظة ومنطلقة ، يدفعها استبداد أبيها إلى الانطواء على ذاتها ، وتسوقها العواطف المشبوبة المضطرمة فى صدرها إلى حب الخيال ، وحب الحرية ، وحب المرح واللهو والحياة .

وكانت كلما أسرف والدها فى ضربها وتعذيبها كى تجيد قطعة موسيقية ولا تخطىء فيها ، تعض على شفتيها ، وتكبح دموعها ، وتأبى إلا أن تتمرس بالقطعة تمرساً كاملا ، عساها أن تجيدها إجادة خارقة ، فتثأر لكرامتها ، وتثأر من أبيها ، وتؤكد أمام جميع أفراد أسرتها قوتها وقدرتها ونبوغها : :

وهكذا شبت ماريا وقد تولدت فى نفسها رغبة عنيفة فى التفوق ، مقرونة بتلهف شديد على العطف ، وتلهف شديد على الحنان ، وتلهف شديد على الحب الذى حرمت منه فى بيتها ، والذى لم تجده أيضاً فى أمها التى كانت أقسى وأغلظ من أبيها . فإرادة التفوق مضافاً إليها الشعور المرير بوطأة القسوة ونقص الحب والحنان هى التى كانت تفعم صوتها بذلك التأثير القوى العميق الذى خلب لب والدها ذات يوم وحمله على أن يغامر ويُظهر ابنته على المسرح . .

وظهرت ماريا لأول مرة على المسرح الملكى بلندن وهى فى السابعة عشرة من عمرها فى دور روزين فى أوبرا « حلاق أشبيليه » . فسخر منها الجمهور أول الأمر وكاد أن يصفر لها . ولكنها ما إن أحست بأن كل جهد طفولتها وكل ما تحملته من بؤس واضطهاد وعذاب يوشك أن يذهب سدى ، حتى أهابت بعزمها وإرادتها وكبرها وافتنت فى الغناء . فأخذ الجمهور بها ، وزايله استخفافه الساخر فى لحظة ، وطفق يصغى وهو مذهول ، ثم وثب ناهضاً فى الفصل الختامى واندفع يهتف للمغنية الناشئة هتافاً حاراً متواصلا .

وكان نجاحاً منقطع النظير ، بل كان مجداً لم يحلم به الوالد ولا الفتاة . فتقاطـــر أصحاب المسارح الغنائية على ماريا ، وتبارزوا فى أيهم يجتذبها بمختلف العروض المغرية . ولكن اسمها كان قد لمع فى أوربا . فتملكها الطموح . فأرادت أن تغزو أيضاً أمريكا . فسافرت إليها وغنت على مسرح « البارك » فى نيويورك . فتوجت بين عشية وضحاها أميرة على جميع مغنيات الأوبرا فى العالمين القديم والجديد . . . وكانت ماريا لا تنشد المجد بقدر ما تنشد الحب ، بل إن ثمرة المجد كانت فى نظرها هى الحب . فكانت تغنى والحسرة فى صدرها والألم الدفين يطاردها ، وتمثيل عاطفة الحب يضاعف عذابها ، ويلقى فى روعها أنها ستظل ممثلة ، وأنها لن تشعر فى الواقع الصادق الحى بتلك

العاطفة المنشودة أبداً .

وبدأ صراعها العجيب . صراعها مع المجد . كانت لا تريد أن يخفف المجد وجدانها . أن يخنق عواطفها . أن ينسيها ما لقلبها عليها من حق . أن يجعلها امرأة متكبرة وقاسية تتيه على غيرها بالنجاح الباطل وتقنع بما يحسدها عليه الجميع . فكانت تتواضع ما استطاعت . وتروض نفسها على الرقة والدماثة والحنان كى تكون متأهبة لعاطفة الحب التى تصبو إليها .

وشاء القدر أن يلبى نداءها . وأن يبدل فى لحظة حياتها ومصيرها . كانت تمرح ذات صباح فى إحدى حدائق نيويورك . وإذا برهط من أصدقائها والمعجبين بها ، يقبل فجأة عليها ، وفى طليعته رجل لم تره قبل ذلك ولم تسمع به . فحدقت فى الرجل فترة وارتعدت فرائصها . لم تستطع أن تقهر شعور الانجذاب والخوف الذى أثاره فيها . أحست كأن قلبها ينخلع . وكأن الدم قد جمد فى عروقها ، وكأنها قد استحالت على حد تعبيرها إلى شبه هيكل مخبول لم تبق فيه غير عينين ثابتتين مبهورتين تحدقان إلى ذلك الرجل . . . وكان الرجل ألزاسيا يدعى « فرانسوا ماليران » . ويعمل مديراً لأحد البنوك فى باريس وكان فاتناً وساحراً وخارق الجمال . ولكنه كان يكبر « ماريا » بعشرين سنة . ومع ذلك فقد عشقته « ماريا » من أول نظرة . لم تعشقه لجماله فقط . بل لفيض الرجولة المتدفق منه ، وفيض الثقة المنسكب عليه ، وفيض الكبر الذى كان يشع كالضوء الصارخ من عينيه السوداوين الواسعتين الصارمتين .

وتم التعارف بينهما . ودعته « ماريا » لزيارتها ، وازدادت حباً له وشغفاً به . أما الرجل فقد راعه من هذه الفتاة العظيمة المجيدة أن تخصه بعطفها . وأن تقربه وتؤثره على غيره وهو يكبرها بعشرين سنة . فالتهبت فيه عوامل الخيلاء والزهو . فانقاد إلى هذه العوامل بدون أن يفقد عقله ،

وشرع يتودد إلى الفتاة ويحاول أن يقنع نفسه بأنه حقًّا يحبها . . . وابتهجت « ماريا » أيما ابتهاج ؛ وكادت أن تفقد صوابها لشعورها بأن الحظ قد حالفها فى النهاية . وأنبت زهرة الحب اليانعة البيضاء فوق أرض المجد القاحلة المقفرة . . . وكانت فتاة نبيلة النفس ؛ مستقيمة وصريحة . فلم تتردد وكاشفت « فرانسوا » بحبها ؛ وعرضت عليه الزواج . فقبل مذهولا ومأخوذاً وتم قرانهما بعد التعارف بشهر واحد فقط . . . ولكن العجيب فى الأمر أن « ماريا » فى خلال هذه الفترة كانت قد لمست الجوهر من شخصية « فرانسوا » . وعرفت حقيقة ميوله وأهوائه ؛ وأمعنت برغم ذلك فى حبه والتهافت عليه .

والواقع أن ما كان يجذبها فيه فوق جماله وكبره واعتداده بنفسه ، أنه كان فى طبعه وخلقه صورة حية لوالدها . كان قاسياً وصارماً ومستبداً كوالدها . فأرادت « ماريا » أن تهذب طبعه وخلقه ، أن تبدع منه شخصية الوالد الحنون الذى حرمت منه فى طفولتها ؛ وتمزجها بشخصية الزوج الحبيب الوفى الذى تصبو إليه نفسها وهى امرأة . . . وكانت تعتقد أنه يحبها ، فآمنت بأن فى مقدورها أن تبدله وتجعل منه رجل أحلامها .

واستفاضت شهرتها إذ ذاك فى البلاد الأسيوية أيضاً وعرفت باسم « مدام ماليبران » نسبة لزوجها . فلم يستخفها المجد ، بل زادها رقة ودماثة وتواضعاً ؛ ورغبة فى إسعاد نفسها بتبديل شخصية زوجها . . ومضت تبذل المستحيل كى تروض الرجل المتكبر القاسى على اللين والعطف ، والمودة والحنان ، والطيبة والرحمة . ولكن « فرانسوا » ، وقد بدأ يغار من مجدها ويشعر بخموله حيال شهرتها ، أخذ يشمخ بأنفه عليها ، ويحتقرها ، ويستبد بها ، ويمثل فى ذهنها وخيالها صورة الأب الطاغية الذى كانت تتلهف على حنانه ، وتصر على أن تبدع نقيضاً له فى شخصية زوجها . . والغريب أنها كانت كلما استبد بها

« فرانسوا » ، تزداد اعتقاداً أنه يعشقها : فتزداد طاعة له وصبراً عليه وأملا فى تبديله . فيغلو هو فى التحكم فيها والسيطرة عليها ومحاولة إخضاعها لمشيئته .

ولما أحس أنها ملكه ومتاعه ، وأنه عاجز عن التغلب على غيرته منها وعن التطلع ولو إلى قبس من ضوء مجدها ، أراد أن يثأر لضعفه وخموله بأن يستغلها ويعيش فى جاه وعز على حسابها . فطفق يغترف من مالها . ويسكر ، ويقامر ، ويتصل بالغوانى ، ويدخل بيته قبيل الفجر متضوحاً متعثراً مخموراً ، يسب ويصرخ ويضحك ويهذى ، ثم يرتمى على الفراش وينام ، جثة خاوية هامدة . . . ومع كل هذا فقد احتملته « ماريا » لم تشأ أن تفقد أملها فيه . لم تشأ أن تحطم حلمها الذى شيدته عليه . كانت تغفر له إدمانه الخمر ، وانكبابه على الميسر وحتى اتصاله بالغوانى يقيناً منها أنه لابد أن يثوب إلى رشده يوماً ويكف عن رزائله ويعود إليها هى ، ما دام لم يعشق امرأة غيرها ، ولم يتصل بامرأة معينة ، ولم يتخذ له خليلة تحت تأثير عاطفة قوية وثابتة . ولكن « فرانسوا » كان قد وقع بالفعل فى هوى راقصة روسية ماكرة وخبيثة تمنعت عليه كى تظفر به وتكيد المغنية . فثارت ثائرة « ماريا » وأنذرته . فلم يحفل بها لأنه كان قد ادخر مبلغاً كبيراً مما ابتزه منها ، وهددها بالطلاق إن هى حاسبته على حياته ، أو تدخلت فى شئونه ، أو تحرشت بالمرأة التى كانت فعلا خليلته .

وهالتها هذه القحة المقرونة بالتحدى ولكنها بدل أن تثور أيضاً لكرامتها ، أذلها الحب . فارتمت عند قدمى الرجل تتوسل وتبكى . فتظاهر بأنه قد تأثر ، ووعد بأن يقطع الصلة بخليلته ، ثم احتضن زوجته وقبلها ، ثم نهض وتأوه ، وترخص وتملق ، وطلب مالا . فأعطته « ماريا » ما طلب فأوسعها ضماً وتقبيلا ، وخرج وهو يقسم لها أنه لن يخونها بعد اليوم أبداً ولن يعرف منذ الساعة امرأة غيرها .

وفى الليلة نفسها . وبينما كانت « ماريا » ماليبران تغنى على أحد مسارح باريس ، والأعناق مشرئبة إليها والجمهور يهتف لها . وطاقات الزهور تنهال عليها ، دخل زوجها فى صحبة الراقصة الروسية عشيقته ؛ فمادت الأرض فى عين ماريا . وضل عقلها ؛ وتشوش صوتها . فلم تستطع إلا أن ترسل صرخة ممزقة أشبه بالعواء . ثم تسقط على خشبة المسرح مغشيًّا عليها . .

وحملوها إلى بيتها وهى بين الحياة والموت . فلم تكد تبصر زوجها الذى خف إليها ملهوفاً وطفق يمنيها بالوفاء والحب مستغفراً ونادماً ؛ حتى استجمعت كل قوى حقدها ، وكل قوى حسرتها وذلها وعذابها ، وطردته شر طردة ، وهى تنتفض وتختلج وتكاد أن تختنق فى دموعها .

ولم يعد فى وسعها أن ترى « فرانسوا » أو تسمع صوته ؛ أو تحتمل ملمسه . فاتفقا على الطلاق وتم انفصالهما بعد أن نزلت المرأة للرجل الدنىء عن مبلغ آخر من مالها .

وكان لهذه الصدمة أكبر الأثر فى فن « ماريا » ؛ فحطمت قلبها ولكنها أشعلت ناراً جديدة فى صوتها . نار حسرة عميقة مذيبة ، جعلت من غنائها صرخات إنسانية دامية لم تعهدها فيها الجماهير ولم تعرف قط لها نظيراً . . . وعاد المجد يلمع ولكن فى كهف من العزلة والوحشة والظلام . عاد الصراع مع المجد . عاد التلهف على الحب . عاد القلب ينبض ولكن بدون فرحة أو بهجة أو ظل ابتسام . فحاولت « ماريا » أن تعيش للفن وحده ، وأن تحب المجد وحده ، وأن تخلص للجماهير التى كانت تهلل لها كل ليلة وتعبدها . ولكن ما هو الفن وما هو المجد وما هى الجماهير . أليست كلها أوهاماً أو أشباحاً يستحيل على الإنسان أن يخاطبها ، أو يلمسها ، أو يعانقها ، أو يندمج ولو ببعض أجزاء كيانه فيها ؟ . . لا . . الفن والمجد وأمثلة الجمال أشياء علوية تجريدية يمكن للرجل أن يكتفى بها . أما المرأة فتنشد شيئاً محسوساً ، شيئاً مختلجاً

نابضاً ، حبيباً من لحم ودم تستطيع أن تحنو عليه ، وتضمه إلى صدرها ، وتهدهده فى حضن قلبها وروحها كما تهدهد الأم الرءوم وليدها : هذا ما عادت تتلهف عليه « ماريا » برغم خيبتها وحسرتها وعذابها ، عادت تبحث عن الحب . فصور لها خيالها بعد طول البحث والمطاف أنها قد وجدته هذه المرة فى رجل يشبهها شبها عجيباً كأنه كان منذ الأبد مرصوداً لها .

وكان هذا الرجل شاعراً إيطالياً يدعى « أميليو مونتاجو » ، رقيقاً مثلها ، دمثاً متواضعاً وطيباً على غرارها . فهامت بشعره وبه ، وأشارت بتلحين قصائده وغنتها . ثم خرجت فى صحبته إلى المتنزهات والملاهى ، أسعد ما تكون بوجهه الشاحب ، وسهومه الحالم ، وعينيه الوسنانتين ، وحديثه الذى لا يكاد ينطلق حتى ينثر أغرب الأفكار وأجمل وأبدع الخيالات والرؤى . . . وأوشكت كعادتها وقد ملكها الحب أن تسرع وتعرض الزواج على الشاعر . ولكنها لم تشأ أن تتهور مرة ثانية . فأرادت أن تستوثق من حب الشاعر لها ، ومن أن أخلاقه شبيهة حقاً بأخلاقها . فأقدمت على زيارة بيته ذات مساء ، كى تتحدث إليه طويلا ، وتتعرف إلى أمه الأرملة العجوز التى كان هو وحيدها . وما إن دخلت البيت حتى تراجعت مبهوتة مذهولة وكف قلبها عن الخفقان . . . أبصرت ما لم تكن تتوقعه أبداً .

أبصرت رهطاً من الشبان ، مشعثى الشعر ، غائرى العيون ، متقوضى الأبدان ، منطرحين على وسائد ألقيت على الأرض ، يدخنون الأفيون فى غلايين مستطيلة ، وهم سابحون فى نشوة تشبه الإغماء . كانوا جماعة من الشعراء المنحطين المتحللين ، وكان « أميليو » فى وسطهم ، مستغرقاً فى التدخين وهو تائه . فدنت منه « ماريا » ، وهزته هزاً عنيفاً . فعرفها . ولكنه لم ينهض ، ولم يحرك ساكناً ، ولم يستبقها بل لم يحاول أن يزجر رفاقه الذين كانوا قد بدأوا يفطنون لوجودها ، ويعرضون بها

ويسخرون منها ، ويتطاولون عليها بالنكت البذيئة الصارخة . . .

وأحست « ماريا » بالدم يغشى بصرها ، وبالإهانة تأخذ بمخنقها ، وبالصدمة الثانية تكاد تحطمها وتهلكها . فحنت رأسها ونظرت أيضاً إلى « أميليو » . بيد أنه لفرط همومه بفعل التدخين ، حول عنها بصره الساهم التائه الحاوى ، وأومأ إليها بأن تخرج . فخرجت مقهورة القلب ، ذليلة النفس ، مسلوبة الحول ، لا تدرى لماذا يطاردها القدر هكذا بدون رحمة ، ولماذا يبهما الحب ثم يأبى إلا أن يقدمه لها فى صورة هذا الشاعر المهدم المنحط صريع الأفيون ؟ ! .

وناءت عليها الحسرة ، فأوصدت بابها فى وجه الشاعر ، وارتمت بجسمها فى دنيا الفن لتنسى . كانت تحس للفن وانجد طعم الرماد . ومع ذلك فقد طافت بمختلف عواصم العالم ، وغنت على أكبر مسارح أوربا ، وتنقلت من فرنسا إلى بلجيكا ، فألمانيا ، فإيطاليا ، فإنجلترا ، والجماهير فى كل من هذه البلاد تتدفق لسماعها ، وتهتف لها ، وتكللها بالمجد ، وهى محمومة مخبولة حيرى ، لاتستطيع أن تنسى قلبها ، ولاتستطيع أن تسلم بأن الحب المتبادل المشترك ليس من نصيبها ، وأنها قد تعيش وتموت بدون أن تعرف نعمته المقدسة أبداً . . وعندئذ ، وبعد سبعة أشهر من الوحدة والكمد والقلق والطواف ، دبت الحياة فى قلبها للمرة الثالثة . . .

كانت فى بلجيكا تغنى الدور الأول فى إحدى الأوبرات ، وكانت تحدق إلى الموسيقيين القابعين تحت المسرح يصاحبون غناءها بالعزف على آلاتهم ، وإذا بها تشخص على الرغم منها إلى رجل بينهم لم تهتم به قط ، ولم تشعر بوجوده قبل هذه اللحظة . . . وظلت تتأمله وهى تغنى . فأحست بروحها تتفتح ، وبقلبها يتفطر ، وبالأنغام تتدفق من صدرها تدفق السيل . فأدركت فى لوثة المتلهف المحروم أن القدر قد لطف بها وأشفق عليها ، وأنها أحبت هذا الرجل ، وأن هذا الرجل قد يكون

هو الإنسان الذى يمكن أن يحبها ويخلص لها . وكان الرجل فناناً بلجيكياً يدعى « شارل بيريو » ويعمل فى الفرقة عازفاً على الكمان . وكان شاباً فى نحو الثلاثين غزير الشعر ، عريض الجبهة ، أسود العينين ، ناصع البياض ، فى حركاته ونظراته ، شدة ولين ، عنف ورقة ، عزة وانكسار ، مزيج من الرجولة والأنوثة يخلب الألباب . فهامت به « ماريا » وأودعت فى حبها له كل ما كانت تجيش به نفسها من عزم على الثأر لما أصابها من فشل فى ماضيها البغيض .

أرادت أن تجدد حياتها ، وتبعث قلبها ، وتمحو ذلك الماضى ، وتبذل المستحيل كى تحقق فى صحبة هذا الرجل حلم السعادة الأمثل الذى تنشده كل امرأة . فتقربت إلى شارل ، ولاطفته ، وميزته ، وشرعت تنعم النظر فيه وتدرس أخلاقه . وكان شاباً غريب الأطوار ، يعشق الفن والأدب ويرتفع بحديثه إلى سماوات بعيدة من الفكر والخيال ، ولكنه كان فى الوقت نفسه ، ويالعجب ، مخلوقاً محباً لبطنه ، متهافتاً على الطعام ، أكولا وشرهاً برغم نزعته العقلية وذكائه الوقاد . والواقع أنه كان خيالياً وعملياً ، عاطفياً وشهوانياً ، بل إن تحليقه فى عالم الشعر والخيال وهو يعزف كل ليلة على كمانه ، كان يهبط به فى حياته اليومية إلى دنيا الغريزة والجسد إشباعاً للذاته . فكان يفرط فى شهوة الطعام حتى يتخم ، ويفرط فى الإعجاب بالنساء من طريق الجسد حتى لايكاد يبصر فى أرقهن وألطفهن شيئاً غير إغراء اللحم والدم . فلما أحبته « ماريا » أذهله هو الآخر حبها ، وراعه منها صباها ونضرة بدنها . فعشق فيها الجسد لا الروح عشقاً مبرحاً ، وبات لا يحلم إلا بالتمكن منها والاستمتاع بها . أما « ماريا » فلم تكن فى حبها الأول والثانى قد صادفت الرجل الذى يشتهيها بمثل هذه القوة . فتوهمت أن الرغبة هى العاطفة ، والاشتهاء هو الحب . فاشتد تعلقها بشارل وعزمت أن تتزوجه . وما إن حزمت أمرها حتى وقع شىء أغرب وأعجب من كل ما حدث

لها . كان لشارل شقيق يدعى « موريس » يعمل فى فرع إحدى الشركات الفرنسية فى بلجيكا . فما إن اتصل بأخيه ، وتعرف إلى « ماريا » حتى أحبها هو أيضاً وشغف بها . . . وكان كهلا يشرف على الستين مناقضاً لشقيقه فى ميوله وأهوائه ، كلفاً بالعواطف ، غير مستعبد لشهوة الجسد ، نبيلا وكريماً وشهماً . فأحب « ماريا » فى تحفظ وصمت ، فى احترام وكتمان ، فى عبادة وتقديس . ولم يشأ أن يعتدى على حق أخيه واكتفى بأن يزور المغنية فى بيتها ، ويملأ بصره منها ، ويعيش فقط فى جوها ، وهو يخنق حبه فى صدره ولا ينطق بكلمة واحدة يمكن أن تخونه وتفضحه . . وكان « شارل » لفرط اهتمامه بزواجه القريب لايكترث لأخيه ولا يعير زياراته المتعاقبة أى اهتمام . أما « ماريا » فقد أدركت أن « موريس » يحبها ، فتبرمت به ، ونفرت منه ، واستنكرت عاطفته ، وازدادت هياماً « بشارل » وعزماً على الاقتران به فى إنجلترا حيث دعيت للغناء على أحد مسارح مدينة منشستر . . وسافرت « ماريا » مصحوبة « بشارل » ، وخادمتها الفلاحة الصبية الإسبانية الجميلة « كرمن » ، و « موريس » الذى أبى إلا أن يرافقهم متعللا بضرورة زيارة فرع الشركة فى إنجلترا . . . وهناك وفى مدينة منشستر ، وقعت المأساة الرهيبة التى كانت على وشك أن تهلك « ماريا » ، وتقضى على جميع أحلامها شر قضاء .

كان من عادتهم هى و « شارل » و « موريس » أن يخرجوا إلى النزهة على ظهور الجياد مساء كل يوم . فى إحدى الأمسيات تعارض « شارل » وتخلف فى البيت ، والتمس إلى « ماريا » أن تفرج عن نفسها بالنزهة كالعادة وأن تدعه هو ينام ويستريح . فلم يسعها لفرط الحاحه وبعد أن اطمأنت عليه إلا أن تجيبه إلى سؤله وتخرج مكرهة فى رفقة شقيقه . بيد أنها لم تكد تترك البيت وتعتلى ظهر جوادها ، وتنطلق به بضع خطوات ، حتى عز عليها أن تهجر حبيبها وهو مريض . فأشارت

إلى أخيه بالعودة ، وكرت راجعة ، وفتحت الباب بمفتاحها الخاص ، ثم اندفعت إلى مخدع « شارل » وفى أثرها « موريس » . ولكنها لم تكد تدخل ، لم تكد تنظر وتحدق . حتى انخلع بدنها كله ، وتجمدت فى مكانها .

أبصرت حبيبها ، معبودها ، الرجل الذى كانت قد اعتزمت أن تلوذ به من فراغ المجد وأن تتخذ منه زوجاً أبدياً لها ، أبصرته يضم بين ذراعيه خادمتها الفلاحة الصبية ، وفى عينيه تلك الشهوة المتحرقة المنهومة التى كانت تظن « ماريا » أنها هى الحب ، وتعتقد أنها وقف عليها وحدها . . . لم تستطع أن تنطق أو تتحرك . أما « موريس » الذى هاله من شقيقه ما فعل فقد غلى دمه . فرفع السوط الذى كان يستخدمه لإلهاب جواده ، وانهال به على أخيه والخادمة فى سخط وهياج وجنون .

وأحس « شارل » أن بقاءه فى البيت بعد الفضيحة محال . فاختفى فى اليوم نفسه وتبعته الخادمة . أما «ماريا» التى عصف بها اليأس والحنق والذل والهوان ، فقد تلفتت حولها فلم تجد غير « موريس » . لم تجد غير هذا الكهل الذى أحبها حقاً فتبرمت به ، واحترمها حقاً فنفرت منه ، وقدسها حقاً فلم تقدره وآثرت وغداً دنيئاً عليه . فاندفعت نحوه هو ، ولاذت به هو ، وتشبثت به كما يتشبث الغريق بحطام ، وآلت على نفسها أن تجعل منه وحده الزوج والحبيب والأب المنشود .

وكان « موريس » هو الأمل الحى ، هو الحب المبتغى ، الحب الثابت الراسخ العظيم الذى طالما حلمت به « ماريا » ، والذى امتلكته بعد طول ابتها . عذ ففاض عليها فيضاً دونه فيض المجد والشهرة والمال الذى لم ينقع أبداً غلتها ، ولم يملأ فى أروع ساعات المتاف والتهليل قلبها وحياتها .

وتزوجت « ماريا » « بموريس » ، وعاشت معه فترة أيقنت أنها لابد أن تكون خالدة . ولكن من ذا الذى فى مقدوره أن يفهم سر

الحياة ، ومن ذا الذى فى مقدوره أن يعرف الغاية من تصاريف القدر : القدر يلهو بنا ، وهو لا يعطينا إلا ليأخذ منا . ونحن فى لحظة النعيم التى نتصورها أبدية الازدهار ، نفقد النعيم ونفقد الحياة التى شيدناها بعقولنا وقلوبنا ودمائنا .

لم تكد « ماريا » تهنأ بزواجها وتخالس فيه متعة التوافق والاندماج المثلى ، حتى برز إليها القدر من مكمنه وردها فجأة واعترض طريقها .

كانت قد خرجت يوماً إلى النزهة على ظهر جوادها ، وكانت فرحتها بالحياة تطغى عليها . فأطلقت لجوادها العنان ، واندفعت تعدو به وسط الحقول ، ونشوة الانطلاق تأخذها ، والريح العنيفة تحملها ، وشعرها الغزير المتطاير حولها يتهدل على وجهها ويحجب عن عينيها معالم الطريق . وعندئذ طوح بها الدوار ، دوار الانطلاق والنشوة . فغابت عن نفسها ، فأفلت من يدها العنان ، وكبا بها الجواد وألقى بها على الأرض .

أما « موريس » الذى كان قد استبطأ عودتها ، فقد اعتلى ظهر جواده وخرج يتعقبها . فما إن بلغ مكانها وألفاها مهشمة الوجه والأعضاء ينزف منها الدم ، حتى جن جنونه . فأسرع وحملها على ظهر جواده . ولكنه ما إن دخل بها البيت حتى كانت الفنانة العظيمة التى آثرت الحب على المجد وصارعت المجد فى سبيل الحب ، قد سكنت أنفاسها ، وابترد جسدها ، وأسلمت الروح بين ذراعيه .

جورج هرويج
أو
العاصفة الحديدية

« جورج هرويج شاعر ألمانى كبير ولد عام ١٨١٧ وتوفى عام ١٨٧٥ . وهذه قصة حبه الأوحد وكفاحه المرير . وهى قصة غريبة الأحداث شائقة المواقف ، اهتدينا فى وضعها بكتاب عن الأدب الألمانى للمؤرخ الفرنسى ألبير مونتيه » .

* * *

كان جواباً شريداً عصفت به الفاقة وأحالته إلى شبه هيكل من عظام . اشتغل حمالا فى المحطات فخانته قواه وكاد أن يصاب بمرض فى القلب . فالتحق بمحل تجارى ومارس البيع والشراء ، فجف عقله وتبلد ذهنه . فهجر المتجر وانخرط فى سلك السعاة فى أحد البنوك . فأحس وهو الشامخ المستكبر الأبى ، أنه محتقر ومهين . فضاق ذرعاً بحظه وأراد أن يعمل فى صحيفة . ولكنه لم يكن بعد قد وضع كتاباً أو ذيل باسمه قصيدة أو مقالا . فاستخف به أصحاب الصحف وصرفوه . فهام على وجهه فترة ثم عاد إلى المحطات يشتغل حمالا ، ثم خاف من المرض والموت ، فنزل عن كبره مكرهاً ، وأراق ماء وجهه ، ورضى بأن يعمل خادماً للطهاة فى أحد الفنادق الكبيرة فى مدينة « شتوتجارت » .

كان أبوه فلاحاً بائساً يعمل أجيراً فى مزرعة رجل ثرى بقرية نائية من قرى ألمانيا .. فنشأ جورج معذباً ومحروماً ، يستبد به والده الغليظ ، ويفرض عليه العمل فى الصوامع والحظائر ، ويضن عليه إلا بما يسد الرمق ، وينهره ويضربه ضرباً مبرحاً إذا أخطأ أو أهمل أو أجهده فرط العمل أو أخذته فى غفلة عنه سنة من النوم .

وكان يقضى لياليه إما فى صومعة الغلال ، وإما فى حظيرة الماشية . فيغالب نفسه ، ويكبح جماح ثورته ، ويظل ساهراً حتى ينام أبوه ، ثم يوقد

شمعة صغيرة ، ويأخذ فى مطالعة أشعار « جيته » و« شيلر » و « دانتى »، مستهدياً بما تلقاه من دروس أولية على يد كاهن القرية .

وكان يحس إحساساً غلاباً قاهراً ، أنه فى صميم نفسه شاعر ، وأن فى مقدوره أن ينظم أبدع القصائد وأروعها ، وأن الشعر هو مثار فكره وقبلة روحه وغاية حياته . فهجس فى روعه أن يفزع إلى عمه ، ويشكو إليه حاله ، ويصارحه بمواهبه ، ويلتمس منه أن يزوده ببعض المال كى يسافر إلى برلين حيث يجرب حظه ، ويعرض شعره على أدباء وشعراء مرموقين .

وكان عمه رجلاً مسنًّا ، غريب الأطوار ، بخيلاً أشد البخل ، أبى أن يتزوج لئلا يضطر أن ينفق على امرأة وأولاد . فعاش فى ضاحية من ضواحى برلين ، واشتغل بالتجارة والسمسرة والمضاربة ، وبات وهمه جمع المال ، والمباهاة بالجاه والثراء ، يشترى الأرض والعقار ، ويجمع ويكتنز ، ولا يفكر لحظة فى مد يد العون إلى أخيه الفلاح البائس والد جورج .

وكان جورج يعلم علم اليقين أن عمه البخيل الأنانى القاسى لن يجود عليه ولا بمارك واحد . ولكن اليأس هو الذى دفعه ، وهو الذى زين له طلب المستحيل . فلما قوبل من عمه بالسخرية والزراية والإعراض ، ضاعف التحقير من ثورته ، وألهب فيه كوامن عزمه ، فظل يقتصد ويدخر بعض النقود مما كان يربحه من السهر على الصوامع والحظائر ، حتى كانت ذات ليلة أمضه فيها عذابه ، فتشجع واستجمع قواه ، وغافل أهله وهم نيام ، واستقل القطار وسافر إلى برلين .

* * *

وفى برلين عرض شعره على صفوة مختارة من الأدباء ، فقابلوه لا بالسخرية فقط بل بالشفقة . صارحوه بأن شعره غث وشائع ولا تجديد فيه ولا نبض ولا حرارة ولا حياة . فاسودت الدنيا فى عينه ، ولبث كما ذكرنا يتنقل من عمل إلى عمل ، ويعتقد اعتقاداً راسخاً وهو يخدم الطهاة فى الفندق ، أنه قد انخدع فى نفسه ، وانخدع فى مواهبه ، وأنه لن يحقق أبداً حلمه ،

ولن يكون له فى المستقبل أى شأن .

ولم يكن قد عرف الحب أو اتصل بامرأة . كانت لقمة العيش تشغله عن النساء . وكانت خيبة أمله فى شعره تبتليه بضرب من الكآبة والجهامة والتوحش والانطواء . فنفر منه رهط الفتيات العاملات فى الفندق ، وتباعدن عنه ، وعجبن له كيف يكون خادماً بائساً ووضيعاً ثم يكون فى الوقت نفسه مستكبراً وشامخاً وعزيزاً . على أنه كان برغم بؤسه وجهامته وكبره واضح الفتنة والجمال . كان فارع القامة ، ممشوق القد ، بهى الطلعة ، ذا عينين زرقاوين واسعتين ، وشعر ذهبى ناعم وغزير ، وبشرة وضاءة ناصعة البياض ، ونظرة حالمة تائهة تأخذ بمجامع القلوب .

وكان لا يعلم أنه جميل ، ولا يحفل بالنظر إلى وجهه فى مرآة . فكان انعدام ثقته فى نفسه وفى حظه يضاعف من عنف كبره وانطوائه ، ويلقى به بعد العمل فى عزلة لا تجسر اقتحامها فتاة مهما تنبهت لجماله ، ومهما تعلقت به وأرادت أن تداعبه وتغازله وتتقرب إليه .

وهكذا كان يقبع فى حجرته فى الفندق ليلاً ، طريد أحلامه ومطامعه ، وحيداً ومنبوذاً ، محنقاً ومغيظاً ، يعالج نظم الشعر أيضاً . ثم يقرأ شعره فلا يحس هو نفسه أنه قد تأثر وانفعل . فتتردد فى سمعه كلمات السخرية والشفقة التى قابله بها الأدباء . فتتقد فيه عوامل اليأس والمرارة والحسرة ، فيرتعش ويختلج وتنهمر من عينيه الدموع .

وظل على هذه الحال أشهراً ، ثم تبدلت حياته ، ووقع له فجأة ما لم يكن يتصور .

كان يطالع إحدى الصحف ذات صباح ، فتراقصت السطور أمام عينيه ، وأذهله نبأ نشرته الصحيفة فى الركن الخاص بأنباء المجتمع .

علم وأيقن من فحوى النبأ أن أمه قد توفيت ، وأن عمه البخيل قد مات ، وأن ثروة عمه قد آلت كلها إلى والده ، وأن والده يقيم اليوم فى الضاحية التى كان يعيش فيها عمه ، وأنه تزوج فتاة من أسرة فقيرة ،

وأسكن أمها الأرملة معه ، وأصبح هو الفلاح البائس سيداً ملحوظ المكانة ، رفيع القدر ، يرأس جمعية تتولى رعاية الفقراء والمرضى واليتامى من أبناء الضاحية .

واستبدت « بجورج » عوامل الدهشة والذهول ؛ وتمثل والده الغليظ القلب الذى لم يكترث لمصيره ولم يستفسر أبداً عنه . تمثله رجلاً مترفاً وعظيماً بعد أن كان فلاحاً معدماً وأجيراً . فهاله أن يرفل والده فى حلل النعيم وأن يظل هو تاعساً شقيًّا يأكل خبزه بشق النفس وإهدار الكرامة ويخدم الطهاة فى فندق . فثار ثائره ، وفاض به كل ما احتمل من عذاب ، ولم يتردد .

نهض من فوره ، وارتدى ثوبه المهلهل العتيق ، ودس حوائجه فى جعبة ، ثم حمل الجعبة على كتفه ، واختطف قبعته وعصاه ، وانطلق يمشى صوب الضاحية ، واجف القلب ، محنى الظهر ، ملهوف الخطى .

* * *

وكان يعرف البيت ، بل القصر الذى عاش فيه عمه والذى يعيش فيه اليوم أبوه . فلما اقترب منه ، وواجه الحديقة الكبيرة الغناء التى تحيط به ، ودفع بابها وأراد أن يدخل ، برز إليه بواب لم يكن قد عرفه من قبل ، وحدق فيه مستغرباً . فصاح الشاب : أنا جورج ... أنا ابن صاحب الدار ...

فخيل إلى البواب أنه مجنون ، فصرخ فيه وانتهره . فترامى الصوت إلى سمع رب القصر . فأطل من إحدى الشرفات . ولم يكد ينعم النظر فى الطارق حتى لمعت عيناه . فهرول إلى الخارج ، واندفع نحو الحديقة ، وفتح ذراعيه ، ثم ضم الشاب إلى صدره وطفق يردد ويهتف وهو يعانقه ويقبله : جورج ... جورج ...

وتهدج صوته ، وطفر الدمع من عينيه ، وصاح وهو يتأمل ولده : أهكذا أصبحت ؟ ... الذئب ذئبى ... سامحنى ... فكرت فى نفسى

فقط ولم أفكر فيك، بل نسيتك من فرط ما كنت عليه من بؤس. أما الآن فتعال ... تعال ... وساقه إلى زاوية فى الحديقة حيث غرفة البواب ؛ وأردف : ألق بجعبتك هنا ، واخلع عنك هذا الثوب المهلهل، وانتظرنى لحظة ... ووثب إلى البيت ، ثم عاد يحمل « روب دى شامبر » أزرق حريرياً شائقاً . وقال : خذ واتبعنى ... لا تلمنى لأنى قد تنكرت لذكرى أمك وتزوجت ... أردت أن أعيش بعد أن كنت شبه ميت ... فتعال وافرح وعش معى ... سأقدمك إلى زوجتى وأمها ؛ وسنذبح لك العجل المسمن يا « جورج » ...

فارتدى الشاب الثوب الحريرى ، وتبع والده إلى القصر وهو ذاهل وشارد . وما إن دخل البهو الكبير ، وأجال الطرف حوله ، حتى أبصر ثلاث نساء ، واقفات عن بُعد ينظرن إليه شاخصات متفرسات . فأدرك أن الصغيرة منهن هى امرأة أبيه ، وأن الواقفة بجوارها هى أمها الأرملة . أما الثالثة التى هى جدة جورج لأبيه ، فقد ظلت لحظة ساهمة ، ثم ارتمت عليه وعانقته ، وراحت تغمره بالقبلات والدموع .

وقدمه والده إلى زوجته وأمها ، فتأمل جورج وجه الأرملة الأم ؛ ثم تحول ببصره إلى والده الكهل الذى جاوز الستين ، ثم ثبت عينيه فى الزوجة الصبية ، فانبهر واختلج بالرغم منه .

وكانت « أولجا » زوجة أبيه امرأة فى نحو الحادية والعشرين ، هيفاء رائعة الحسن ، ذات جبهة عالية مشرقة ، وعينين لوزيتين ناعستين ، وشعر ناعم ضارب إلى الحمرة ، وخد مشتعل أسيل ، وفم شهى صغير ، وابتسامة خفيفة وغريبة تنم لأول وهلة عن سذاجة وبراءة ثم تزدهر ، وتلمع بغتة ، فتبدو جريئة جرأة مستهترة متحدية مغامرة .

وأما أمها الأرملة « كاترين » ، فكانت امرأة لم تجاوز الأربعين ؛ مديدة القامة ، ناهدة الصدر ، وطيدة البدن ، جميلة جمال الأنثى فى بضجها المغرى ، تنبعث من عينيها الرماديتين نظرات ملؤها التلهف على

الحياة ، تخفيها مظاهر التحفظ والعزة والكبر .

وأما الجدة العجوز فكانت شمطاء ، مهزولة وجافة العود ، ذات عينين ضيقتين حادتين لا تفتأ نظراتهما تصوب إلى زوجة ابنها ، « أولجا » في امتعاض محتجز وكره خفي مكبوت .

ورحبت « أولجا » وأمها بالشاب ، وأوصى والده بأن تفرد له حجرة أنيقة في أحد أجنحة القصر . ثم حدثه عن وكيل أعماله ، وعهد إليه بمراقبته والاشتراك معه في كل ما يتعلق بإدارة وتحصيل إيجارات الأطيان والبيوت الثلاثة التي ورثها في الضاحية عن أخيه .

وكان « جورج » يستمع إلى والده وهو يسارق أولجا النظر ويرتعش ، و« أولجا » تتفرس فيه معجبة بجماله ومأخوذة بانعكاس أضواء شعره الذهبي على ثوبه الأزرق الحريري . وأما أمها كاترين فكانت تغافل الجميع وترمقه هي الأخرى بعين مأخوذة ، تحاول أن ترتد عنه ، فتكر عليه مجبرة وتشخص إليه وهي تائهة وساهمة وظمأى .

هذا والجدة العجوز ترقب الكل وتقطب حاجبيها المتأكلين وتتنهد .

ومدت المائدة احتفالا بعودة الابن الضال ، وأكل الجميع وشربوا صاخبين مبتهجين ، والوالد الكهل يحملق في امرأته الصبية سعيداً ومنتشياً ، وأمها الأرملة تحدجها في نفور ، وجورج يخالس « أولجا » النظر ويحس رعدة عنيفة تسري في بدنه لم يشعر بمثلها قط حيال امرأة .

* * *

وعاش الشاب في القصر يمرح في نعيم لم يتصوره أبداً خياله . نسي ماضيه الأسود ، وكفاحه المرير ، والشعر الذي كان ينظمه عبثاً ، وأحلام الشهرة والمجد التي كانت هي قبلته وغايته المنشودة في الحياة . ولم يعد ينظم أية قصيدة . ولماذا ينظم ؟ ... كان الشعر حيًا أمامه ، نابضاً ومختلجاً وممثلاً في نظرات وحركات ولفتات « أولجا » .

خلبته المرأة الصبية . استأثرت بوجدانه ومشاعره ، بل سيطرت على

كل جارحة فيه . فاندمج فى حبه اندماج محروم لم يخفق قلبه يوماً بالهوى .

رأى فى أوجلا كل ما كان ينشده فى أروع الشعر . رأى فى صوتها وابتساماتها وضحكاتها كل مفاتن الطبيعة ومباهجها مجسدة وناضرة . فأسلس لحبها قياده ، ولم يعد يفكر إلا فيها وحدها .

أما « أوجلا » المستهترة الجريئة التى افتتنت بجمال الشاب ، فكانت تضلل زوجها الكهل ، وتضلل أمها والجدة العجوز ، وتتسلل إلى جورج فى حجرته النائية . وتبذل قصاراها كى تستدرجه وتغويه . فيستنكر هو منها جرأتها ، ويستهول من نفسه كيف يعشق امرأة هى زوجة أبيه . فيصدها ويعف عنها ، فتهزأ به وتغافله وتختلس منه بعض القبل . فيرتعد ويهتاج ويطردها فتضحك المرأة وتنصرف وملء نفسها العزم على التغلب عليه والتمكن منه فى الفرصة القادمة .

والواقع أنه كان يحبها ويجاهد ما استطاع كى يقهر جسده ولا يمتلكها . كان يريد أن يحبها فى صمت ، أن يعبدها فى خشوع ، أن يتملى فقط من النظر إليها ، أن يعيش سابحاً فى جوها ، أن يهيم فى المشاعر والعواطف التى ولدتها فى نفسه ، والتى أصبحت اليوم غذاء قلبه وروحه وغايته الوحيدة من دنياه . بيد أن « أوجلا » كانت تشتهيه ولا تحبه . كانت تريد أن تستمتع به ، وتريد فى الوقت نفسه أن تحرص على مكانتها الاجتماعية التى يكفلها لها زوجها الثرى . وكان « جورج » يستشعر أحياناً حقيقتها . ومع ذلك فقد ظل يخلق منها صورة كاملة لشتى الفضائل والمحاسن ، يتجه بالفكر والخيال إليها ، ولا يحس ولا يرى أن من تحبه حقاً وتعشقه وتتعذب هى كاترين الأرملة أمها ...

كانت كاترين الظامئة إلى الحياة ، المندفعة إلى بعث شبابها وجمالها قبل أن تعصف بهـا الشيخوخة وتسدل عليهـا الستار ،

كانت مشغوفة بجورج إلى حد الهوس ، تحس أنه يحب ابنتها ، وأن ابنتها تضللها وتذهب خفية إليه . فيأخذ الحنق بمخنقها . فتبكى بكاء المتحرقين المتخبطين ، ولا تعرف أى السبل تسلك كى تقطع هذه العلاقة التى قد تؤدى إلى طلاق « أوجلا » ، وكى تظفر هى بالشاب ، بالشاب الذى يبلغ الثالثة والعشرين والذى هو فى مثل سن ابن لها .

حاولت الأرملة أن تنبه ابنتها . ولكن أم « أوجلا » التى رأت فيها غريمة وعدوة ، صارحتها بأنها هى تحب « جورج » ، وسخرت منها ، وعيرتها بكهولتها ، وهددتها بأن توغر عليها صدر الكهل الثرى فيقصيها عن بيته ونعمته ، ويردها فقيرة شريدة بدون رحمة . فكظمت الأم غيظها ، وازدادت تخبطاً ويأساً وحنقاً .

بيد أن هذا كله لم يغب عن فطنة الجدة العجوز ذات العين الثاقبة ، فقد كانت تلاحظ وتراقب ، وتنعم النظر فى الأرملة العاشقة وفى مسلك حفيدها المفتون ومسلك زوجة ابنها الجريئة المستهترة الجاحدة .

وكانت تشفق على ابنها الكهل ، وتعلم أنه مولع بامرأته الشابة ، وأنه يغار عليها غيرة شديدة ولابد أن يتحطم وقد يموت لو علم بخيانتها وخيانة ولده . فلما أبصرت « أوجلا » تسرف فى زيارة « جورج » ، وأيقنت من انقياد الشاب لها ، روعتها الخديعة المزدوجة ، فلم تتردد وذهبت إلى حفيدها .

ذهبت إلى « جورج » ناقمة ومستنكرة ، وأهابت به أن يثوب إلى رشده ، ويوقظ ضميره ، ويقدر فضل والده عليه ، ويربأ بنفسه عن التمادى فى أحط خيانة وأبشعها . ثم خيرته بين أمرين : إما أن يُلزم المرأة حدها ويوصد فى وجهها بابه ولا يتصل بها إلا على مرأى ومشهد من والده ، وإما أن يتزوج فتاة ميسورة من بنات الضاحية ثم يودع البيت ويرحل . فكبر على الشاب أن تقتحم هذه العجوز حياته ، أن تبدد حلمه ، وتخنق قلبه ، وتخمد النور الذى أشرق عليه بعد ظلام . فأقسم لها أن « أوجلا »

صديقة فقط . وأن ليس بينه وبينها أية علاقة أثيمة . فلم تصدق ، وتشبثت بما قالت . فجن جنون جورج وتوقح عليها . بل أهانها ، وقال إنه لن يتزوج أبداً ، وإنه مادام أبيض الصفحة نقي الضمير فهو لن يبرح البيت . فحدقت فيه العجوز تحديقاً ثابتاً ، وصرت على أسنانها وهي ترتجف ، ثم هزت رأسها متوعدة وحاقدة ، ولم تنطق بكلمة وانصرفت .

وكانت « أولجا » التي لم تلق بالاً ، لا إلى يقظة العجوز وما تحدثت به إلى « جورج » ، ولا إلى زوجها الغيور الذي بدأ يشك فيها ويستريب بحركاتها وسكناتها ، كانت « أولجا » التي غاظها من الشاب تحفظه وتمنعه ، توشك أن ترتاب في نفسها ، وفي سلطان جمالها ، وفي قدرتها على التغلب على الشاب . فثارت في النهاية ثائرة كبرها ؛ وعقدت العزم على أن تخضع « جورج » وتطوعه وتفوز به مهما كلفها الأمر من تبذل وترخص وتسليم متهافت وضيع .

وافتنت في إغرائه وإغوائه ، وراحت تنسل من مخدعها ليلاً وزوجها مستغرق في نومه ، وتنفذ بخطى متلصصة إلى غرفة أمها المجاورة لمخدعها كي تطمئن إلى أن الأرملة مستغرقة في النوم هي أيضاً ، ثم تركض حافية القدمين ، محلولة الشعر ، مبهورة الأنفاس ، وتدخل حجرة الشاب شبه متجردة ، ثم تترامى عليه ، وتحتضنه ، وتوسعه ضماً وتقبيلاً ، وهو يلهث ويرتعد ويكاد يهم بها . فيهوله ما سيفعل ، فيتصلب ويكافح ، ويصارع جسده وغريزته ، ويدفع المرأة عنه ، ويأمرها بالخروج ، وفي نفسه حسرة وضيق وكرب .

واشتد الحنق « بأولجا » ، وعز عليها أن تقبل فتمتهن ، وأن تتهافت فتحتقر . فترفعت بدورها وتمنعت ، وظلت أسبوعاً بطوله لا تتصل « بجورج » ولا تخاطبه . فغشى اليأس وجه الشاب ، وخيل إليه أنه قد فقدها . فتركته في حيرته يتلهف ويتعذب . ولما ألفته وقد برحت به الحيرة وأضناه العذاب ، على وشك أن يسقط سقوط الثمرة الناضجة ، لمع في

ذهنها خاطر شيطانى أملاه عليها استهتارها القاسى وجرأتها المتحدية .

أرادت أن يهدر الشاب كرامته مختاراً وطائعاً . أرادت أن يسعى هو إليها . أرادت أن تراه ذليلاً . وتراه فى الوقت نفسه قوياً وشجاعاً وجسوراً . فأسرعت فجأة إليه وقالت له إنه إذا كان حقاً رجلاً وحقاً يحبها ، فعليه أن يغامر ويتسلل من حجرته بعد منتصف الليلة القادمة ، ثم يغافل الخدم ، ويلاطف كلب الحراسة ، ويصعد إلى الردهة التى تفصل بين حجرة زوجها وبين مخدعها الخاص المقابل لمخدع أمها ، فتكون هى هناك فى انتظاره واثقة من حبه ، فخوراً بقوته وجسارته .

وابتسمت له ابتسامة واهية ومشجعة ، ثم أنذرته بأنه لو جبن وتراجع فستكرهه كرهاً أشد من كرهها للكهل قرينها . ثم اختفت وخلفته وقد اقشعر بدنه يرتطم فى لجة من الهلع والذعر .

هو ... هو يصعد إليها فى صميم الليل ، ويلقاها فى الردهة بالقرب من مخدعها ومخدع أمها ، وبالقرب أيضاً من حجرة والده ؟ ! ... يفعل هو ذلك ؟ ! .. محال .... لن يقدم على مثل هذه الخطوة أبداً ... ولكنه لو تراجع فسيفقدها إلى الأبد ... فهل فى مقدوره أن يحتمل منها أن تكرهه ، أن تحتقره ، أن تثأر منه يوماً بأن تعذبه أيضاً وتكيده وتضرم فى صدره النار وتتصل بشاب غريب ؟ ...

ونهشته الغيرة ، واحتوته الحيرة ، وأنهكه الصراع . فلم يطق ، وانزوى فى حجرته ، وجاشت فى صدره عوامل الكمد . فاختطف قلماً وورقاً ، وراح ينظم « لأوجلا » أبياتاً من الشعر يناشدها فيها أن ترحمه ، وترتفع بحبها وبه ، وتقهر بعواطف القلب مشتهيات الحسد ، بحيث تصبح أختاً لفكره وروحه لا يفصلها عنه سوى الموت .

بيد أنه لم يكد يتم قصيدته ويقرؤها ، حتى أحس أنها مجرد صرخات ، ساذجة صبيانية مشوشة ، لا يمكن أن تثير فى نفس المرأة أى عطف بل تبعث على الضحك والهزؤ والرثاء . فمزق القصيدة ، وارتد إلى حيرته ،

إلى مخباله . ولبث فى اليوم التالى مشتت العقل والحواس ، يرتعد فرقاً من مقدم الليل ، ومن الساعة الرهيبة التى يجب عليه فيها أن يعزم ويفصل ويختار .

كان يخشى لو أقدم وصعد إليها وانفرد بها أن يضعف ، أن تغدر به أعصابه وحواسه فتأخذه المرأة فى شرك محاسنها فيسقط ! ... ولكن لا ... أبداً ... لن يرتكب الجريمة أبداً ! .. لن ينتهك عرض والده الذى هو عرضه . لن يخون الرجل الذى أوجده وأنقذه ... ومع ذلك فهو لن يكون جباناً ... لن يكون فى عين المرأة مثار سخرية وازدراء ... سيذهب ... سيذلل كل عقبة ويصعد ... سيصعد إلى الردهة المرهوبة ثابتاً . فإذا ما أبصرته « أولجا » ، أثبت لها أنه رجل ، ثم كر راجعاً ولم يقربها ... وهكذا لا تحتقره حتى لو نبذته . فيظفر هو الأقل بتقديرها ، ويجد فى هذا التقدير أكبر العزاء والسلوى .

واستبد به زهو الرجولة مقروناً بكبر الشباب وسحر مواجهة الخطر . فحتم اعتداده على بصره . فانتظر إلى ما بعد منتصف الليل ثم خرج . خرج من حجرته وأنفاسه تتعاقب ، والعرق يتصبب على وجهه ، وأطرافه ترتعش ، مرهف السمع ، محملق العينين ، وئيد الخطى . ومر بجناح الخدم واطمأن إلى أنهم نيام . ثم اجتاز الحديقة ، ولاطف جهده كلب الحراسة ، ودنا من الباب الخارجى ، ثم التقط أنفاسه وصعد متجهاً نحو الردهة .

صعد فى الظلام بخطى حذرة خفيفة متلمسة . ولكنه توقف فجأة وارتبك . أحس أن الكلب يتبعه ، وذكر أنه لم يوصد خلفه الباب . فخاف أن ينفذ الكلب إلى الردهة وينبح . فاغتاظ وأراد أن يعود به إلى الحديقة ثم يغلق الباب . غير أن الكلب عانده وجثم على الأرض وأبى إلا أن يتبعه . فاهتاجت أعصابه بالرغم منه وركله . فنبح الكلب واشتد نباحه . فهلع

قلب « جورج » ؛ وتوقف لحظة ثم هبط الدرج وهم بأن يفر : ولكن الجدة التى كانت كمعظم العجائز لا تنام نوماً عميقاً ، تنبهت لنباح الكلب ، وأوجست ودبت فى نفسها الشكوك . فنهضت لفورها . وقبل أن ينسل « جورج » من الباب الخارجى ، كانت قد وثبت من غرفتها الكائنة على رأس جناح الخدم ، وعدت إلى الحديقة ، ووقفت تختلج وتحدق إلى الشاب بعينيها الحادتين الثاقبتين ، وهى تبسط ذراعيها لتجبره على أن يظل فى مكانه ولا يتحول عن الباب .

أما « أوبلحا » فقد ملكها الرعب وأسرعت من الردهة إلى مخدعها . وأما زوجها الكهل فقد خيل إليه أن لصاً قد نفذ إلى الحديقة . فانتزع مسدسه من تحت وسادته ، وانطلق من حجرته إلى الخارج تصحبه « أوبلحا » وهى ترتعد ، وتتبعها أمها التى كانت قد استيقظت مذهولة ومذعورة .

وما إن أبصر الكهل ولده واقفاً بالباب الخارجى المؤدى إلى حجرته وإلى حيث ترقد المرأتان ، وحوله العجوز ورهط الخدم وكلب الحراسة لا يكف عن النباح ، حتى احتقنت عيناه وامتقع وجهه . فصرف الخدم آمراً ، ثم صرخ فى ولده وهو يهدر : لماذا أنت هنا ... وفى مثل هذه الساعة ... ماذا تريد ، وماذا جئت تفعل ؟ ...

وأمسك به وجعل يهزه هزّاً عنيفاً ، ويقول وعينه المتوهجة تحوم حول الشاب وحول « أوبلحا » : لقد تبدلت منذ أيام ، وكنت أنا ألاحظك وأستهول ، ولا أريد أن أصدق ... فلمن سعيت إلى هنا ... لمن جئت ؟... إليها ؟ .. إلى امرأتى ؟ ... تكلم ...

وعندئذ تقدمت الجدة العجوز ، وصاحت بأعلى صوتها مشيرة إلى الأرملة كاترين : بل إليها هى ... إنه يحبها هى ... إنه عشيقها ! ... تكلم يا جورج ... قل الحق ولا تنكر ! ...

فأطرق الشاب إطراق المذنب المعترف . وبهتت الأرملة ولم تنطق

بكلمة . أما الكهل فقد وجم لحظة وظل يتفرس فى امرأته والشاب متشككاً ومرتاباً . فلكى يثق . لكى يصدق ، لكى يتخلص من غيرته ولا يتعذب ، قال وهو يغرس عينيه فى عينى ولده : إذن تزوجها ! .. تزوج كاترين وارحل ! .. تزوجها وخذ أى مبلغ شئت وارحل ... لو تزوجتها آمنت أنا بأنك جئت من أجلها وأنك رجل شريف .!

فأبرقت عينا الأرملة وهتفت : لا أحب إلى من أن أقترن بجورج !...

فرفع الشاب رأسه . وقال فى هدوء وهو يومئ بأصبعه إلى كاترين : أجل . هذه المرأة كانت عشيقتى ،وكنا نتواعد على اللقاء هنا فى مخدعها ... إنى أحبها . ولكنى لا أستطيع أن أتزوجها . وكيف أتزوج.أنا رجل لا مهنة لى ولا عمل . ألست أعيش اليوم من فضلك أنت يا أبى . هذا الفضل يجردنى من كل كرامة ورجولة فى عين نفسى . أريد أن أسترد كرامتى . أن أبنى مستقبلى بعرقى ودمى لا بمال يتفضل به على إنسان حتى ولو كان والدى . فسامحينى يا كترين ولا تحقدى على . إنى راحل . فالوداع !...

فاحترق قلب الأرملة العاشقة . ولم تستطع أن تتصور أنها كانت لابنتها كبش فداء . فحجبت وجهها بيديها إخفاء لهزيمتها وبكت . أما « جورج » فقد اندفع نحو حجرته كمجنون ، وانتزع من خزانته الصغيرة بضع أوراق مالية كان قد ادخرها ، ثم جمع طائفة من كتبه ، وخرج إلى الحديقة ، واتجه نحو غرفة البواب ، وجعل يبحث عن جعبته وقبعته وعصاه حتى عثر عليها . فنضا عنه ثوب الجاه والعز ، وارتدى ثوبه المهلهل العتيق . ثم دس الكتب فى الجعبة ، ثم حمل الجعبة على ظهره ، وغادر القصر بخطى ملهوفة محمومة ، « وكاترين » تتبعه النظر بعينين متقرحتين مخبولتين ، و « أولجا » تعض على شفتيها محنقة ومقهورة ، والجدة العجوز تنتصب قامتها وتتجمد كتمثال . والكهل ، وقد هفا قلبه إلى ولده ، يريد أن يصرخ ويناديه . فيعاوده القلق والشك والارتياب ، فيتراجع ويصمت ، ويؤثر أن يتخلص ويهدأ ويستريح ...

ومن لوعة « جورج » على فراق محبوبته . ومن حسرته على انهيار حلمه الطاهر ؛ ومن سخطه على نفسه لأنه أحب امرأة محرمة عليه : ومن ثورته على المرأة التى أبت أن ترتفع بالحب وأصرت على أن تهوى به إلى الشهوة والجريمة ، تفجرت ينابيع وحيه ؛ وغمرت وجدانه وخياله . فوضع ديوانه الأول « بعد العاصفة » الذى صور فيه مأساته . فجاء الديوان عملاً أدبياً رائعاً رفع ذكره ؛ وبدل فجأة من حظه ؛ وأنقذه من ذله وبؤسه ، وأدرجه فى عداد شعراء ألمانيا النابغين .

مارت فلورى

أو

تفوق بعد تضحية

« بعد أن أصدرت الأديبة الفرنسية « مارت فلورى » عدة مؤلفات فى التاريخ والفلسفة . وضعت قصة فذة بعنوان « الأيام والليالى » صورت فيها حياتها وما مر بها من أحداث عنيفة وقاسية . وكيف تغلبت عليها حتى استطاعت أن تؤكد شخصيتها وتحقق أحلامها .

وهذه خلاصة القصة » .

* * *

قالت مارت فلورى :

نشأت فى تلك القرية النائية يتيمة الأبوين ، أحوج ما أكون إلى الرحمة ، وأظمأ ما أكون إلى الحب والحنان . كنت أعيش فى بيت عمى الذى كفلنى . أرعى مواشيه وأخدم أولاده . ولكن زوجته كانت تكرهنى . وتوغر صدر عمى حقداً علىّ ، ولا تفتأ تنهرنى وتضربنى وتحملنى من الأعمال ما لا طاقة لى به . ومع ذلك فقد كنت قانعة وراضية أصبر على عذابى ، وأتجه بلوعتى إلى ربى ، وأستمد من إيمانى العميق ما أنا فى حاجة إليه من قوة وثبات . وكان مايعزينى فوق إيمانى ، هو ولعى الشديد بمطالعة القصص ودواوين الشعر وكتب التاريخ . فكنت أسهر الليل فى غرفتى ، وأوقد شمعة صغيرة ، وأظل أقرأ حتى تذوب الشمعة ويكل بصرى . ولم أكن قد تلقيت غير قشور من العلم على يد قسيس القرية .

ولكنى كنت نزاعة إلى المعرفة بطبعى . تواقة إلى التثقف بفطرتى ، لا أجد السعادة الحقيقية إلا فى المطالعة والتأمل والتفكير . وهذا بالذات هو الذى ضاعف استبداد زوجة عمى بى ، وأطلق حقدها الغاشم علىّ .

كانت تريد أن أنقطع بكليتى لرعاية الماشية وأعمال البيت . فلما رأتنى أنفق جزءاً كبيراً من وقتى فى السهر والمطالعة ، اقتحمت غرفتى

ذات مساء ، وضربتنى ضرباً مبرحاً . ومزقت كتبى الثمينة ثم أحرقتها أمام عينى .

هذا المسلك الجائر أثارنى ألف مرة أكثر مما كان يثيرنى الضرب والإذلال والتحقير . فتركت البيت ، وخرجت هائمة على وجهى ؛ ومضيت أضرب فى شوارع القرية حتى قادتنى قدماى بالرغم منى إلى منزل أرملة مهيبة وجليلة تدعى « مدام فونتان » كانت قد عطفت علىّ يوماً وأمدتنى ببعض النقود واشترت لى كتاباً فى التاريخ كنت أتلهف على قراءته . . . وقصصت على السيدة قصتى ؛ فروعها مبلغ عذابى . فأسرعت وعرضت على أن أعمل مدبرة لبيتها . فقبلت متحدية زوجة عمى التى لم تستطع لا بجبروتها ولا بمساعدة قرينها أن تعتدى على حريتى لأنى كنت قد بلغت إذ ذاك سن الرشد .

ودخلت بيت مدام فونتان ، فوجدت فيه ما لم أكن قد حلمت به عمرى . وجدت حسن المعاملة ولطف المعاشرة وسخاء اليد والقلب . بل وجدت فى المرأة التى أنقذتنى حنان الأم والأب . فأخلصت لها من أعماق قلبى ، وتفانيت فى خدمة بيتها . فتعلقت هى أيضاً بى ، وعاملتنى كأنى ابنتها . فشعرت بمتعة الراحة والأمن والاستقرار . ومضيت أقتطع جزءاً من مرتبى وأبتاع به شتى الكتب فى التاريخ والاجتماع والفلسفة ، ثم أعكف بعد العمل فى الليل على مطالعتها والتأمل فيها ، كى أستخلص منها مادة الأعمال التاريخية والفلسفية التى كانت هى مثار آمالى وأحلامى والتى كنت أفكر فى وضعها .

وطربت بحياتى هذه وانتشيت . بيد أن القدر الذى كنت قد أفلت منه أبى إلا أن يتعقبنى .

كنت أعيش فى بيت الأرملة وبالقرب منى ولداها الشابان « هنرى » و « روبير » . . . وكنت ويعلم الله لا أنظر إلى أحد منهما نظرة نابية ، ولا أفكر لحظة فى أن أبدو أمامهما جميلة ، أو خليعة ، أو حتى خفيفة

الروح . كنت أرقب ذاتى ، وأحرص على تحفظى ، وألزم حد الجد فى عملى وقولى . وأردد فى نفسى على الدوام أنى لست سوى خادمة .

ومع ذلك فقد أحبنى روبير . أحبنى الإبن الأصغر الرائع الجمال حباً أذهلنى وارتعدت له فرائصى . ففكرت فى أن أغامر بكل ما ظفرت به وأهجر البيت . ولكن روبير استشعر نيتى . فتسلل إلى حجرتى ذات ليلة ، وكاشفنى بحبه . وعاهدنى على الزواج . وطفق يبكى بكاء حاراً وهو يتوسل إلىّ ويلتمس منى أن أبقى . . . وكان برغم تهافته وضعفه وبكائه ، عنيفاً فى حبه ، متقداً فى عواطفه ، ثابتاً وعنيداً فى قوة إرادته ، فلم أدر ماذا أصابنى حياله ، وانجذبت إليه . . . تداعت فجأة عزيمتى ، وشعرت أن هذا الشاب قد أصبح كل حياتى . فوعدته بأن أبقى فى بيته وأنا أتوسل إليه أن يترك حجرتى ويمضى . فانحنى على يدى وأوسعها تقبيلا ثم انصرف وهو يقسم لى أنى الفتاة الوحيدة التى أحبها وأنه لابد أن يذلل كل عقبة ويتزوجنى . . .

ولم يكد يخرج وأرتد أنا إلى فراشى وأفكر فى هذه العاطفة الطارئة الجارفة التى احتوتنى ، حتى سمعت تحت نافذة حجرتى المطلة على الحديقة اصطفاق أغصان ووقع أقدام . فهلع قلبى وأسرعت إلى النافذة وحدقت . فلمحت فى ضوء القمر شبحاً يخترق أشجار الحديقة ، ما إن تبينته حتى عرفت فيه الأخ الأكبر هنرى . فجمد الدم فى عروقى وتسهدت الليل كله ولم أذق طعم النوم .

ولما أصبح الصباح والتقيت بهنرى ، أبصرته ينظر إلى نظرة ملؤها الأسى الغامر ، والألم الممزق ، والعتاب العميق . فأدركت وأنفاسى المتقطعة تهب كالنار على وجهى ، أن هنرى كان يراقبنى ، وكان يتجسس على أخيه ، وكان وما يزال هو الآخر يحبنى !

تفرست فيه وغشى الدم بصرى . كان هنرى أقرب إلى الدمامة منه إلى الجمال ، وكانت قد بترت ذراعه اليمنى عقب حادث سيارة . فكنت

أشفق عليه وأنا أنفر من عاهته . وكان نفورى هذا يجذبنى من حيث لا أعلم إلى أخيه القوى الجميل روبير . فلما أحسست وأيقنت أنه هو أيضاً فى حبه لى ثابت كشقيقه . وأنى لا بد أن ألقى بذور البغض والحقد يوماً بين الأخوين . ولا بد أن أتعس المرأة النبيلة التى آوتنى وأنقذتنى . هالنى موقفى . واستنكرت أن أكون خائنة وجاحدة ومثيرة لشر الفتن والمنازعات . فجاهدت ما استطعت حتى كبحت حبى لروبير واستهضت ميت إرادتى . وأجبرت عقلى وعواطفى على التسليم بضرورة الرحيل . وفى اليوم نفسه . فى اليوم الذى أضمرت فيه أن أرحل ، عاد القدر الغاشم وأنشب مخالبه فى عنقى .

أعلنت الحرب العالمية الثانية . وجند روبير وسافر لتأدية واجبه العسكرى . أما هنرى فقد أعفى من الخدمة لعاهته وضعفه وبقى فى البيت . وأما أنا فقد تمزقت حياتى . خفت أن يموت حبيبى فى ميدان القتال . خفت أن أعيش بجوار من أنفر منه وهو يحبنى . خفت أن أترك عملى فلا أجد غيره فى قرية تشيع فيها الحرب ويلاتها وتدب فى أنحائها الفوضى . فبقيت فى البيت مكرهة وصاغرة ، وعشت وجهاً لوجه تجاه هنرى وكان هنرى بعكس شقيقه يحبنى حباً ملؤه الرقة والدماثة والطاعة والامتثال . كانت رغباتى عنده أوامر ، بل كان شخصى فى نظره مثلا أعلى . كان يعبدنى ويرتجف كالطفل إذ يقع بصره على ، ولا يستطيع أن يتصور وهو المشوه الدميم أنه قد يظفر يوماً بى . فكنت أراه يطوف بالبيت كالروح الحائر . فأتبعه النظر شاردة وملتاعة ، وذكرى شقيقه تحتل عقلى وخيالى ، ولا أعرف كيف أسكن روعه وأطيب خاطره وأمنحه ولو بكلمة رقيقة بعض العزاء . . . واستبد به الحب واليأس ، فشحب وجهه ، وغارت تقاطيعه ، ودب فى بدنه الهزال . فهلع قلب أمه ، واستشعرت دخيلة نفسه ، وتحيرت بينه وبينى ، ولم تعد تدرى أيجب عليها أن تصرفنى فتشقى ابنها أم تبقينى فتشقيه أيضاً ، يقيناً منها بأنى أنفر منه وأنى من

المحال أن أرضى به يوماً زوجاً لى . . . وكانت لا تعرف شيئاً عن علاقتى بروبير ، بل لا تعرف أنى مثلها أتلقى منه رسائل يبعث بها إلى من ميدان القتال ولكن عن طريق صديقة وفية لى . فكانت رحمة بابنها المشوه المسكين ، تحاول أن تقربنى إليه ، وتحببنى فيه ، قائلة لى والدمع ينهمر من عينيها ، إنها لو فقدت فى هذه الحرب ولدها الأصغر ثم عجزت فوق ذلك عن إسعاد شقيقه فهى لا بد أن تموت هماً وكمداً وحسرة . . . وكنت أنا أفهم كلامها وأفكر فى روبير ، وأنظر إلى ابنها الدميم وأحلم بروبير ، وأبتسم وأضحك فى قرارة نفسى وأنا انتظر متجلدة عودة روبير . ولكن روبير لم يعد . . .

تعاقبت الأيام والليالى ، وتعاقب الأسابيع والأشهر وروبير لم يعد . ثم انقطعت فجأة رسائله ، وصرح عمدة القرية بأنه لا يعرف شيئاً عنه ثم أعلن اسمه فى قائمة المفقودين . فتاه عقلى ، واختبلت ، أما الأم المنكودة فقد أصيبت بضرب من الهمود العصبى أحالها شبه طيف فى هيكل إنسان . . . وانقضت أشهر أخرى ولم يعد روبير . فتأكدنا جميعاً أنه قتل ، وتبدلت شيئاً فشيئاً حياتنا .

أحسست أنا برغم اللوعة التى كانت تنهش صدرى ، أن ليس فى مقدورى أن أترك هذا البيت ، وليس فى مقدورى أن أعيش بلا عاطفة ، وليس فى مقدورى أن أجهز على المرأة التى أنقذتنى . . . فأجبتها إلى رغبتها ، وأسلست قياد روحى لابنها المشوه الدميم ، وارتضيت أن أتزوجه لطيبته ولكى أسعده وأسعد أمه المنكودة التى فقدت ابنها الأصغر القوى الجميل .

وتم بالفعل زواجنا . . . ثم رواجنا بين غارات الحلفاء ، ودوى صفارات الإنذار ، وتدفق بعض فرق النازى التى اجتاحت قريتنا وعسكرت فيها . فشعرت أنا ومحنة بلادى تمزقنى أنى أكاد أكره نفسى

وزوجى . ولكنى امتثلت لحكم الله، وحنيت رأسى ، وارتضيت بحظى .
وفجأة وقع مالم يكن فى حسبانى أبداً .
عاد روبير ! . . . كان قد أسره النازى فى إحدى المقاطعات ثم أطلقوا سراحه بالرغم منهم عندما انسحبوا تحت ضغط الحلفاء . فلم يكد روبير يدخل البيت ويبصرنى ، ويعلم أنى قد تزوجت شقيقه ؛ حتى أومض فى عينيه ذلك البريق الوحشى الذى كان قد خلبنى منه بالأمس والذى لمست فيه ماظل يشتعل من حب تشوبه الآن مرارة السخط والبغض .

وهنأنى روبير على زواجى . ولكنى كنت أشعر أنه تائه عن رشده ، غائب عن وعيه، متبرم بفرحة أمه، ثائر ثورة عارمة ومكبوحة على أخيه المتهلل المطمئن السعيد . فاقشعر بدنى حيال ثورته وبغضه ودب فى قلبى الذعر وخفت منه على زوجى . أجل — كنت ماأزال أحب روبير ولكنى كنت أشفق أيضاً على زوجى . كنت لا أريد أن يصاب زوجى بسوء. كنت واثقة كل الثقة من أن روبير لا بد أن يتحين الفرص كى يصيب شقيقه بأفجع سوء وأفظعه . ولقد تحقق ظنى بعد أيام : تحقق ظنى فى تلك الليلة التى لن أنساها ما حييت . كنت أطالع بقرب النافذة . وكان زوجى يهبط من كن الدجاج . فأبصرته يفزع وينتفض تحت وقع طلق نارى سُدد إليه وأخطأه . فأسرعت أنا إليه كمعتوهة وأقبل هو على معتقداً أن لصاً قد تسلل إلى حديقة البيت. ولكننا بعد أن تجولنا فى الحديقة كلها ، وفتشنا جميع غرف البيت ، لم نعثر على إنسان غريب بل اصطدمنا بروبير وهو يخرج من حجرته جاحظ العينين فاغر الفم ، مشعث الشعر ، يحاول أن يخفى اضطرابه جهده ، ويمثل دور المروع المستغرب المذهول . . . ولم يفطن شقيقه إلى شىء ، أما أنا فقد أدركت وتأكدت . فلما جاء اليوم التالى غافلت زوجى وأمه واتصلت بروبير واتهمته . فلم يتنصل ولم ينكر ، بل اعترف لى بأنه هو الذى أطلق النار ،

وأنه إذا كان قد أخطأ بالأمس شقيقه فهو لا بد أن يصيبه فى غد ويقتله ويأخذنى . فارتعدت ، وحاولت أن أبصر روبير . حاولت أن أحنن قلبه . حاولت أن أوقظ ضميره . بيد أنه ألقى على نظرة عابرة وحاقدة وانصرف . فثار دمى كله ، وانجابت السحب عن ذهنى وصحوت . . . أدركت أنى لو بقيت فى هذا البيت فسأكون أنا السبب فى قتل زوجى ، وفى شقاء أمه التى لا بد أن تموت فى النهاية حزناً عليه . ولكنى كنت ما أزال أحب روبير . فنشب فى نفسى الصراع بين واجبى وحبى ، وصراع آخر بين حياتى الخاوية الفاشلة وبين ماكنت أحلم به من إبداع أعمال أدبية عظيمة تخلد اسمى . فرزحت تحت وطأة هذا الصراع المزدوج ، وأردت أن أموت ، أن أودع مطامعى وأحلامى ، أن أنتحر كى أمنع روبير من قتل زوجى . ولكنى جبنت . لم أستطع أن أقضى على نفسى بنفسى . فماذا فعلت ؟ . . .

فكرت أولاً فى تحقيق حلمى ، فى تأدية رسالتى . فقهرت عوامل الفزع والرعب التى كانت مستبدة بى ، وأخضعت عقلى لسلطان إرادتى ومضيت أكتب حتى أنجزت كتابى الأول « تاريخ العصر الوسيط » وسلمته إلى زوجى وأوصيته بالحرص عليه حتى تنتهى الحرب ويصبح فى وسعه أن يطبعه .

وكان يجب بعد ذلك أن أرحل . كان يجب أن أختفى . كان يجب أن أموت . فاضطرمت فى ذهنى تلك الفكرة الخارقة التى كانت قد ملكت على حواسى وتصورى . فلم أتردد . وما إن جن الليل وإستغرق زوجى فى سباته ، حتى نهضت أنا وسرقت مسدسه من درج مكتبه ، ثم اندفعت إلى أقصى قريتنا ، إلى حيث المعسكر الذى كان يرابط فيه جنود النازى ، ثم اقتحمت المعسكر والمسدس فى يدى ، وأردت أن أقتل واحداً منهم كى يقتلنى الآخرون . فأكون قد تخلصت من حياتى وأديت فى الوقت نفسه واجبى نحو وطنى ورسالتى . ولكن حرس المعسكر غافلونى

وقبضوا علىّ ، وجردونى من سلاحى ؛ وبدل أن يقتلونى عاقبونى بما هو أشد هولاً من الموت . عاقبونى بأن أرسلوا بى إلى أحد معسكرات الاعتقال فى ألمانيا . وهناك مكثت عامين قاسيت فيهما عذاب العمل المرهق ، وعذاب الجوع الساحق ، وعذاب الضعف والمرض والإذلال . فغارت عيناى ، وتقوس صدرى ، وابيض شعرى ، وهزل بدنى واستحال إلى كومة من العظام ، ولما انتهت الحرب وأطلق الحلفاء سراحى ؛ لم أجد بداً من العودة إلى قريتنا ، إلى بيتى ، فعدت . . . عدت بدون أن أشعر بأى إضطراب أو قلق أو خوف . كنت واثقة من أن روبير لن يتشبث بى ، وأنه حتى ولو كان مايزال ثابتاً على حبى ، فهو لا بد أن يعافنى . لابد أن يشمئز منى ، لا بد أن يتجه إلى القوة والصحة والشباب ممثلة فى امرأة غيرى . . . وكان هو أول من التقيت به عند مدخل القرية وفى صحبة فتاة . . . فحييته فلم يعرفنى . ثم عرفنى وصرخ . ثم أطرق مبهوتاً ومنكمشاً وقدم إلىّ خطيبته وهو يتحاشى أن تقع عيناه على عينى . . . وعندما دخلت البيت ملهوفة وناديت هنرى ، أطلق زوجى صيحة فرح مدوية إذ سمع صوتى وارتمى علىّ يعانقنى والدمع يسيل من عينيه ، وأمه من خلفه تهتف وتهلل وتبكى . فنظرت إلى الرجل ، إلى الرجل المشوه الدميم الذى أنقذت حياته بتضحيتى ، فلم أره مشوهاً ولا دميماً بل شعرت أنه هو وحده الذى بقى لى ، وأنى أحبه على قدر ما تعذبت من أجله . فأخذته بين أحضانى ، وقبلته ، قبلته طويلاً وشاع فى نفسى فرح ساكن قرير .

وفى نشوة هذا الفرح عشنا أياماً وأشهراً خالسنا فيها نعيماً لم يخطر لنا أبداً ببال . ولكن هذا النعيم لم ينقع غلتى . خفت أن يجتاحنى ويطغى فىّ على دعوة رسالتى . فأردت أن أجمع بينه وبين حلمى ، أن أثأر بالعمل الأدبى لكل ما تحملت من عذاب . فاندفعت ومضيت أفكر وأكتب حتى وضعت المؤلفين اللذين قوبلا من النقاد بأصدق عبارات

الاعجاب والتقدير . وهما « فلسفة ابن رشد » و « تاريخ الأديان » :

وهكذا غالبنى الحظ ، فأفلت من مخالبه ثم غلبته . وهأنذا أمرح فى كنف زوجى ، زوجى الذى أردت أن أموت لأنقذه ، فكان هو الذى أحيانى اليوم بعد عذابى ، وهو الذى مد إلىّ يده الرحيمة وأنقذنى .

روبرت شومان

أو

عبقري يهذب امرأة

« كان الموسيقى الألمانى العبقرى روبير شومان قد أحب الفتاة الحسناء كلارا . وكان قد عزّ عليه أن يلمس فى أخلاقها جوانب نقص بارزة . فأراد أن ينبهها إليها إبقاء على حبه لها . فكتب هذه الرسالة البديعة ، وبعث بها إلى الفتاة » .

يقولون إن الحب أعمى ، ولكن حبى أنا بصير ياحبيبتى وا أسفاه ! . . والواقع الذى لا شك فيه أن الإنسان الذى اتسعت آفاق ثقافته ، وخبر الحياة ، وذاق حلوها ومرها ، لا يستطيع أن يندفع فى تيار الحب معصوب العينين ، ذاهلاً تائهاً مشدوهاً ، جاهلاً شخصية المرأة التى يحب ! . . إن ثقافته تؤثر فيه من حيث لا يدرى ، وتسوقه بالرغم منه إلى ملاحظة حبيبته ، وإنعام النظر فيها ، ودراسة أخلاقها وطباعها ، والنفاذ إلى أعمق الأغوار التى ترقد فى أطوائها حقيقة شخصيتها .

ولقد كانت مأساتى فى علاقتى بك أنى لم أكن أعمى ، وأنى عرفتك حق المعرفة ، واكتنهت سر طبيعتك ومزقت الأقنعة عن جوهر نفسك ، ورأيتك أمامى مجردة من كل زخرف ، عارية من كل طلاء .

فهذه الحقيقة التى استكشفتها فى خلقك بعد عناء طويل ، هى التى تقلقنى اليوم وتعذبنى ، وهى التى توشك أن تخمد نار حبى ، وتجعل من شعلته المتوهجة كومة من رماد .

والحق أنه قد أصبح من المحال علىّ أن أحبك على علاتك ، وأرضى بالنزول على حكم طبيعتك ، وأسلس قياد فكرى وروحى لغرائزك التى أصبحت أنفر منها ، ولخلالك الفاسدة التى لم أعد أملك أية قوة على إحتمالها .

إنى معك الآن فى مفترق الطرق . . فحبى المتنبه المتيقظ يريد أن يبدل طبعك ، ويغير نفسك ، ويصوغ منك امرأة جديدة . فإذا

طاوعتني ، وأذعنت لى ، وصدعت بأمرى ارتد حبك الأول إلى فؤادى ، وضاعفت طاعتك اضطرامه وقوته ؛ أما إذا أبيت الإصغاء إلىّ ، وأبيت الاعتراف بنقائصك ، وتشبثت بتلك الخلال التى أبغضها والتى شوهت خيالك فى ذهنى وفى قلبى ، فمن المؤكد أن علاقتنا لا بدّ أن تفتر ، ولا بدّ أن تذبل ، ولا بد أن تحتضر فى النهاية وتموت .

والآن أرى لزاماً على أن أبصرك بحقيقة نفسك ، وأن أميط لك اللثام عن جوهر روحك ، وأن أصب ضوءاً ساطعاً على تلك الخلال التى لاحظتها فيك ، والتى يجب أن تطهرى نفسك منها إذا شئت لحبنا الحياة والنماء والازدهار . . . وأول تلك الخلال الفاسدة التى ينبغى أن أصارحك بها هى الكبرياء . . . فأنت فتاة متكبرة ، متكبرة فى حماقة ، متكبرة فى عناد ، متكبرة فى جنون ، وكبرياؤك هذه تملأ قلبك بالقسوة على نفسك ، وعلى الآخرين . . . فاحتقار الناس هو شعارك ، والاستبداد بالضعيف رجلاً كان أو امرأة — هو عندك التسلية النادرة والمتعة العميقة الكبرى . وليس من شك فى أن هذه الكبرياء الطائشة تولد فى فؤادك نشوة أمتع من نشوة الحب . حتى لقد خيل إلىّ فى بعض الأحيان ، أنك تؤثرين لذة الكبرياء على لذة الحب ، وتؤثرين أن يعجب الناس فى المجتمعات بتيهك ودلالك على أن يعجب بك الرجل الذى وهبك حبه وقلبه وحياته . . . على أن هذه الكبرياء بدل أن ترفع من شأنك فى عيون الناس تثير سخريتهم منك ، واستخفافهم بك ، وكراهيتهم لك . فأنت فى الواقع فريسة المجتمع لا سيدته . . . ولكن شخصيتك لفرط كبرها ، لا تستطيع أن تفهم أو تسمع أو ترى . . . فيجب أن تطهرى نفسك من لوثة الكبرياء أولاً ، ثم من لوثة البخل بعد ذلك . . أجل أنت بخيلة . . . بخيلة فى الماديات كما أنك بخيلة فى المعنويات . . . بخيلة فى نفقاتك كما أنت بخيلة فى عواطفك . . . أجل . إن ذهنك شبيه بذهن حسّاب ماهر . إن ذهنك المادى يتهالك على النقود كما يضن قلبك الجاف بالعواطف . .

فلا سخاء فى يدك ، ولا سماحة فى نفسك ، ولا رحابة فى فؤادك ، ولا آفاق حرة واسعة مترامية يمكن أن تسبح فيها روحك . فجوك الخانق هذا يخنق فكرى ، ويخمد انفعالاتى ، ويحفر هوة سحيقة بين قلبك وقلبى !

وإنى لأتساءل كيف يمكن لرجل مثلى أن يستوحى مادة جمال وفن من أرض صلبة وصحراء مقفرة ، وينبوع جاف ؟ ... إنى لأنشد الماء والرى والواحة الزاهرة الخضراء فلا أجد غير التربة القاحلة والمياه الآسنة ، والصخور الصماء ! . . . فانبذى البخل ياحبيبتى تنفتح أمامك أبواب الحياة وتشرق عليك شمس الهناءة ويفيض منك ينبوع العواطف ثم يرتد إليك صاخباً جارفاً مزبداً . ومتى كافحت فى نفسك رذيلة الكبرياء ورذيلة البخل ، أمكنك أن تكافحى رذيلتك الثالثة وهى الحسد .

لا تغضبى منى ، ولا تتبرمى بحديثى ، ولا تلوى بوجهك المقطب عنى ، فالمحب الصادق هو الذى يهذب أما المحب المنافق فهو الذى يداهن ويتملق ، نعم أنت امرأة حسود . . . الحسد فى طبعك ، والجشع فى قلبك والطمع فى دمك ! . . . كل امرأة جميلة ينهشها لسانك . كل امرأة غنية تأكلها نظراتك . كل امرأة سعيدة تفترسها غيرتك .

فما كل هذا ياحبيبتى ، وهل يجدر بامرأة مثلك متعلمة وذكية أن تنحدر إلى مثل هذه الرذائل التى تشوه جنسها ، وتحط من قدرها ، وتجعلها مضغة فى الأفواه .

إنى لأخجل لك ، وأشعر من فرط حبى أن المجتمع يؤاخذنى أنا على رذائلك ، ويعدنى مسئولاً عنها ، ويطالبنى بأن أقاوم وأكافح لأجعل منك امرأة جديرة بإنسانيتك وجديرة بى ! . . ولا ريب فى أنى أقاسى مر العذاب عندما أراك بعيدة عن حلمى ، عن حلمى المثالى الذى من أجله أحببتك ، والذى مازلت أومن أن فى وسعك تحقيقه بشىء يسير من اليقظة والإرادة وحسن النية :

والواقع أنك امرأة جميلة جمالاً يفتن الألباب . ولقد عشقتك لجمالك هذا ، ولكن كيف يمكن أن أعيش معك وأقضى الحياة بطولها فى صحبتك ، وأنا أرى شيطان كبريائك يمسخ هذا الجمال ، وشيطان بخلك يطعن هذا الحسن ، وشيطان حسدك يجهز على ما فيك من فنون الملاحة والسحر ؟ . . إن ذلك الشيطان المثلث اللعنة لا بدّ أن يسمم فى النهاية ينبوع روحى ، ويخنق ضوء حلمى ، ويقوض صرح غرامنا ، ويحيله فى يوم من الأيام إلى أطلال .

فارتفعى بوجدانك وبى . طهرى نفسك من تلك الرذائل وارحمينى : دعينى أفخر بك ، وأمعن فى قربك ، وأزهو على الناس جميعاً بصداقتك وحبك . ثم اعلمى أن الحب لا ينمو إلا فى ظل الكمال أو فى ظل السعى المطرد نحو الكمال ! . . . فالذى ينشد الكمال فى الأخلاق يستطيع أن يجد الثبات فى الحب ! . . . فانشدى هذا الكمال فى أخلاقك ينتعش حبك وحبى ، وإخلاصك وإخلاصى ، ويظل منتعشاً كلما ازددنا كمالاً ، وازددنا سمواً ، واقتربنا من تحقيق حلمنا الأعلى .

ففكرى الآن طويلا وتريثى . فكرى فى الجهاد الشاق الذى ينتظرك . . . فكرى فى الواجب المفروض عليك فى صراعك مع نفسك . ثم فكرى فى أيضاً . . . وإذا كنت حقاً تحبيننى فلن تتهيبى أى جهاد — بالغاً ما بلغ من مشقة — يمكنك من التسلط على ذاتك ، والسيطرة على غرائزك ، والاتجاه بفكرك وقلبك نحو ذلك المثل النبيل من الكمال الخلقى المنشود !

وإنى لأنتظر ردك ، فإذا لمست فيه رغبة صادقة فى التحول ، عدت إليك سعيداً بحبك ، معتزاً بوصل حياتى بحياتك . أما إذا شعرت بأن ليس فى مقدورك إلا أن تظلى متشبثة بأخلاقك ، مستمسكة بأهوائك وميولك ، فاعلمى أنى قد حزمت أمرى واستجمعت قوتى وعزمت أن أرحل كى لا أعود !

• • •

ولم ترد الفتاة على هذا الخطاب ، بل ذهبت من فورها إلى حبيبها ، وقطعت على نفسها عهداً مقدساً بتبديل أخلاقها ؛ فاقترن بها الموسيقى ، وظلت هى تكافح وتجاهد حتى استأصلت من نفسها رذائلها الثلاث ، وحققت فى شخصها حلم قرينها ، فسعد بها العبقرى ووجد فيها أخلص وأوفى الزوجات ؛

بـــــلزاك

أو

حب وجهاد وعذاب

طالع الرجل الخطاب وهو مذهول . لم يصدق أن هناك امرأة يمكن أن تفكر فيه على هذه الصورة ، ويمكن أن تكتب إليه بمثل هذا الأسلوب .

وكان الأسلوب متدفقاً حارًّا ، تضطرم فيه عاطفة محتجزة ، وتشع منه عبارات مجلجلة خالصة الحماسة والصدق فى الإعجاب والتقدير .

وكانت المرأة تقول إنها افتتنت بإحدى قصص الرجل ، وأن القصة ألهبت خيالها ، وأيقظت مشاعرها ، وهدتها إلى عالم رائع من الشعر الواقعى الحى لم تكن لتحلم بمثله أبداً .

وظل الرجل يتلو الخطاب وينعم النظر فى عباراته ، ثم يتأمل التوقيع فى سهوم وشرود وحنق .

لم توقع المرأة الخطاب باسمها بل ذيلته بثلاث كلمات فقط هى : « الأجنبية الروسية المعجبة » . فعاد الرجل يتفرس فى التوقيع وقلبه يخفق وبدنه يرتجف .

كان قد تسلم عشرات الرسائل من معجبات ، ولكنه لم يحس أبداً حيال أية رسالة نسوية بما يحس به الآن .

لقد بهرته فتنة العبارة ، وخلبته بلاغة الأسلوب ، وسلبت لبه حماسة الإعجاب والتقدير ، وزادت فى انجذابه تلك العاطفة الخفية المتغلغلة بين السطور ، والمقرونة بغموض شخصية المرأة وبسحرها البعيد المجهول .

وهز كتفيه وألقى بالرسالة جانباً وحاول أن يعمل وينسى . بيد أنه لم يكد يمضى فى كتابة قصته الجديدة ، حتى تاه فكره ، وتشوشت خواطره ، وعاد طيف المرأة الأجنبية وجثم أمامه . فنهض من فوره وجعل يذرع الغرفة وهو مكروب ، ثم جاشت بغتة عواطفه ، واستعر فضوله . فأسرع وكتب إلى رئيس تحرير جريدة فرنسية كانت تصدر فى روسيا ،

وطلب منه نشر إعلان صغير فى صحيفته .

وذيل الإعلان بالأحرف الأولى من اسمه : وطلب فيه إلى المرأة المجهولة أن تكشف له عن عنوانها كى يستطيع أن يراسلها .

وما إن ترك البيت وهبط الشارع وألقى بالخطاب فى صندوق البريد ، حتى تنفس ، وتألقت عيناه ، وانطلق يمشى فى شوارع باريس ، مفتح القلب ، مثلج الصدر ، خفيف الخطى ، كأنه كان على ثقة من نفسه ، وعلى ثقة من حظه ، وعلى ثقة من أن المرأة الساحرة الغريبة لابد أن تكشف له فى الغد عن شخصها ، ولابد أن تلبى نداءه وترد عليه .

وبالفعل جاءه منها خطاب آخر بعد أيام . فعرف أنها سيدة من أسرة عريقة ، وأن زوجها يكبرها بأكثر من عشرين سنة ، وأنه مخلوق فظ مستبد مدمن على الخمر ، يعذبها ويضربها ولا يهتم إلا بأرضه وضياعه وأملاكه الواسعة ، وأن اسمها هو الكونتيس « إيفلين هانسكا » ، وأنها تعيش فى مجاهل أوكرانيا ، وأن قلبها وعقلها وروحها وكل شىء فيها يهفو إلى رؤية الرجل العظيم الذى ألهب بقصصه كيانها وهداها إلى دنيا الشعر والعاطفة والهوى .

وأحس الرجل وهو يتلو الخطاب الثانى أن حلمه الأبدى فى العثور على امرأة مثالية قد يتحقق ، وأن هذه المرأة قد تكون هى التى ينشدها ؛ وأنها لو كانت فوق ذكائها الخارق وثقافتها الوافرة جميلة ، فالله يكون قد رضى عنه وأشفق عليه ومنحه وهو فى غمرة جهاده وعذابه ما يستحق من راحة وسعادة ونعيم . . .

ومضى يراسلها . فتم التعارف بينهما ، واستراح كل منهما إلى الآخر . فاشتد حبهما على مر الزمن ، واستحال إلى اندماج معنوى مطلق لا ينقصه غير اندماج الجسد كى يصبح حبًا إنسانيًا كاملا . وهكذا أحب الرجل بالفكر والخيال طيفاً ، وظل يحب الطيف أعواماً ،

ولا يطمع إلا فى أن يرى فى يوم من الأيام هذا الطيف حقيقة واقعة .

• • •

وكان هذا العاشق العظيم المفتون بامرأة لم يرها ، هو القصصى الفرنسى العبقرى « أونوريه دى بلزاك » . . . لم يكن قد عرف من الحب غير النزوة البدنية العابرة التى تكرب نفس المفكر وتذيقه بعد وقدة الشهوة طعم الرماد . وكان لفرط اشمئزازه من الغوانى وشدة حاجته إلى المال وتراكم الديون عليه ، يقبع فى حجرته ، ويرتدى جلباباً أشبه بمسوح راهب ، ويشتغل ثلاثة أرباع يومه وهو يجرع أقداحاً متعاقبة من القهوة ، ويكتب القصة تلو القصة ، عساه أن يفى ديونه ، وأن ينسى فى غمرة العمل حسرته على الحب والعاطفة والحياة .

فلما فاجأته العاطفة وهو يائس منها ومندفع فى الكتابة يريد أن يصور الطبيعة البشرية ويخلقها خلقاً ثانياً ويبدعها ، أحس أن المرأة المجهولة قد أشرقت على حياته . فتشبث بها ، وتلهف على شىء من الراحة بقربها ، وظل يتوسل إليها فى رسائله أن ترحمه وتقبل عليه ، حتى أجابته إلى سؤله ، فالتقى بها فى سويسرا عام ١٨٣٣ ، وحدق فيها ذاهلا مبهوتاً وارتجف :

أبصر امرأة رائعة الجمال ، ذات جبهة عالية ناصعة ، وشعر أسود غزير ، وعينين واسعتين رقيقتين ، ونظرة حالمة وسنانة ندية أشبه بواحة صغيرة تلمع فيها المياه وتتراقص الظلال .

واستوثق من أنها هى ضالته المنشودة وأمله المبتغى . فهام حبا بها ، وكذلك هى عشقته عشقاً عنيفاً مبرحاً مازجت فيه بين الحب والإعجاب ، ورصدت عليه كل حياتها . أخلصت للعبقرى إخلاص المرأة المضطهدة المحرومة التى تبحث عن حب واحد ، ورجل واحد ، والتى تهب نفسها بدون غرض ، ولا تطمع فى أكثر من أن يقابلها حبيبها ولاء بولاء وإخلاصاً بإخلاص .

ومكثا فى سويسرا بضعة أيام خالسا فيها النعيم ، ثم سافرت مدام « هانسكا » إلى بلادها ، ثم لج بها الشوق فالتمست هى من بلزاك أن تراه . فعادا والتقيا فى فينا حيث أبدع الروائى فى ضوء المرأة وتحت تأثير الوحى المستمد منها قصته الرائعة « أوجينى جراندية » .

وأحس الرجل المبدع الخلاق أن هذه المرأة هى حافزه ومثار قوته ، فازداد حبًا لها ، وتعلقاً بها ، ورغبة فى حيازتها بالزواج . فتأثرت بعمق عاطفته . ولكنها أبت أن تحطم حياة زوجها . فوعدت الروائى بأن تتزوجه لو شاء القدر وتوفى الكهل قرينها .

وامتثل بلزاك لمشيئتها على مضض ، وعادت هى إلى روسيا ، وكر هو راجعاً إلى باريس ، وملء نفسه الأمل فى أن يلقاها فى أوربا مرة ثانية .

وهنا بدأت المأساة .

أصيب زوج « الكونتس » بمرض عضال ألزمه فراشه . فاضطرت المرأة المنكوبة إلى المكوث بقربه ، والعناية بصحته عامين طويلين ، ولم تستطع إلا أن تراسل بلزاك وهى تحن إليه وتتمزق .

وكانت رسائلها فى تلك الفترة تفيض حبًا ، وتتقد إخلاصاً ، وتتلهب شوقاً ولوعة وحرقة . بيد أن بلزاك الذى كانت تصوراته قد امتلأت بها ، والذى كان يعيش ويعمل وهو مشرئب العقل والقلب إليها ، لم يطق بعدها الطويل عنه . فأحس أن حياته خاوية ، وروحه ظامئة ، ومرجل بدنه يغلى ويطلب المرأة . فعجز عن مغالبة نفسه ، وعجز عن كبح شهوته ، وخرج إلى المجتمعات الكبيرة ، واتصل بالسيدات المترفات وانجذب إلى واحدة منهن تدعى « الكونتس فيسكونتى » .

ولم يدر كيف انحط وتدهور وخان محبوبته . فأراد أن يبتعد . أراد أن يقاوم . أراد أن يحبس نفسه فى صومعة العمل ولو اختنق بين جدرانها ومات . ولكن جسد المرأة الثانية كان يفتنه ، بل كان يحوم حوله ويدعوه ،

فارتمى فى بؤرة الشهوة مكرهاً ، ثم أفلت منها عازماً ومقسماً ، ثم عاد إليها متهافتاً ومستخذياً ، ثم عز عليه أن يخرج من هذا الصراع مهزوماً . فحزم أمره ، واستنهض كرامته ، وقطع فى لحظة كل صلة له بالمرأة وابتعد .

ابتعد وندم وتاب ، ولكن بعد أن كانت مدام « هانسكا » قد عرفت بخيانته .

ترامى إليها نبأ الخيانة من إحدى صديقاتها فى باريس . فثار ثائرها ، وتفطر قلبها ، ونهشت صدرها الغيرة . فكتبت إلى بلزاك رسالة مريرة فى حسرتها ، قاسية فى صراحتها ، وحشية فى كبرها واعتزازها ، تبلغه فيها أنه لن يتلقى بعد الآن كلمة منها ، وأن كل شىء بينهما قد انتهى . . .

وعبثاً حاول الرجل أن يسترحمها . عبثاً حاول أن يقنعها بأنه قد تعذب بهفوة جسده وكفّر عنها . أبت أن تسمع ، وأبت أن تكتب ، وأبت أن تصدق أنه ما يزال يحبها ، وأن روحها هى ، وجسدها هى ، وفكرها هى ، وجميع محاسنها الحسية والمعنوية ما تفتأ تستبد به وتسيطر عليه .

وهكذا كفت عن مراسلته . فظل هو يكتب إليها . ولكنها ترفعت عليه ، وصدت عنه ، وثبتت فى موقفها سبع سنوات .

سبع سنوات لم يرها فيها بلزاك مرة واحدة . سبع سنوات لم تتفضل عليه فيها بكلمة واحدة . فأحس الرجل أنه بخيانته قد استحق هذا العقاب فلم يحقد ، ولم ييأس ، وظل يحب مدام « هانسكا » ويخلص لها ويكتب إليها ويعف عن النساء ويأمل فى رحمتها وعودتها وصفحها وهو يتمثلها ويصرخ فى وحدته كمعتوه .

وفى لجة هذا السعير من اللهفة والقلق ، والأمل واليأس ، والتخبط والعذاب ، انطلق العبقرى يكتب ، مغالباً عذابه ، مضحياً بنفسه ، منتقماً من ذاته ، مكفراً عن خيانته بالعمل المتواصل المرهق الشاق ،

فوضع فى تلك السنوات السبع أكثر من ثلاثين قصة كبيرة . فاستفاضت شهرته . ولكن صحته كانت قد اعتلت ، وبدأت الأمراض تهاجمه ، فيئس كل اليأس من عودة حبيبته إليه ، وفكر فى أن يكف عن الكتابة ويدخل أحد المصحات .

وعندئذ تسلم من مدام « هانسكا » خطاباً أنبأته فيه أن زوجها قد توفى . فأخذته من فرط الدهشة والأمل فرحة مخبولة ، وكاد أن يغشى عليه . أيقن وهو يقرأ الرسالة الأولى التى تلقاها بعد سبع سنوات صارع فيها الصبر والحرمان والعذاب ، أن المرأة ماتزال تحبه وأنها قد غفرت له جريمته ، وأنها ما دامت قد كتبت إليه اليوم وهى حرة ، فهى إذن تريده ، وهى إذن تطلبه ، وهى إذن تود أن تصل حياتها بحياته . . . فأسرع وأفضى إليها فى خطاب رائع بكل ما قاساه وهو بعيد عنها ، ثم عرض عليها الزواج ، وسافر إلى بطرسبرج والتقى بها ... وكانت المرأة قد اكتهلت ووخط الشيب شعرها ، وكان هو قد اكتهل أيضاً ، وشحب وجهه ، وضمرت تقاطيعه ، وأنهكته أمراض المعدة والقلب . ولكنه لم يشعر بما طرأ على المرأة من تحول ، وكذلك هى لم تشعر بما بدا عليه من إنهاك . رأى كل منهما الآخر بعين قلبه وشبابه . فاستفاق حبهما وانبعث فى مثل لمح الطرف جارفاً عاتياً كما كان . بيد أن المرأة ظلت مترددة وقلقة . تهيبت الزواج بحبيبها لأن غريمتها « الكونتس دى فيسكونتى » كانت تعيش على مقربة منه فى باريس . فانخلع قلب بلزاك ، وأقسم لحبيبته أنه قد قطع كل صلة له بتلك السيدة ، وأنه قد عف عن النساء جميعاً ولم يعرف طوال تلك السنوات السبع أية امرأة ، ومع ذلك فالطمأنينة لم تحل فى نفس مدام « هانسكا » إلا بعد أن شاء القدر وهجرت غريمتها فجأة باريس واستقرت هى وأهلها فى إيطاليا ، وإذ ذاك أطلقت المرأة العنان لحبها ، ووثقت كل الثقة فى حبيبها ، ووعدته بالزواج راضية ومختارة ، على أن تسافر قبل ذلك إلى بلادها ،

وتؤدى ما عليها من واجب مقدس نحو ابنتها :

وسافرت والعزم يحتويها ، وإرادة السعادة بعد طول العذاب تحثها وتدفعها . فزوجت ابنتها ، ونزلت لها عن الضياع والأملاك التى ورثتها عن زوجها ، واكتفت بأن ضمنت لنفسها دخلا شهريًا ثابتاً . ثم عادت إلى باريس وملء صدرها اللهفة على تحقيق حلمها . . . ولكنها ما إن دخلت بيت بلزاك ، ما إن وقعت عينها عليه ، حتى ارتعدت فرائصها ، وأصابها من فرط الرعب سهوم وذهول . . . أبصرت رجلا متداعياً هرماً حطمه جهده الخارق فى العمل والإنتاج . رجلا أصفر الوجه ، غائر القسمات ، حسير البصر ، يجر نفسه إليها جرًا ، ويتحسس طريقه نحوها فى لوعة وأسى ، باكياً على نفسه ، ثائراً على حظه ، يصرخ ويردد بأن جسده الجبار قد تقوض ، وبصره الوضاء قد تلبد ، ولم يعد فى وسعه أن يقرأ ويكتب ويبدع للناس أيضاً أروع الأعمال . .

وتجاه هذا المشهد الفاجع ، تجاه الرجل الصلب المكافح الذى غاض جماله ، وانطفأ سحره ، واستحال فجأة إلى هيكل عظمى ، لم تتبدل المرأة . لم تتراجع . لم يخالجها أى إحساس وضيع فيه شبهة من تردد أو نفور أو اشمئزاز . بل اضطرم حبها ، واشتعل حنانها ، وتمزق قلبها شفقة ورحمة . فمدت ذراعيها ، واحتضنت الرجل المريض ، وقالت له وهى تضمه ضمًا عنيفاً إنها ملكه هو وحده ، وإنها لن تتخلى أبداً عنه ، وإنه كان وسيظل حبيبها ، وسيد جسدها وروحها ، وشريكها فى الحياة حتى تلفظ النفس الأخير .

وتزوجته ، وخدمته ، وبذلت المستحيل كى ترد إليه وقدة الصحة والنشاط والفرح . ولكن العبقرى المسكين كان قد استنفد الصراع قواه فكان يكافح ويغالب ويأمل على غير جدوى . فلم يعش مع حبيبته غير خمسة أشهر . . . خمسة أشهر فقط ثم مات بين ذراعيها وهو يقبلها ، ويلثم يديها ، ويبتسم برغم حسرته ، ويشكر الله ! . .

لرمنتوف

أو

الكبرياء القاتلة

« يعتبر لرمنتوف من أعظم شعراء روسيا فى القرن الماضى ؛ وقد استمد شعره من أغانى القوقاز ، ودعى بحق شاعر القوقاز الخالد .

وهذه قصة المأساة التى كان لها أبلغ الأثر فى حياته والتى سجلها الشاعر نفسه فى مذكراته » .

قال لرمنتوف :

لم أكن ميالا إلى الحب العاطفى كغيرى من الشبان ؛ بل كنت مادى النزعة ، حسى الرغبة ، أمزج فى الغرام الجد بالهزل ، وأضحك وأمرح وأستمتع .

كنت شديد الكبرياء ، يملؤنى الزهو والترفع ، وتضاعف انتصاراتى الغرامية اعتدادى بنفسى ، واعتزازى بقوتى ، ورغبتى الدائمة فى التقلب والتلون وعدم الاستقرار .

ومن غريب أطوارى ، أنى كنت أنظم قصائد الحب بدون أن أعرف الحب . كنت أنظم قصائد الحب متخيلاً أحلام المحبين ، متصوراً آلامهم وأفراحهم ، مأخوذاً بتجربة هذه الآلام والأفراح بدون أن أحس بها ، مكتفياً برسمها عن طريق الوهم الشعرى المجرد والنظم الصناعى الرخيص .

وهكذا كنت أمثل الحب وأعبث بالقلوب وأقسو على العذارى ، وأردهن خائبات حانقات يائسات ، حتى التقيت لأول مرة بالراقصة الفنانة النابغة « سونيا يوروبوف » . وعندئذ تغيرت حياتى ، وتبدلت شخصيتى ، وأوشكت ، قبل أن تستيقظ مواهبى ، أن أفقد عقلى وأجن !

تعرفت إلى سونيا فى حفل عائلى كبير . فراعنى منها شعرها الأسود المموج ، وثناياها البيضاء الساطعة ، ولون بشرتها الشمعى الضارب إلى الصفرة ، وفيض الحيوية والمجد الماثل فى هيبة مظهرها ، واتقاد نظراتها ، وعنف حديثها .

وكانت قد سمعت عنى ، وعرفت من صديقاتها أنباء مغامراتى . ولكنها

لم تستطع أن تتصور أن شاعراً وديعاً رقيقاً مثلى ، يمكن أن يكون مع النساء جاف القلب ، غليظ الإحساس ، متحجر العاطفة .

والحق أنها بادلتنى أول الأمر إقبالا بحذر . فأسرفت فى التودد إليها ، فانخدعت هى وتشجعت ، وأفعم نفسها السرور والزهو . فأقبلت فجأة علىّ ، وشرعت تتودد إلىّ وتلاطفنى .

وفى تلك اللحظة التى تغلب فيها غرور الفنانة العظيمة على عقابها ، نهضت أنا ساخراً ، وحييتها تحية باردة ، ثم انصرفت عنها بدون اعتذار ، وانطلقت أغازل غيرها من المدعوات ، وخلفتها جاحظة العينين ، فاغرة الفم ، مبهوتة مذهولة ، تنتفض حنقاً واستنكاراً وسخطاً ...

أردت أن أتحداها ، أن أعبث بها ، أن أخضع مجدها وشهرتها لسلطانى . ولكنها كانت أشد كبراً منى ، وأصلب عزيمة ، وأقوى إرادة ، وأقدر على التهكم والسخرية والتشفى . فحقدت علىّ ، وأضمرت لى الشر ، وآلت على نفسها أن تذل كرامتى ، وترغمنى على حبها ، وتثأر منى لبنات جنسها ، وتعلمنى كيف أحترم المرأة ولا أعبث أبداً بقلوب العذارى .

واضطرمت فيها عوامل الخبث والدهاء . فسعت إلىّ وأنابين جمع من أصدقائى ومضت تمثل دور العاشقة التى افتُتنت بى ، كى توهمنى أنى قد انتصرت ، فيسهل عليها فيما بعد تمزيق فؤادى ، وإصابة كبريائى فى الصميم .

وكانت « سونيا » فتاة شريفة تعول أسرتها من فنها ، وتعيش منقطعة لهذا الفن ، وتفكر فى الزواج من راقص أو شاعر يقدرها ويفهمها ، ولا يحرمها من مزاولة مهنتها والظهور على المسرح .

فلما طلب إليها الأصدقاء أن ترقص ، ارتمت على الفور فى حلبة الرقص . فتجلت مواهبها الفنية التى أعجبت بها أوربا كلها . كان رقصها يمثل عذاب الحب ، وعنف الغيرة ، وثورة الانتقام . وكانت تتايل كالغصن ، وترفرف كالطائر ، وتقفز كالنمر ، وتهدر كالموج ، ثم تنساب

فى ليونة كالأفعى ، وهى تحدق إلىّ تحديقاً ثابتاً ، هلع له قلبى وارتعدت فرائصى .

كانت كأنها تخاطبنى وتناجينى وترقص لى وحدى . فأحسست أن إعجاب الناس بها يرتد إلىّ وينعكس على شخصى ، وأنى أنا الذى ميزته الفنانة النابغة ، واصطفته حبيباً لقلبها ، ووحياً لعواطفها وفنها .

وبعد أن أدت « سونيا » رقصتها الرائعة ، تقدمت إليها وأنا أرتجف ، وعرضت أن أراقصها . بيد أنها تجهمت لى ، وأعرضت عنى ، وخلفتنى بدورى محنقاً غاضباً ، واندفعت صوب أحد الشبان ، وراقصته فى حماسة وتلهف وهى ترمينى بالنظر الشزر وتضحك .

وكظمت غيظى وتحينت الفرصة لأنتقم ...

وابتهجت الفتاة بما فعلت ، وتهيأت لمواصلة النضال ... تعرفت إلى أسرتى ، واندمجت فى الأوساط التى أغشاها ، وشرعت تضرم فى صدرى النار . كانت تقبل علىّ ثم تعرض ، تمنينى ثم تردنى خائباً ، تظهر إعجابها بشعرى ثم تطرى النقاد أعدائى كى تثور ثائرتى عليها ، فلا أعرف كيف أخضعها ، فأنطوى على نفسى ، وأتألم فى حقد وكمد وصمت .

وعزّ علىّ أن تلهو بى امرأة . فبادلتها خبثاً بخبث ، وترفعاً بترفع ، وإعراضاً بإعراض . فما كان منها إلا أن اختفت عنى تماماً . وظلت محتجبة أسبوعاً بطوله ، ثم ظهرت فى إحدى الحفلات مع شاب صبيح الوجه ، فاستعر الحقد فى قلبى ، وطاب لى أن أغيب عن نفسى ، وأن أتشرد فى الطرقات ، وأن أقضى الليل ساهراً لا أعرف النوم .

ولأول مرة فى حياتى عرفت الغيرة . أحاطت بى الوساوس ، وافترستنى الريب والشكوك . . احتلت « سونيا » عقلى ، وملكت علىّ مشاعرى ، واستبدت بخيالى ، وخالطت منى الفكر والإحساس . فكنت أتصورها تارة فى صحبة غريمى فأصرخ وأجأر وأبكى ، وأتمثلها تارة أخرى وهى ترقص . فأراها فى كل شىء أمامى ، فى خرير المياه ، فى حفيف الأشجار ،

فى هدير الموج ، فى زفيف الريح . فيتوه عقلى ، ويصيبنى من فرط الهوس شبه خيال ! ...

دوختنى الأنثى وصرعتنى . فزايلنى الفرح ، وتسربت منى قوى الحياة ، وأصبحت لا أجد العزاء إلا فى شعرى .

ونظمت شعراً حاولت أن أصب فيه عصارة عذابى ، وخيل إلىّ أن نغمة إنسانية جديدة سرت فى قصائدى . فاغتبطت بهذا النصر الفنى الذى أحرزته بفضل ألمى ، وأردت أن أكتفى به . ولكن طيف « سونيا » كان يلاحقنى ويقض مضجعى ويصلينى مر العذاب . فلم أستطع أن أقاوم . وفى ذات ليلة وقد سهدنى الحب ، ونهشتنى الغيرة ، نزلت عن كبرى ، وامتهنت كرامتى ، وكتبت إليها أقول : « ما عرفت الحب قبل أن أعرفك . أية فائدة من الظهور بمظهر القوة . لقد كنت أشعر بسعادة كبيرة كلما امتلكت فؤاداً أو غررت بقلب . أما الآن وقد انسحق قلبى فقد بت أصبو إلى سعادة الألم والتكفير والتضحية . إنى لأفكر فيك بعدد ما فى اليوم من دقائق وساعات . إنى لأنشد عفوك ومرحمتك ، بل إنى لأستعذب فى هواك الذل إن كان ذلى يرضيك ويجود علىّ بنظرة واحدة منك . لقد فزت بما لم تفز به من قبلك أية امرأة ، فلا تسرفى وكفى عن تعذيبى ، أمنحك نفسى خالصة وأقفها عليك وحدك ! لن أتحول بعد الآن ... لن أتقلب وأتلون ، لن أخادع وأكذب ، لن أبحث عن الزهو الباطل والنصر الزائل والمتعة الفانية . لن أرى العالم إلا من خلال عينيك أنت ، ولن أنشد الجمال إلا فى نور وجهك وضوء جبينك . لقد علمتنى معنى الثبات ، فأتمى نعمتك علىّ ، واستكملى خلاصى إذ لا حياة لى ولا خلاص إلا بك ! »

واعتقدت أن « سونيا » ستتأثر بخطابى ، وتلبى ندائى ، وتسرع إلىّ . ولكنها أقدمت على أمر فظيع ، ارتكبت إثماً مروعاً . جمح بها الغرور والكبر ورغبة الانتقام ، فأرادت أن تجرب قواها ، أن تذلنى أيضاً ، أن تهدر كرامتى ، وتزهو على أترابها بإحراز نصر ساحق على . فماذا فعلت

شهوت بى ... فضحت عاطفتى ... كاشفت بها صديقاتها ... أطلعتهن على خطابى ، وراحت تردد وتهتف أن الشاعر المتبجح المتغطرس قد استسلم لها وخضع !

هذا التصرف المنكر أهدر كرامتى . فصغرت نفسى فى عينى ، وأحسست بالعار يجللنى . فتقدت صوابى ، وارتددت بالرغم منى إلى طبيعتى القاسية المتجبرة .

استحال حبى « لسونيا » إلى بغض هائل مشوب بالاحتقار والصراع : صارعت طيفها فى عزلتى . خيرت أصدقائى بينها وبينى . شوهت صورة لها وأرسلتها إليها ممزقة . استأصلتها من عقلى وقلبى واعتبرتها كأن لم تكن . ومع ذلك فقد كنت أتعذب ... كنت أتعذب وألعنها بدون أن أفكر لحظة واحدة فى أنى أنا السبب فى شقائى وشقائها !

والعجيب أنى لم أفهم ... لم أفهم أن « سونيا » كانت إذ ذاك أشقى ألف مرة منى ، وأتعس حظاً ، وأعمق ألماً وحسرة .

لم أفهم أنها كانت تحبنى إلى حد العبادة ، وأنها إنما أقدمت على تلك الفعلة الشنعاء مدفوعة بحذرها من طبعى ، وخوفها من تقلبى ، ورغبتها فى إشهاد الناس جميعاً على عاطفتى ، كى تقيدنى ، وتحرجنى ، وتتأكد من صدق هواى .

وأمعنت فى بغضى لها واحتقارى ، وبعد أن كنت أنا الذى أتوسل أصبحت هى التى تلتمس وتستجدى ، هى التى تطرق بابى ، هى التى لا تفوز منى إلا بالصد والتحقير .

ولما برح بها اليأس ، وسدت فى وجهها السبل ، كتبت إلىّ هذا الخطاب تنشد فيه بدورها الرحمة والمغفرة :

« ما ذنبى إذا كانت حياتك القديمة هى التى دفعتنى إلى الشك فى حبك ؟ ... ما ذنبى إذا كان طبعك المتقلب المتلون هو الذى ساقنى إلى الإسراف فى تجربة حبك ؟ لم أشأ أن أذل كرامتك ، ولكنى أردت

الاطمئنان إلى صدقك ... أنا امرأة ؛ والمرأة لا تؤمن إلا بالبرهان ، ومن سوء طالعها أنها تقيس حب الرجل بمقدار ما يحتمل فى سبيلها من عذاب. ولقد عذبتك لأنى أريد أن تحبنى ، ولأنك أنت نفسك عذبتنى . فاعف عن ذنبى فلا راحة إلا بعد تعب ، ولا هناء إلا بعد شقاء ، ولا حب إلا بعد تناكر وخصومة وعداء . ولقد تخاصمنا الكفاية ولم يعد فى قلبك ولا فى قلبى أى موضع للضغينة أو للحقد أو للانتقام ... فأنا أتقدم إليك اليوم ولا شفيع لى إلا حبى . فافهم نفسى ، وقدر أسباب تصرفى ، واعلم أن ما احتملته منك يساوى ما حملتك إياه أو يزيد... ومع ذلك فأنا لا أطلب تبرئتى ، بل أنشد رحمتك . وما حاجتى الآن بالتفوق عليك ، وقد أصبحت أحبك ، ولا أستطيب الحياة إلا خاضعة لك . لقد تم لك ما أردت فامنحنى بعض ما أريد . أعبدك إلى الأبد ! » .

وأوشكت أن أتأثر وأضعف حيال هذا الخطاب ، وليتنى تأثرت وضعفت . ولكن كبريائى عادت فتمكنت منى ، فقام فى نفسى أن أشهر « بسونيا » كما شهرت بى ، غير أنى عدلت بعد تفكير ، وآثرت أن أرد إليها خطابها فى اليوم نفسه .

وعندئذ وقع ما لم يكن فى الحسبان .

أعلنت « سونيا » أنها ستغادر روسيا إلى فرنسا بعد أن تقيم لجمهور المعجبين بها حفلة وداع شائقة ؛ تمثل فيها وترقص رقصة جديدة أسمتها : « أنشودة الطائر الصريع » !

ودهشت أنا لهذا النبأ ، واستولى علىّ الذهول . أحسست فجأة أنى قد أموت لو فارقتنى « سونيا » . ومع ذلك فقد أبيت أن أذهب إليها . أبيت أن أراها . أبيت أن أذل أمامها . فلبثت محتفظاً بإعراضى وصمتى ، متوقعاً أن تضعف هى وتسعى أيضاً إلىّ . ولكنها ظلت متمنعة وصامدة حتى جاءت ليلة الحفلة ، فحزمت أمرى ، وعقدت العزم على أن أشهدها. لم أفكر فى أن أتصل « بسونيا » ، بل أردت أن أراها عن بُعد كغيرى من

المتفرجين ، وأن أتزود من فنها الرائع قبل رحيلها عن أرض الوطن .

ودخلت المسرح شامخاً متعالياً . وما إن رفع الستار حتى انخلع قلبى إذ رأيت مأساة حبى ومأساة « سونيا » ممثلتين أمامى أبلغ وأفجع تمثيل .

رأيت « سونيا » فى شكل طائر أزرق بديع ، ترقص على نغمات الموسيقى ، رقصاً مشجياً حزيناً ممزقاً . ثم رأيت الصياد يبرز فجأة من زاوية المسرح ، ويحوم حولها ، ويتربص بها . ثم رأيتها تسرع إليه بدل أن تفر منه ، وترامى عند قدميه وتقبل يده ، وهى تلتمس وتتوسل وتبكى . ثم رأيت جناحيها العريضين يوفرفان فى حب غامر وحنان عميق ، ويحتضنان الصياد القاسى الذى أبى إلا أن يدفعها عنه فى عنف ، ويركلها بقدميه ويصوب إليها سلاحه ويطلق عليها النار ...

وسقط الطائر الأزرق أمامى صريع القسوة والجحود ، ينتفض ويختلج ، ويصرخ صراخاً متحشرجاً متقطعاً .

ودوت القاعة بهتاف منقطع النظير فانقبض قلبى ، وأحسست إحساساً عميقاً أنى وحيد فى هذه الدنيا ، وأن « سونيا » ليست لى ، وأنها ملك لهذه الجماهير التى تقدسها وتعبدها وتهلل لها .

وشعرت نحو تلك الجماهير الصاخبة بغيرة هائلة ، وخيل إلىّ أنها ستظل إلى الأبد حائلاً بينى وبين حبيبتى حتى لو عدت إليها . فتحاملت على نفسى ، ونهضت محطماً منسحقاً أشق زحمة الجماهير ، وأتقدم صوب الباب .

وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة التى لن أنساها ما حييت ، دنا منى أحد عمال المسرح وحيانى فى أدب ، وطلب إلىّ أن أصعد إلى المسرح لمقابلة « سونيا » .

وأدركت أنها لحتفى وهى ترقص . فجمد الدم فى عروقى ، ولبثت فى مكانى ذاهلاً لا أدرى ماذا يجب علىّ أن أفعل . خشيت إن أنا سعيت إليها وهى فى أوج مجدها ، أن تنتهز فرصة ضعفى فتثأر منى وتنكل بى أمام

المعجبين . فطاش صوابى ، وأفقدتنى كبريائى ملكة الحكم على « سونيا » وعلى نفسى . فعضضت على شفتى ، واستجمعت قواى جهدى ، ورجوت عامل المسرح أن يعتذر عنى ، ثم تحولت واندفعت نحو الباب .

لماذا أقدمت على هذا التصرف ؟ لماذا كنت قاسياً وشريراً إلى هذا الحد ؟ كيف طاوعنى قلبى ؟ لا أدرى . كل ما أذكره هو أنى خرجت فى تلك اللحظة إلى الشارع وانطلقت فيه كمخبول ، وضفقت أمشى على غير هدى ، خاوى الروح من كل شفقة وحنان .

وبينما كنت أنطلق ، حائراً خطاى ، مسلماً نفسى إلى المجهول ، سمعت صرخات عالية متعاقبة تتراءى إلى ثم تهدر حولى . فالتفت مذعوراً فأبصرت الجماهير المتدفقة من باب المسرح ، تدفعنى كالموج وتجرفنى وتتجه بى إلى باب الممثلين وهى تصيح :

ــ سونيا ! ... سونيا ! ...

فأحسست بخوف عميق يتملكنى . فاخترقت الجماهير المائجة ، ووثبت إلى باب الممثلين ، واندفعت إلى مقصورة « سونيا » وأنا أرتجف .

وما كدت أدخل المقصورة حتى جمدت عيناى واقشعر بدنى ، وكدت من فرط الذعر أسقط مغشياً على .

رأيت « سونيا » ممدة على مقعد مستطيل ، وحولها الممثلون زملاؤها ، وهى ما تزال فى ثوب الطائر الأزرق الصريع ، تصرخ وتجأر وتتلوى ، والدم ينزف منها ، وبجوارها سكين ملوثة ، أدركت على الفور أنها قد أغمدتها فى صدرها عندما حمل إليها الخادم كلمتى الفاصلة المروعة التى قضت على كل آمالها !

وتقدمت إليها كمعتوه وأخذتها بين ذراعى . فغمغمت هى باسمى والدموع تترقرق من عينيها ، ثم عانقتنى وقبلتنى . فقبلتها أمام الجميع : قبلتها بكل قوى حبى ولهفتى وأملى ، ثم قبلتها أيضاً فى جنون وأنا أصيح : يجب أن تعيشى ! ... يجب أن تعيشى ! ...إنى أحبك ! ...

فرفت أهدابها كأوراق زهرة ذابلة ، وصعدت نفساً مستطيلاً ، ثم نظرت إلىّ نظرة ممزقة أودعتها كل حسرتها واوعتها ويأسها ، ثم عانقتنى بغتة وأسلمت الروح ، وبصرها الثابت ما يفتأ يحدق إلىّ ! ..

وماتت الفنانة العظيمة « سونيا » شهيدة كبرى وقسوتى . فعشت أياماً طويلة فى وحدة مظلمة قاتلة وأنا أخشى أن يخالط عقلى الجنون . ولما برّح بى العذاب ، لم أجد خلاصاً إلا فى شعرى وفنى . فآليت على نفسى أن أبدع من عذابى عملاً فنياً رائعاً يخلد ذكرى « سونيا » ويخلدنى . وهكذا كتبت ديوان شعرى الأول بدموعى ودمى ، فاستقباله الأدباء استقبالا حماسياً أذهانى :

وعندئذ ، عندئذ فقط ، أدركت هذه الحقيقة المرة . أدركت أن الفنانة العظيمة التى عذبتها وقتلتها هى التى نفخت فىّ من روحها الطاهرة وأحيتنى !

ألفريد دى موسيه
أو
فى مهبّ النّار

كان المطر يهطل ، والريح تدوى ، وغيوم السماء تتكاثف تارة وتومض أخرى ، فتلقى الرعب فى النفس وتدفع السابلة إلى الفرار . وكان الشاعر الذائع الصيت « الفريد دى موسيه » يحث خطاه برغم مرضه ، وبرغم وقدات الحمى التى تسرى فى عروقه ، ناشراً مظلته ، وأسنانه تصطك ، وبدنه يرتجف ، ونظراته المتلهفة الزائغة متجهة صوب دير صغير قائم فى زاوية الطريق .

وكانت مدينة البندقية قد غابت فى أحشاء الظلام ، وانطفأت شعلة حياتها ، وخيم عليها صمت رهيب لا تعكره غير جلجلة الرعد ، وخشخشة المطر وهو يضرب النوافذ والشرفات ، ويتساقط فى عنف على الأرض .

وأحس « موسيه » أنه وحيد فى هذا العالم الثائر المدلهم ، فاختلج اختلاجاً عنيفاً وبكى . . ولكنه استجمع قوى إرادته ، وألهب بها حيوية أعصابه ، واندفع نحو باب الدير وطرقه وهو يلهث .

وفتح الباب راهب مديد القامة صارم الوجه ، وأومأ إلى الشاعر بالدخول . فانطلق الشاب فى الدهليز الطويل ، وتحول إلى غرفة رئيس الدير ، ومكث فى الغرفة ينتظر .

تلفت حوله شبه مذهول ، فأبصر الرهبان ، فى بهو الدير ، يروحون ويغدون منكسى الرءوس ، صامتين ساكتين تائهين ، وبيد كل منهم كتاب صلاة يطالعه فى تأمل وخشوع وهو يغمغم .

وأحس الشاعر أن هؤلاء الناس قد ودعوا الدنيا إلى غير رجعة ، وأن الدنيا بأسرها قد ودعتهم هى أيضاً . وأن الحياة بجمالها الرائع وسحرها الخلاب لا يمكن أن تنفذ إليهم ، ولا يمكن أن تؤثر فيهم ، ولا يمكن أن تحول عقولهم وقلوبهم عن التحديق الدائم إلى وجه الله .

وتصور الشاعر ما هو مقبل عليه فانخلع فؤاده رعباً وتزعزعت نفسه من الأعماق .

كيف ؟ ! أفى مقدوره هو أن يودع الحياة مثلهم ؟ أفى وسعه أن يقضى العمر كله فى هذا المكان الصامت الخانق المكفهر ؟ أفى استطاعته أن ينسى الدنيا ونعيمها ، وينكر نفسه ، ويقهر شهواته ، ويعيش من أجل الله فقط ؟ !

كلا . . هذا محال ! إن الحياة تغلى فى دمه ، وتنبض فى عروقه ، وتصب فى روحه وجسده سيلا من نار .

ما كان ليتصور أن التضحية هائلة إلى هذا الحد ! ما كان ليعتقد أن دعوة الحياة أقوى فى نفسه ألف مرة من دعوة اليأس ! لا ! محال ! لن يكون فى وسعه أن يصبح راهباً ؟ هذا وهم ! هذا جنون ! إنه شاعر ، والشاعر ملك الحياة ، فيجب على موسيه أن ينهض ، أن يسرع ، أن يفر من هنا ، أن يخرج إلى فسحات الحياة الرحبة قبل أن يضعف ، قبل أن يجبن ، قبل أن تغلق عليه أبواب الدير إلى الأبد . . وتمكن منه القلق والذعر ، فلم يتردد وبدل أن يظل فى انتظار الرئيس ، تحامل على نفسه ، وخرج من الغرفة لفوره ، واجتاز الدهليز الطويل ، وأومأ بدوره إلى الراهب أن يفتح له الباب : فألقى عليه الراهب نظرة احتقار قاسية ، وأجابه إلى سؤله غير مكترث .

وما كاد موسيه يبصر الشارع ويسمع دوى الرعد وصفير الريح حتى تنفس ملء رئتيه ، وصرخ صرخة فرح وخوف . . فرح بخلاصه من الأسر الذى كان ينتظره ، وخوف من العذاب الذى يتربص الآن به ويسمم جو الحرية الرائع الذى ارتد إليه !

ذلك هو الحادث العجيب الذى وقع لموسيه فى مدينة البندقية . ولكن كيف وقع ذلك الحادث ، ولماذا وقع ، وما هى العوامل التى دفعت بالشاعر الذى كان يعبد الحياة والحرية إلى التفكير فى توديع العالم

ودخول الدير ؟

الواقع أن موسيه كان يجتاز أقوى وأعنف أزمة عاطفية صادفته فى حياته . هذه الأزمة العاطفية الفريدة فى نوعها هى التى سنحاول كشف الستار عنها لأنها قتلت موسيه كإنسان ، وأحيته إلى الأبد كشاعر من أكبر شعراء فرنسا .

ظل ألفريد دى موسيه يحلم طوال أيام حداثته بحب امرأة نادرة تجمع إلى فتنة البدن ، جمال العقل والروح .. وكان شاباً حاد المزاج ، سريع التحول ، متوثب الأعصاب ، خيالى النظرة إلى المرأة والحياة ، قضى ردحاً طويلا من شبابه الأول مطلقاً العنان لغرائزه ، يلهو ويمرح فى صحبة نساء عابثات مستهترات ، أمتعته بكل ما فى الحياة من ملاذ حسية وضيعة سرعان ما تبددت وخلفت فى قلبه فراغاً عميقاً ، ابتلاه بأسى ممض أليم ، زين له العزلة ، وباعد بينه وبين المجتمع والناس .

والحق أن إمعان ألفريد دى موسيه فى معاشرة الغوانى ، زاده رغبة فى المرأة الكاملة المنشودة التى كان خيالها يطوف بذهنه ، ويحتل عقله ، ويعكر صفو لياليه ، ويفعم نفسه بضرب من السوداء الحالمة الممزوجة بالضجر والتبرم والحسرة .

كان يخشى أن يموت قبل أن يشعر بعاطفة حب صادقة . كان يخاف أن يصرعه القدر وهو لم يعرف من الدنيا غير اللذة الغادرة التى تزول بزوال الساعة . وكان شعره فى تلك الفترة من حياته رجع صدى نفسه القلقة فى سعيها المضنى وراء العاطفة المشبوبة الخالدة .

هذا السعى المطرد وراء الحب أفاض على قصائده حلة ساحرة غريبة ، أشاعت فيها نزعة من السذاجة الفاتنة والبراءة الناضرة والطفولة الخلابة ، أكسبتها شهرة واسعة وأجرتها على كل فم وكل لسان .

وتنبهت الكاتبة الروائية النابغة جورج ساند إلى شخصية الشاعر

ألفريد دى موسيه وأعجبت بها .

راعتها منه سذاجته ، وصدق إيمانه بأحلام الحب ، وتلهفه على امرأة مثالية ، يتخذ منها وحياً لعقله وعروساً لشعره ؛ فأحبته .

أحبت فيه الفتى البرىء ، والعاشق الطموح ، والشاعر الخيالى الذى اعتقدت أنه يريد أن يطوع الحياة لخياله ، ويبدع من هذا الخيال مثلا واقعياً أعلى .

وكانت امرأة ناضجة الأنوثة ، وافرة قوى العقل ، مضطرمة الحواس جليدة الأعصاب ، حديدية الإرادة ، عاشت وأحبت وخبرت الرجال ، وعرفت منهم عدداً كبيراً من صفوة عظماء عصرها ونخبة أفذاذه ونوابغه .

والواقع أن جورج ساند كانت قد مجت اللذة هى الأخرى ، وتاقت إلى الحب ، إلى حب صادق ينبع من قلب برىء ، فتوددت لموسيه ، وتقربت إليه ، وافتنت فى استمالته وإغرائه . فبهت الشاب وازدهى ، وملكته النشوة الكبرى ، نشوة العابد إذ يستفيق من تأملاته فيبصر معبوده ماثلا أمامه ، يتألق حسناً ، ويختلج حركة وحياة .

أحس موسيه أن حلمه قد تحقق ، وأن المرأة المنشودة الجامعة إلى فتنة البدن جمال العقل ، أصبحت له وحده ، ينعم بها ، ويستطيع أن يستلهمها أروع القصص وأبدع الأشعار . فأسلم نفسه لها ، وانقاد لحبها ، وودع العالم وتبعها ، أعمق ما يكون إيماناً بأن حبهما أجمل وأكمل وأقوى من الحياة .

وأرادت جورج ساند ألا ينازعها فى حبيبها إنسان ، وأراد موسيه أن يباعد بينها وبين مفاتن باريس ، وأن ينتزعها من أيدى المعجبين بها ، وأن يطمئن فى العزلة إلى حبه الخارق العظيم . فاتفق مع حبيبته على هجر العاصمة الفرنسية والسفر إلى إيطاليا ، والاستقرار فى البندقية مدينة الحلم والهوى .

وهناك ، فى تلك الوحدة الزاخرة بالحب ، التواقة إلى الثقة والأمل

والنعيم ، نشب الصراع بين العاشقين العبقريين :

وكان لب هذا الصراع هو وضع معكوس لقانون الطبيعة ؛ هو ضعف الرجل وقوة المرأة ، هو أنوثة ألفريد دى موسيه ورجولة جورج ساند ...

كانت المرأة تعيش بالعقل ، والرجل يعيش بالعاطفة . كانت المرأة تقدس الفكر والرجل يعبد الأحلام .

كان موسيه يحب الناس ، وكانت جورج ساند تكرههم .

كان الشاعر مولعاً بالحياة فى المجتمعات والأندية ؛ وكانت القصصية النابغة تهوى التأمل والعزلة .

كان الرجل كسولا ؛ يقضى سحابة نهاره متنزهاً فى القوارب ، وكانت المرأة جادة عاملة تعكف على وضع القصص وتشتغل أكثر من أربع عشر ساعة فى اليوم ولا تغادر مكتبها إلا لتخرج باحثة عن حبيبها فلا تلتقى به إلا فى الحانات والمراقص الليلية سكران معربداً . .

وكان موسيه أهوج طائشاً نزقاً يعد بشىء ثم ينساه . يقتنع بفكرة ثم يتأثر بنقيضها . يهتم بشخص ثم يعرض بغتة عنه . يظهر إعجابه بحبيبته ثم يطرى أمامها محاسن نساء البندقية الجميلات . وهكذا كان يعيش فى الخارج ساعات ، يتجول فى أنحاء المدينة ، ويغشى أحياءها الشعبية ، مصطحباً فى جولاته رهطاً من البحارة ، وفئة من الموسيقيين ، وجمعاً مشاغباً من المترفين العاطلين ، وطائفة مختارة من بنات الهوى .

والغريب فى أمر ألفريد دى موسيه أن القوة التى حفزته إلى الإسراف فى اللهو والمرح ، كانت هى نفسها قوة الحب !

كان لفرط حبه لجورج ساند يود لو استطاع أن يعانق العالم !

كان حبه الشديد يغريه بالفرح ، ويدفعه إلى السرور ، ويدعوه إلى التسامح وعدم الاكتراث ، ويضاعف أخلاقه تقلباً وتلوناً ، ويزيدها رعونة وطيشاً ، ويجعل منه شبه طفل فاز بما يشتهى فهو يطرب ويهلل

ويملأ الدنيا صياحاً وضجيجاً .

وأما جورج ساند فكانت هادئة النفس ، صافية العقل ، متزنة الأعصاب ، تنظر إلى شاعرها نظرة الملاحظ الصارم ، فتستجلى بواطن شخصيته ، وتقف على حقيقة أهوائه ، وتعد عليه هفواته ، وتشعر على الرغم منها بعظم الفارق بين خيالها عنه وبين ما هو عليه فى الواقع .

وأعجب من كل هذا أن ألفريد دى موسيه ظل يمرح ويعربد دون أن تخطر على باله لحظة واحدة فكرة خيانة جورج ساند ! . .

أجل . . كان يحيا بين أجمل نساء البندقية ، ولكنه لم ير فيهن من تستحق قبلة أو نظرة .

لم يتطلع إلى امرأة غير حبيبته . لم يسمح لغرائزه بتلويث ضميره . كان فى هواه مثال الطهر والعفة ، مثال الأمانة والوفاء ، مثال الترفع عن كل شبهة من خيانة ، وكل ميل ولو خفى إلى الخديعة والغدر . .

ولكن المرأة كانت تسخط وتغار .

كانت تنظر إلى الظاهر أكثر مما تنظر إلى الباطن .

كانت تنظر إلى السلوك لا إلى العاطفة فقط .

كانت تحكم على العمل لا على النية الطيبة ، ولا على القلب الوفى ولا على الضمير الطاهر .

وأهم ما كان يثيرها ويحفظها فوق غيرتها هو نزق الشاعر وغروره ، هو كسله واستهتاره ، وذلك الطيش المتأصل فى نفسه والذى كان يبعث الناس على الاستهزاء به والسخرية منه .

كل هذه الظواهر الضعيفة كانت فى عرف جورج ساند من خصائص الأنوثة . وكانت هى تكره أشد الكره خصائص الأنوثة وتحاربها فى نفسها ما استطاعت ، وتبذل قصاراها فى قهرها ، والتغلب عليها وإخضاعها لحكم إرادتها وعقلها .

وهكذا شعرت جورج ساند أنها بإرادتها القوية ، وحبها الجد والمثابرة على

العمل : وهدوئها واتزان أعصابها ، تمثل فى هذه المأساة دور الرجل . وإن موسيه برعونته وغروره واستهتاره يمثل دور المرأة . فكبر عليها أن يستعبدها الحب لمن هو أضعف منها ، وثارت فى نفسها تلك الرغبة الأبدية ، رغبة المرأة فى الرجل الذى هو أقوى منها ، والذى تستطيع أن تحبه لأنه يستطيع أن يخضعها ويفرض عليها سلطان خلقه ورجولته وإرادته .

ولم تعد تحتمل الحياة مع الشاعر ونمت فى ذهنها فكرة الانفصال عنه .

أرادت أن تسترد حريتها وتتخلص من هذا الطفل المتعلق بعنقها . ولكنها أحجمت أول الأمر وترددت .

أحست غرامها القديم يستيقظ من سباته ، ويستولى عليها ، ويتمكن منها ، ويقترن بعاطفة جديدة لم تكن فى حسبانها .

خيل إليها أنها تحنو على موسيه حنواً ينبعث من أحشائها ومن قلبها ، وأن شيئاً من روح الأمومة قد سرى فى حبها . فتريثت وراجعت نفسها ، واستقر رأيها على وجوب تهذيب شخصية حبيبها لتتمكن من الحياة بجواره والإخلاص له .

حاولت أن تجعل من الشاعر الكسول رجلا عاملا ، ومن الفتى الطائش شاباً عاقلا ، ومن الإنسان الصلف المتكبر المستهتر المغرور مخلوقاً رقيقاً متزناً متواضعاً . فبدأت تصارحه برأيها فيه ، وتنتقد مسلكه بالحسنى ، وتمده بمختلف الإرشادات والنصائح ، وتدفعه إلى حب العمل اليومى ، وتزين له حياة البيت ، وتبذر فى عقله وقلبه بذور الإرادة والقوة والرجولة . ولكن الشاعر استخف بها وسخر منها ، ثم كبر عليه أن تجرؤ امرأة على اقتحام حرمه النفسى . فتمرد عليها ، وألزمها حدها ، وانطلق يلهو ويمرح وفق هواه ، وهى تنذره وهو يضحك ، ويهز كتفيه فى وقاحة متحدياً وغير حافل .

ويجب إنصافاً لجورج ساند أن نقول إنها أعادت الكرة مرات ،

وجاهدت أسابيع طويلة لتبديل شخصية حبيبها . وإنها استعطفت وتوسلت وبكت ولكن على غير جدوى . .

حينئذ دب اليأس فى فؤادها ، فتغير كل شىء واستحالت العاشقة المفتونة إلى امرأة أخرى .

أهملت الشاعر إهمالا خبيثاً قاسياً متعمداً ، فالتهبت كبرياؤه وكاد يجن .

لم تكترث له . شرعت تخرج مع سواه ، وتتعرف إلى الرجال ، وتغشى المجتمعات ، وتطيل السهر فى الملاهى حتى ساعة متأخرة من الليل .

وأصبح هو الذى يمكث فى البيت بمفرده ، وهو الذى ينتظرها ، وهو الذى يتلهف عليها ، وهو الذى يأكل الشك عقله وقلبه ، وهو الذى يمثل دور المرأة المستضعفة المنبوذة المنكودة الحظ . .

وعصفت به الغيرة وبرح به العذاب . ولكن المرأة لم تشفق عليه . ومضت توفق بين حياة العمل وحياة اللهو ، فرحة بحريتها ، متخففة من حملها ، سعيدة وطروبا ، كأن الشاعر كان بالأمس عبئاً عليها .

ولم يفهم موسيه أنها أرادت بمسلكها الجديد أن تثيره وتدفعه إلى الانصراف عنها .

لم يفهم أنها تخلت عنه ليتخلى هو الآخر من تلقاء نفسه عنها .

لم يفهم أنها زهدت فيه ، وأن من واجبه أن يستنهض ميت كرامته ويرحل . فاستمسك بها ، وازداد تعلقاً بحبها ، وآلى على نفسه أن يسترجعها مهما كلفه الأمر .

وأحست جورج ساند بثقل وطأة حبه عليها ، فزادته جفاء وإعراضاً فاحتمل صابراً متجلداً ثم اضطرم حقده واتقدت لوعته ، فانهال عليها لوماً ولعناً وتقريعاً . فثارت ثورتها عليه ، وأخمدت الثورة فى قلبها كل شعور بالرحمة وكل شفقة على الماضى . ثم تطورت الثورة من غضب

إلى كراهية ، ومن كراهية إلى كيد ، ومن كيد إلى رغبة واضحة صريحة فى الغدر والانتقام !

وإذ ذاك أصيب الفريد دى موسيه بحمى خبيثة ألزمته الفراش وحالت بينه وبين كل مقاومة .

وقع فريسة للمرأة وهو لا يدرى .

أسلمته الأقدار إليها وتركتها تفعل به ما تشاء .

ولما رأته صريعاً يجأر ويتلوى ، اصطنعت الحنان ، تكلفت الحب. تظاهرت بالإخلاص والتضحية ، وأخذت تعنى به فى البدء وتسهر عليه وتعاونه فى كبح المرض . ثم تراخت عزيمتها ، وفترت همتها ، وعادت إلى الخروج ليلا فى صحبة أصدقائها ، متناسية ذلك المريض المنبوذ الذى كان يئن فى وحدته عذاباً ويأساً وحسرة .

ولما اشتد به المرض جاءته ذات يوم بطبيب إيطالى يدعى « باجيلو » فلم يكد موسيه يبصر هذا الطبيب الجميل، الأسمر اللون القوى العضلات ولم يكد يلحظ نظراته إلى المرأة ، ويستبطن حديثه إليها ، حتى ارتعد وانخلع قلبه ، وأحس الحقيقة المروعة تنفذ إلى صدره كطعنة سكين .

أدرك والحمى تلهبه ، والمرض يقوضه ، وعقله يوشك أن يختبل ، أن ذلك الطبيب الجميل يروقها ، وأنها باتت تقربه وتؤثره .

أدرك أنها انتهزت فرصة مرضه لتقضى عليه !

أدرك أنها قد استحالت من ملك فى الحب والإلهام إلى شيطانة فى القسوة والكيد. أدرك أنها تعمدت ارتكاب هذه النذالة لتجهز على البقية الباقية من أمله ، وتقطع بينهما فى المستقبل كل صلة !

أدرك كل هذا إدراكاً عميقاً ساحقاً ، وأيقن أن كل شىء قد انتهى فاسودت الدنيا فى عينيه ، وتاق إلى موت عاجل ينقذه من الحب ، وينقذه من الغيرة ، وينقذه من الهوان . . ففكر فى الانتحار لحظة ولكنه ارتجف وتراجع . . أراد أن يصارع الحب ويصرعه . . أراد أن يعبد

شيئاً غير المرأة ، وغير اللذة ، وغير الخيال . ففكر فى الله . وأسرع من فوره ونهض من فراشه ، وتدثر بمعطفه وهو محموم وانسل من البيت تحت جنح الظلام ، واتجه صوب ذلك الدير الذى لم يكد يدخله حتى ارتجف أيضاً وتراجع أيضاً ولاذ بالفرار . . .

• • •

وها هو ذا الآن فى الشارع المظلم الضيق ، يرتعد من فرط الحمى ، ويتقى بمظلته شآبيب المطر ، ويحدق إلى واجهة الدير ، ويقول فى نفسه وهو يختلج : كيف يمكن أن أحتمل الحياة بعد اليوم ؟ كيف يمكن أن أعيش بدون تلك المرأة ؟ يجب ، يجب أن أعود إلى الدير . يجب أن أختفى . يجب أن أموت . .

وهدأت العاصفة فجأة ، وطلع الفجر ، واندفق شعاعه البنفسجى على المدينة الهامدة . فأحس موسيه أنه ينشط ويتوثب ، وأن قواه قد ارتدت إليه ، وأن فى بدنه الواهن المتصدع إرادة مغامر وعزم جبار . فتقدم خطوة ، ثم تقدم أيضاً ، ثم تشجع وطرق باب الدير مرة ثانية ودخل .

دخل يترنح كالشارب الثمل . وما كاد يبصر رئيس الدير حتى جثا عند قدميه وهتف : ارحمنى يا أبت وافسح لى مجالا عندك فأنا إنسان شقى !

فأنهضه الرئيس ، واستفسر عنه من الراهب البواب ثم تفرس فيه مليًّا ودنا منه وقال : لقد جئت ثم ذهبت يا بنى . وقد تمكث هنا أياماً ثم تعود فتذهب . . أنت حائر وقلق . وأنا لا ألمح فيك صفاء النية وصدق العزيمة وعمق الإيمان . .لايمكننى أن أقبلك ! . . اذهب إلى الدنيا واعرف حقيقة نفسك وعواطفك أولا ثم عد إلى بعد عام . ومتى عدت هادئاً ثابتاً عازماً رحبت بك . أما الآن فليس فى مقدورى ، وأسفاه ، أن ألبى سؤلك . أنت متردد يا بنى والله لايحب المترددين ! طاب يومك !

وخرج موسيه ، مطرق الرأس ، محنى الظهر ، متهالكاً محطماً .

ولما احتواه الشارع الضيق ، رفع بصره إلى السماء المصحية ، وانبعث من صدره أنين ممزق طويل .

أدرك أن الله لفظه كما لفظته المرأة والحياة . فتلفت حوله كمعتوه . لم يعرف إلى أين يذهب ، وإلى من يلجأ ، وبأى حطام يتعلق قبل أن يغيبه اليأس فى لجة العدم .

وجاشت عواطفه واصطخبت ، فحاول أن يكبحها . ولكنه أحس على الرغم منه أن لا عزاء له ولا خلاص إلا فى إلهابها ما استطاع . فاستند إلى جدار أحد البيوت ، وأخرج من جيبه ورقة وقلماً ، وشرع ينظم تلك العواطف فى قصيدة تسجل مأساة حبه ، وتنقذه من لوعته وحسرته ويأسه ، وتقر فى نفسه الراحة والطمأنينة ولو إلى حين .

ولما أتم وضع القصيدة أبرقت عيناه فرحاً ونشوة ، وأمده فيض عبقريته بسيل طارئ من قوة . فانتهز الفرصة التى حباه القدر بها . واندفع يعدو صوب البيت مشبوب الفكر والإرادة والعزم . .

وما إن دخل حجرته حتى أسرع فحزم أمتعته ، ثم فتح النافذة وألقى على مدينة البندقية المشئومة نظرة ، ثم تحول نحو مخدع حبيبته المستغرقة فى نومها يود أن يتزود منها هى أيضاً بنظرة وداع . ولكنه تمالك نفسه . وخنق فى صدره وجيب قلبه ، وأبى أن يوقظها بل أبى أن يراها . . وانطلق من فوره إلى المحطة راسخ العزم ، ثابت القدم ، وابتاع تذكرة إلى باريس .

وعاد موسيه إلى باريس يحمل شخصية رجل ناضج مكتمل . ولكن قلبه المشغوف بحب جورج ساند كان قد مات ، مات لتبعث عذاباته شعراً إنسانيا خالداً على مر الأجيال .

مارينو فوسكارى

أو

الشبكة والصياد

« تألق فى إحدى القرى الإيطالية فى أوائل القرن السابع عشر نجم موسيقى شعبى فقير يدعى « مارينو فوسكارى » . وهذه صورة لحياته التى توزعت بين حب عميق ومغامرة فذة » .

• • •

كان يؤلف ألحانه فى كل مكان ، لأنه كان يرى ويحس جمال الطبيعة فى كل مكان ... وكان يقضى معظم نهاره فى قاربه الصغير ، يتنقل به فى أنحاء البحر ، ويقضى معظم أوقات فراغه فى قريته بين الحقول والوديان ، ينصت إلى غمغمة النسيم ، وحفيف الشجر ، وخرير الجدول ، وسقوط المطر ، وقصف الرعد ، وهبوب الريح ، وهو يشرب نفسه جميع هذه الأنغام ، ويعيش منها ولها ، مندمجاً فى جوهرها ، هائماً فى سرها ، أسعد ما يكون بتأديتها فى ألحانه تأدية مختلجة نابضة صادقة .

ولكن ألحانه كانت عنيفة ، وكانت حزينة ، فلم ترق لأهل القرية الذين نشأوا على سماع الأنغام الراقصة الخفيفة المرحة المطربة .

والحق أن « مارينو » كان يلحن لنفسه ، ويبدع الأنغام لذاته ، ولا ينشد أبداً إعجاب الناس مكتفياً بأن يكون سعيداً ، وأن يشعر بأنه قد فر من حياته ، وخرج من عزلته ، ونفس عن صدره ، واستطاع بفضل فنه ونبوغه أن يتصل اتصالا وثيقاً بتلك الطبيعة الرائعة التى كان يعبدها ويرى فيها ملاذه الأول والأخير .

كانت مهنته صيد السمك ، وكان فقيراً بائساً . ومع ذلك فالبؤس لم يؤثر فى طبعه ، ولم يفسد خلقه ، ولم يخمد فى نفسه نور الأمل ، وشعلة الإيمان .

على أن شيئاً واحداً كان يؤلمه . إنساناً واحداً كان يعذبه . وهذا الإنسان هو زميله وصديقه وغريمه الموسيقى أنطونيو ...

كان « أنطونيو » صياد سمك أيضاً ، وملحناً « كمارينو » ولكنه كان ثرياً . أما ألحانه فكانت مرحة خفيفة غثة ، تجرى على كل لسان ،

ولا يفتأ يغنيها ويرددها أهل القرية جميعاً .

هذه الشهرة المستمدة من صناعة رخيصة ، كانت تحز فى صدر مارينو ، وتشعره بجهل الجماهير وجحودها ، وتلقى فى روعه أنه لن يقوى على إثبات شخصيته ، ولن يقوى على توكيد نبوغه ، ولن يعيش إلا فى ظل الصمت والبؤس والانطواء والخمول .

تلك كانت مأساته الذهنية ، أما مأساته العاطفية ، فكانت أعمق وأفجع بكثير .

وها هو ذا ، وقد احتلت فكره مأساته الثانية ينعم النظر فيها ، ويقلبها على مختلف وجوهها ، وعينه الساخطة المستنكرة ، لا تكاد تحدق إلى البحر لحظة حتى تتبرم وتتململ ، وتمتد حانقة إلى الفضاء البعيد ...

وكانت السماء فى ذلك اليوم ملبدة بالغيوم ، وصفحة البحر كمرآة مغبرة ، وقوارب الصيد متناثرة عليها تتمايل وتتطوح كلما عصفت بها الريح .

وكان مارينو ينهب الفضاء ببصره ، ويتأمل الأفق المترامى ، ثم يعض على شفتيه ، ويطرق برأسه ، وينظر إلى قاربه الصغير ، والدمع يوشك أن يطفر من عينيه .

كان يفكر فى تيريزا ... فى الفتاة الشائقة الساحرة ، ذات العينين الزرقاوين الناعستين ، والشعر المتوهج الذهبى ، بنت الشيخ جوليانو الفلاح الأجير .

كان يحبها أكثر من شبابه ، وأكثر من حياته ، لأنه كان يحبها فى فنه الذى يمثل له أجمل صور الشباب وأنضر صور الحياة .

وكانت تيريزا تحبه ، وتعجب بجماله وفنه ، وتتمنى على القدر لو استطاعت أن تصبح زوجة له . بيد أن والدها الشيخ كان يجفوه ، وكان يعيره بفقره ، ولا ينفك يصارحه بأن ابنته لن تكون أبداً له ! ... وهكذا أدرك مارينو أن السعادة قد تشترى بالمال . فأراد أن يجرب حظه

عساه أن يصبح فى يوم من الأيام غنيًّا . فحاول جهده أن يقترض مبلغاً كبيراً من بعض وجهاء القرية ، ولكنهم أعرضوا عنه ولم يثقوا فيه . فاضطر — وملء نفسه اللوعة والحسرة — أن يبسط يده إلى صديقه وغريمه ، وأن يقترض المبلغ من الصياد الموسيقى الثرى أنطونيو ... وما إن أصبح المال فى حوزته حتى أسرع واشترى شبكة صيد كبيرة ، وقارباً صغيراً جميلاً أطلق عليه اسم تيريزا .

وشرع يجوب أنحاء البحر ، ويلقى الشبكة فى أطوائه ، ويجاهد ليقتنص الحظ من جوف الماء . ولكن البحر كان يعانده ، والحظ كان يكايده . والشبكة الملعونة كانت تسخر منه ولا تقذف إليه من أعماق اليم إلا بأسماك صغيرة تلمع كاللآلئ الزائفة التى تبهر العيون دون أن تساوى فى الواقع شيئاً مذكوراً .

وانقضت أشهر طويلة ، ولم يستطع مارينو أن يفى بما عليه لصديقه من دين . يئس من وفاء دين أنطونيو كما يئس كل اليأس من الظفر بتريزا . فاسودت الدنيا فى عينيه ، والتهبت حسرته ، واتقد حبه ، وازداد على مر الأيام تأججا واشتعالا .

وكان أنطونيو يغافله كل يوم تقريباً ويسعى إلى تيريزا . كان فتى مستهتراً عربيداً مولعاً بالخمر والنساء ، وكان يحب تيريزا وكانت تكرهه . كان يخطب ودها وكانت تخشاه . كان يسعى إليها وكانت تنصرف عنه وتروغ منه . فلما طال انتظارها ويئست هى الأخرى من نجاح مارينو ، وأبصرت أنطونيو يلاحقها ويطاردها ويتشبث بها ويغدق عليها فيضاً من الهدايا ، تراخت فجأة وضعفت ، وانصرفت عن الفقير إلى الغنى ، وزهدت فى الحب وآثرت المال .

وبدأ مارينو يشعر بتحول المرأة وخيانة الصديق . ولكن هذا التحول المنكر المقرون بالخيانة لم يعذبه قدر ما عذبه شعوره بالمهانة والذل . كان مديناً لأنطونيو ، وكان أنطونيو يتعالى عليه ، ويشمت فيه ، ويسخر من

نكد طالعه ؛ ولا يفتأ يذكره بالدين . وكان مارينو يحس العجز الممزق أمام أنطونيو ؛ والعار الفظيع أمام تيريزا . وكان يحس أنه مادام فقيراً ؛ ومادام مديناً ، ومادام فاشلاً ؛ فلا حق له فى الكرامة ؛ ولا حق له فى الحياة ، ولا حق له فى تيريزا .

ولقد استبد به هذا الإحساس بالأمس ، عندما أبصر الفتاة تخرج فى شوارع القرية متأبطة لأول مرة ذراع أنطونيو .

ثار ثائره . جن جنونه ، أيقن أنه سيفقدها . فهام على وجهه الليل بطوله ، ومضى يضرب فى أنحاء القرية ، ساهماً شارداً مخبولا ، لا يستطيع أن يفرج عن نفسه إلا فى النغم العنيف الحزين الشجى ، الذى تجمع بغتة فى أطواء فكره وقلبه ، ثم وثب من أعماق كيانه ، واندفق من جوهر روحه حاملاً فى سيله الجارف حبه التاعس وعذابه الممض الكظيم .

وظل يضع اللحن تلو اللحن فى شبه حمى . ولكن سورة الخلق والإبداع لم تنقع غلته ولم تطفىء حرقته . فارتد إلى سهومه ووجومه . وعاد يلقى بشبكته فى البحر موزع القلب بين التلهف على الأمل وبين اليقين من اليأس .

وفجأة ، وهو فى غمرة بؤسه ، ولوعة اضطرابه وحيرته وشقائه ؛ أشفق عليه القدر ، وهداه إلى بصيص خافت من نور ، ثم بسط أمامه عينيه الذاهلتين شاطئ النجاة !

وها هو ذا يتأمل قاربه الصغير ، ويسرح الطرف فى البحر الشاسع ، ويفكر : أيقبل أم يرفض ؟ أيجب أن يتعلق بالحياة فيشقى ، أم يجب أن يغامر بالحياة كى يسعد ويعيش ، أيجب أن يتراجع أم يقدم ، أن يجبن أم يتشجع ؟ كلا ... يجب أن يقدم ! يجب أن يقبل ! يجب أن يغامر ! يجب أن يقهر حظه ويقهر أنطونيو ، ويفوز بتيريزا .!

واستحوذت عليه الفكرة ، وتمكنت منه . فلم يتردد ، وأرسل نفساً مستطيلاً ثم نهض من فوره ، واستجمع قواه ، ودفع بقاربه الصغير ،

واتجه به صوب الميناء ...

• • •

وكانت قد رست فى الميناء سفينة كبيرة ، فصعد إليها مارينو ، وطلب مقابلة قبطانها . وما إن دخل على القبطان حتى ابتدره قائلاً :

ــ جئت يا سيدى تلبية لدعوتكم . طالعت الإعلان الذى نشرتموه بالأمس فى الصحف . فإذا لم يكن قد تقدم إليكم أحد غيرى ، فأنا متأهب للقيام بكل ما تطلبون .

فرمقه القبطان بنظرة فاحصة ، وقال :

ــ لم يتقدم إلينا أحد بعد . ولكن المهمة شاقة ، ونحن فى حاجة إلى رجل مغامر قوى .

فهتف مارينو :

ــ إنى هذا الرجل . فتكلم يا سيدى فأنا رهن إشارتك . ما نوع هذه المهمة بالضبط ومتى يجب أن أقوم بها ؟

فتفرس فيه القبطان فترة ، ثم قال :

ــ تعلم أن بعض رجال العصابات قد أثاروا اضطرابات خطيرة فى المنطقة الواقعة خلف الشاطئ المجاور ، وتعلم أن الحكومة قد أرسلت سفينتين حربيتين لإقرار النظام ، سفينتى والسفينة الأخرى التى رابطت منذ أيام فى الشاطئ المجاور والتى أوشك أن يحاصرها رجال العصابات . فهذه السفينة يجب أن أخف أنا على الفور لنجدتها ، ويجب أن أعاون قبطانها معاونة فعالة فى قمع الاضطرابات . ولكن السماء ملبدة بالغيوم ، والعاصفة لابد أن تهب بعد ساعة على الأكثر ، وليس فى مقدورى أن أغامر بسفينتى وسط العاصفة وأعرضها للهلاك . فالواجب إذن يقتضى أن أسرع وأبعث إلى زميلى قبطان السفينة الثانية برسالة مستعجلة وخطيرة أعين له فيها التدابير الجديدة التى رسمتها الحكومة لمكافحة الاضطرابات . ولقد فكرت فى أن أعهد بهذه المهمة إلى أحد من رجالى ، ولكنهم كما تعلم بحارة وجنود مرتزقة

يحترفون صناعة الحرب فقط ؛ ويعتقدون أن من العار عليهم أن يموتوا إلا وهم يقاتلون. فليس فيهم من يقبل أن يكون فدائياً وأن يغامر بحياته على هذه الصورة . لهذا أعلنت عن حاجتي إلى رجل غريب . فهل يمكن أن تكون أنت هذا الرجل ؛ وهل أنت مستعد لمواجهة العاصفة ومجابهة الخطر ؟

فلم يرتجف مارينو ولم يتأثر ، بل قال في هدوء :

ــ أين هذه الرسالة ؟

فاستطرد القبطان :

ــ عليك أن تسلمها إلى زميلي قبطان السفينة الأخرى ، كما عليك أن تسلمه نسخة من الصحيفة التي نشرت الإعلان وذكرت المكافأة . ومتى تسلم القبطان الرسالة وقرأ الإعلان ، سيمنحك من فوره المبلغ الكبير المقرر لمن يتولى هذه المهمة الشاقة . أكبر ظني أنك ستصل إلى الشاطئ الآخر سالماً ، وتظفر بالمبلغ . ولكن المهم هو أن تعود أيضاً سالماً وتنجو من العاصفة التي لابد أن تهب بعد ساعة أو أقل . فهل أنت مستعد ؟ فكر مليًّا قبل أن تعزم وتتورط .

فردد الشاب في ثبات :

ــ أين هذه الرسالة ؟

فناوله القبطان الرسالة ، وهو ينظر إليه نظرة ملؤها التقدير والإعجاب ثم بسط له يده مصافحاً وقال :

ــ حظًّا سعيداً يا بني ، وإلى اللقاء .

فدس مارينو الرسالة في جيب صداره ، وخرج من السفينة منصوب القامة ، ملتمع العينين ، مضموم القبضتين ، يهتف في نفسه :

ــ سأظفر بالمال ، وأقهر العاصفة ، وأتفوق على غريمي ، وأفوز بتيريزا !

وطفق يجدف كمخبول حتى بلغ الشاطئ . ولما التقى برفاقه الصيادين

صاحبهم بما اعتزم عليه . فبهتوا وروعوا وحاولوا أن يثنوه عن عزمه . ولكنه لم يخل بهم ؛ وشرع يهيئ قاربه وهو يضحك ويغنى .

ومن اتقاد أمله ؛ وجلجلة فرحه ؛ ونشوة ابتهاجه . انبعثت من صدره أغنية رائعة . وضعها على الفور ؛ ونسق فى لحظة أنغامها ؛ وابتكر كلماتها ؛ وأودع فيها خلاصة حبه ؛ وعصارة إيمانه بالنصر العظيم المكفول .

وراح الصيادون يرددون الأغنية ؛ فازداد مارينو حماسة ؛ وازداد شجاعة وعزماً ؛ ثم وثب إلى القارب فجأة وهو يغنى ؛ ثم لوح بذراعه يودع رفاقه ؛ ويقول لهم :

— كان جل ما أتمنى هو أن أرى تيريزا قبل رحيلى . ولكنى أريد أن أسبق العاصفة وأتغلب عليها . فقولوا لتيريزا إنى أغامر بحياتى من أجلها ؛ وإنى لابد أن أقهر الريح والماء والسماء وأفوز بها !

وولى وجهه شطر الشاطئ الآخر ؛ وضرب الماء بمجدافيه ؛ وانطلق يلوح بذراعه ويغنى .

وفى مثل لمح الطرف ؛ احتوتك الجو واسودت السماء ؛ ثم صفرت الريح ؛ وماجت القوارب . واستحال البحر شيئاً فشيئاً إلى وحش هائل مسعور . أما القارب الصغير فقد ظل يخترق الأمواج المتلاطمة حتى غاب فى لجة البحر الجائش ؛ ولاح أشبه بنقطة سوداء تتراقص فى الأفق البعيد .

وأسرع الصيادون ونقلوا الخبر إلى أنطونيو وتيريزا . فذهلت الفتاة وأعجبت ؛ وأكبرت من مارينو أن يحبها ويخلص لها ويستمسك بها إلى حد المغامرة بشبابه وحياته من أجلها . فأشفقت عليه من أعماق نفسها ؛ واستيقظ فجأة حبها له ؛ وتمنت من صميم قلبها لو استطاع البطل أن يظفر بالمال ويعود إليها سالماً .

وارتجف أنطونيو ؛ وخشى العاقبة . أيقن أن مارينو لو عاد منصوراً فلابد أن يقهره ويسلب منه قلب تيريزا . فحزم أمره ، وتقدم إلى الفلاح

الأجير والد الفتاة وطلب منه يد ابنته .

ولكن تيريزا ماطلت وراوغت وأبت إلا أن تنتظر .

وانتظر الجميع على أحر من الجمر ؛ ولكن مارينو لم يعد .

انقضى الليل بطوله ولم يعد . وانقضى اليوم التالى بطوله أيضاً ولم يعد . فانطلق الصيادون يجوبون أطراف البحر باحثين عنه ، ولكنهم لم يعثروا إلا على القارب الصغير ، يترنح وحيداً خائراً يائساً بين الأمواج .

ومع ذلك ، وخشية أن يظهر مارينو فى اليوم الثالث فجأة ومعه المال ؛ وحول شخصه هالة من روعة المجد والتضحية ؛ كشر أنطونيو عن أنيابه ؛ وأصر على أن يقترن بتيريزا فى اليوم نفسه وإلا تخلى عنها وقطع كل صلة له بها .

وروع الفلاح الأجير ؛ واستهول الأمر وعز عليه أن تفقد ابنته زوجاً ثرياً لم يكن ليحلم به . فانتهرها وزجرها وضيق عليها الخناق. فثبتت الفتاة وقاومت وأرادت أن تنتظر أيضاً . ولكن والدها وقد عيل صبره ؛ هددها بالضرب والطرد ، فلم تستطع إلا أن تمتثل لأمره وهى تجهش بالبكاء .

وزين الصيادون قواربهم بالمصابيح والأعلام احتفالا بالعرس ، وبرزت نساؤهم وبناتهم فى أبهى الحلل ؛ وانسابت القوارب فى اتجاه الشاطئ تتهادى ؛ وعليها الرجال والنساء والأطفال يغنون ويهتفون .

وراق لنفر من الصيادين أصدقاء مارينو أن يغنوا بعض ألحانه . ولكن أنطونيو وقد اضطرمت فى صدره عوامل الحقد ولعبت برأسه نشوة الزهو والنصر ، أبى فى يوم عرسه إلا أن يغنى الجميع ألحانه هو . فطفق يبدر النقود على الصيادين ، فتألبوا عليه بقواربهم ، والتقطوا النقود وهم يهللون وراحوا يغنون ألحانه الغثة الرخيصة ، وتيريزا تنظر إليهم نظرة ملؤها الزراية والاحتقار ، وقد انقبض قلبها ، وانسحق حلمها ، وباتت أشبه بفريسة خانتها روح المجالدة والكفاح ، فوقعت فى شبكة الصياد خائرة عاجزة متخبطة .

وارتفعت فى الجو أغانى أنطونيو ؛ وشوهت تفاهتها جمال البحر ، ولكن الصيادين المتكالبين على المال مضوا فى إنشادها . فأدركت تيريزا أنهم قد باعوا أنفسهم بالمال مثلها ، فثار ثائرها ؛ وهمت بأن تصارحهم جميعاً باحتقارها وبغضها ؛ ثم تلقى بنفسها فى البحر وتستريح . ولكن شبابها كان أقوى منها ، فخضعت لسلطانه ، وأسلمت نفسها لحكم القدر .

وكان من عادة الصيادين فى تلك القرية الاحتفال بأعراسهم وفق تقليد خاص . فكان العريس يخرج إلى الشاطئ بعروسه قبيل موعد الإكليل ، ثم يهبط بها أحد القوارب ، ثم يطلب إليها أن تلقى بيدها الشبكة فى البحر فإذا أصابت الشبكة عدداً وافراً من الأسماك كان حظ العروسين سعيداً ، وإلا فيجب أن يقضيا بعد الزواج أسبوعاً كاملاً فى الصوم والصلاة كى يهبهما الله حياة موفقة وذرية صالحة وعمراً مديداً .

فلما دنت هذه اللحظة المرتقبة ، تقدم أنطونيو ولوح بذراعه هاتفاً باسم تيريزا ، ثم التفت إلى أحد الأطفال الذين كانوا يحملون سلال الورد ، ورفعه بين ذراعيه وقبله ، ثم اختطف من سلته وردة ألقى بها فى الفضاء ، فسقطت فى قارب كبير هو القارب الذى يجب أن يهبط إليه العروسان وتلقى منه تيريزا بالشبكة فى البحر .

وتعالى الهتاف قاصفاً مدوياً ، ثم تلاه نشيد دينى رائع ردده الجميع على حين كان أنطونيو يأخذ بيد عروسه ، ويهبط بها إلى جوف القارب الكبير .

وأمسك أنطونيو بالشبكة ثم عانق تيريزا وهى متجهمة صامتة ، ثم انحنى أمامها وسلمها مقبض الشبكة ، وصاح بها الصيحة التقليدية وهو يبتسم :

— كل كنوز البحر ملكك يا عروس البحر الساحرة !

فغالبت تيريزا عواطفها جهدها ، وضمت أصابعها على مقبض الشبكة

ثم طوحت بها يمنة ويسرة ثم أطلقتها دفعة واحدة ، وألقت بها فى البحر .

وسكنت حركة الصيادين ، وهدأ رقص القوارب ، واحتبست الأنفاس واشرأبت الأعناق ، وشاع فى الجو صمت زافر عميق .

وانحنت تيريزا وجعلت تجذب الشبكة بملء قواها ، ولكن الصيد فى جوفها كان ثقيلاً . فلم تستطع واستنجدت بعريسها ، فضج الجميع بالمتاف ، وتزاحم الصيادون حول القارب وشرعوا يهتفون :

ـ صيد عظيم ! اجذب الشبكة يا أنطونيو ! ...

فشمر الشاب عن ساعديه ، وطفق يجذب الشبكة وهو يضحك ، فمال القارب وأوشك أن يسقط بمن فيه. ولكن أنطونيو أسرع وانتزع الشبكة فى عنف وألقى بها فى القارب . فصاح الصيادون يتبعونه النظر :

ـ الصيد للعروس ! .. لا تلمس الشبكة ...

فتقدمت تيريزا ، وجثت على ركبتيها ، ولكنها لم تكد تمد يدها المرتجفة وتطل برأسها لترى الصيد حتى انخلع قلبها ، واندلعت عيناها ، فتراجعت مأخوذة مسلوبة ، وظلت تحدق إلى الشبكة وقد جمد الدم فى عروقها.

أبصرت حبيبها نفسه ، حبيبها مارينو ، جثة هامدة تتقلب بين الحبال ، جاحظة العينين ، مصفرة الشفتين ، مضمومة اليد اليمنى على كراسة كانت لا تفارق جيب الموسيقى وكان يدون فيها ألحانه ، ومضمومة اليد اليسرى على رزمة من الأوراق المالية كانت هى المكافأة التى أعلن عنها القبطان والتى فاز بها العاشق البطل على غير جدوى !

عندئذ ، تاه فكر تيريزا ، وسحقها الرعب واليأس . فصرخت من أعماق قلبها المتفطر :

ـ مات مارينو من أجلى ! ... مات من أجلى !

وتحولت صوب والدها وصاحت :

ـ هذا العرس لن يتم . لن أكون أبداً زوجة أنطونيو !

فبهت الصيادون ، وذهل الفلاح الأجير لحظة . ثم عصفت به نوبة

غضب هائلة ، فانقض على ابنته ، وأمسك بها من ذراعها ، وجذبها من القارب وهو يصرخ :

ـ يجب أن يتم الإكليل. الكهنة فى انتظارنا ولابد أن نذهب إلى الكنيسة .

فتملصت الفتاة من والدها جهدها ، فأحنقه عصيانها . فتمكن منها ، وأبى إلا أن يهبط بها من القارب عنوة . فجن جنونها وغافلته وهو يهدر ، واستجمعت قواها ، وحاولت أن تلقى بنفسها فى البحر . ولكن أنطونيو أسرع إليها ، واحتواها بين ذراعيه ، وطفق يقبل يديها ، ويلثم أطراف ثوبها . ويوشك أن يجثو عند قدميها وهو يصيح :

ـ لن أجبرك على ما تكرهين ياتيريزا !

فهدأت ثورة الفتاة وتطلعت إليه . فطوقها بذراعه ثم رفع رأسه ونظر إلى الجمع المحتشد ، وقال فى صوت ثابت واضح جهير :

ـ لقد مات مارينو بسببى . ومادمت أنا المسئول عن موته فيجب أن أكفر عن ذنبى بأن أبعثه من جديد إلى عالم الأحياء . إنه موسيقى نابغ ، أما أنا فملحن شائع غير موهوب . ولكنى رجل ثرى ، وفى وسعى أن أستخدم مالى لإنقاذ عبقرية صديقى ، وإذاعة اسمه ، ونشر ألحانه ، وتخليد ذكراه .

وانحنى على الجثة ، وانتزع الكراسة الكبيرة التى كان يدون فيها مارينو ألحانه ، واستطرد متجهاً نحو الفتاة :

ـ إسمعى ... إسمعى يا تيريزا ... أنت تحبين مارينو . ولكن أية قيمة لحب عقيم لا يخدم الذكرى . لقد كنت صادقة الحب والوفاء ، فاقبلينى زوجاً لك ، أعاونك بقلبى وحبى وندمى ومالى على إحياء ذكرى فقيدنا النابغة الشهيد . الكلمة الآن لك ، وسواء أقبلتنى زوجاً أم نبذتنى ، فأنا لن أحنث بيمينى ، ولن أعيش إلا لتخليد عبقرية مارينو !

فأجفلت الفتاة ولم تصدق سمعها . وتحولت إلى أنطونيو مبهوتة مأخوذة.

فألفته وقد أضفت عليه لأول مرة مشاعر النخوة والشهامة والرجولة حلة رائعة من النبل والشرف ؛ يبسط إليها يديه مستجدياً ؛ وينظر إليها نظرات ملؤها الحب والحنان والتمديس . فتأملته لحظة ؛ وأيقنت من صدقه . فارتمت عليه فجأة وبكت . فأطلق أنطونيو صرخة فرح مدوية ؛ وتلقى الفتاة بين ذراعيه .

وهتف الصيادون مهللين . فلم يمهلم أنطونيو ؛ وأمرهم بأن يغنوا جميعاً لحناً معيناً من روائع ألحان مارينو .

وانطلق هو يغنى وتبعه الصيادون . فجاشت نفس تيريزا ، وصاحبتهم فى الغناء هى أيضاً ، وقلبها يتفطر سعادة ودمعها يسيل ...

جوستاف فلوبير

أو

بين الاستعباد والحرّية

جوستاف فلوبير هو القصصى الفرنسى الكبير مؤلف « سالامبو » و« التربية العاطفية » و « مدام بوفارى » تلك القصة التى تعد أثراً خالداً من آثار الأدب الإنسانى الواقعى .

كان فلوبير رجلا يقدس فنه ، ويعيش من أجله ، ولا يعتقد أن فى العالم فتنة بالغة ما بلغت من الروعة يمكن أن تصرفه عن هذا الفن .

كان رجلا مصاباً بشبه لوثة ، يحب العزلة ويكلف بالتأمل وينفر من الناس ، ويقضى سحابة يومه فى داره يطالع ويكتب ثم يتلو على نفسه ما كتب بصوت جهير يملأ قلبه غبطة وفرحاً .

كان يؤمن إيماناً راسخاً بأن خيال الفنان هو كل شىء ، وأن الحياة بأسرها قد جمعت فى خياله المتقد ، وأن الطبيعة قد حشدت فى ذهنه الخارق من الأشكال والألوان والظلال ما يغنيه عن المرأة وعن التطلع إلى أى حافز عاطفى .

فالحافز عند فلوبير كان العمل لا المرأة . ولذا فقد كان يعمل الساعات الطوال ، ويظل بالعبارة الواحدة يصقلها وينحتها حتى تخرج مصقولة كاملة ، أبدعتها يد صائغ فذ .

وكان فى نظرته إلى المرأة يقتدى بالروائى العبقرى « بلزاك » ، ولا يفتأ يردد مثله : « إن أجمل بدن لأجمل امرأة لا يساوى سطراً واحداً يخطه قلمى ! . . . »

وكان فلوبير سعيداً كل السعادة بهذا الإيمان ، لا يتوق فى الحياة إلى أية لذة ، ولا يسعى إلى أى نعيم ، ولا ينزع إلى أى ترف مادى ، ولا يطلب من الدنيا أكثر من حياة متواضعة يستطيع أن يستخدمها خياله لإبداع روائع الأعمال التى يزخر بها عقله . ولطالما نصح له أصدقاؤه بالزواج . ولكنه كان يكره أن تسلب منه المرأة ولو جزءاً من

وقته ، وأن تهبط به فتعكر مجرى حياته ، وتفسد جمال وحدتها ، وتملؤها صخباً وضجة وعبثاً .

ومع ذلك فقد كان فلوبير رجلا قوى البنية ، مديد القامة ، مفتول العضل ، جم الحيوية ، يحس من نفسه فى أحيان كثيرة رغبة عنيفة فى المرأة . فيتألم فى صبر ، ويجاهد فى صمت ، ويكبح جماح أهوائه ويلجأ إلى « البرومور » يقر به الهدوء فى حواسه وأعصابه .

وشاء القدر أن يحب هذا الرجل حباً مبرحاً لم يكن فى حسبانه أبداً .

أولع بسيدة تدعى « لويزكوليه » مديدة القامة مثله ، عريضة الكتفين ، ناهدة الصدر ، ممتلئة صحة وجمالا وحياة .

كانت أديبة ، وكانت تعجب بأعماله وتفهمها وتناقشه فيها . وكانت إلى ذلك ملكة من ملكات الصالونات ، ذات سحر أنثوى خلاب مقرون بموهبة شعرية نامية ، فأحبها فلوبير ، وخيل إليه أنها الإلهام والوحى ، وفكر فى لحظة من اللحظات أن يتخذ منها زوجة له .

وتوثقت بينهما الصلات . فكانت تكتب إليه رسائل شائقة ، وكان يبعث إليها برسائل يتجلى فيها صراعه النفسى العنيف ، ذلك الصراع الذى قام بين حبه لفنه وإخلاصه له وتفانيه فيه ، وبين حبه تلك المرأة وهيامه بها وخوفه الشديد من أن يطغى عليه حبها فيفقده حب العمل فى هدأة العزلة والتأمل والتفكير .

ومع ذلك فقد نسى كل شىء فى سبيل لويزكوليه .

انطلق من محبسه وشرع يقتفى خطواتها . أهمل فنه وجعل يغشى الصالونات ليراها . تبرم بكتابة القصص ومضى يكتب لحبيبته رسائل الغرام .

ولما ازدادت علاقتهما توثقاً ، انقد الحب فى صدر فلوبير وعصف به الشيطان ، الشيطان الجاثم فى نفس كل عاشق مفتون ، شيطان القلق والتوجس والشك والغيرة . فكان يغار على المرأة من أقاربها ، من أصدقائها

من رهط الأدباء والفنانين المعجبين بها . بل لقد ذهب فى غيرته المخبولة الجامحة إلى حد أنه حرم عليها الاتصال بطائفة معينة من الأصحاب ، وحرم عليها الخروج من بيتها إلا بإذنه ، وحرم عليها ارتداء الفساتين الصارخة الألوان والظهور بأثواب تكشف عن الصدر والذراعين وتغرى بها الرجال .

واستفحلت غيرته ، واشتد جبروته ، وبات بين الحب والغيرة شبه مجذوب . فروعت لويزكوليه ، وضاقت ذرعاً بغيرته ، ولم يعد فى مقدورها أن تحتمل وتصبر . فابتعدت عنه أياماً ثم بعثت إليه بالرسالة التالية :

« لماذا تغار على بهذا العنف ؟ . . .

أمجنون أنت يارجل ؟ . . أتظن أن فى وسعك أن تحرمنى من التمتع برؤية الناس ، والاتصال بهم ، والتحدث إليهم فى المجتمعات والصالونات؟.. كيف يمكن أن توفق بين أفكارك السامية ومبادئك الحرة ، وبين هذه الغيرة الطائشة التى تلاحقنى بها ، وتحاول أن توقعها على كحكم الإعدام؟!

أنا لا أفهم الحب على هذه الصورة ، ولا أستطيع أن أتصور السعادة فى صحبة رجل إلا إذا كان صدرى عامراً بالكرامة ، ونفسى زاخرة قبل كل شىء بنعمة الحرية .

الحرية عندى فوق الحب ، والكبرياء فوق السعادة ، واحترام النفس وتقدير الشخصية فوق كل متعة وكل نعيم .

وإنى لأسألك أية قيمة للحب بدون ثقة ، وأية قيمة للقبلة بدون إيمان ، وأية قيمة للهبة الروحية والجسمانية الكاملة إن لم تقترن براحة فى النفس ، وسلامة فى النية ، وبراءة فى الفكر والقلب والضمير ؟ ! . . .

أن الثقـــة المتبادلة هى التى تولد الراحـــة . ولا ثقـــة بدون خبرة ، ولا خبرة بدون معرفة . ولقد عرفتنى وخبرتنى ، ونفذت بعقلك الثاقب إلى أعمق أعماق نفسى . فكيف تريد اليوم أن تستعبدنى ، وكيف يطاوعك ضميرك على أن تجعل منى ، أنا المرأة التى تزعم أنك تحبها ،

مخلوقاً لا شخصية له ولا كرامة ولا إحساس ؟ ! .

إنك بغيرتك المجنونة تنزل عن عرشك ، وتحط من قدرك ، وتجرد نفسك من كبرياء الرجولة التى من أجلها أحببتك ! .

والحق أنك بهذه الغيرة تعلمنى الخبث ، وتدفعنى إلى الكذب ، وتسوقنى إلى الدهاء ، وتزين لى أن أخدعك انتقاماً منك وجزاء لك على عدم الثقة بى .

فهل يرضيك أن تنتهى علاقتنا هذه النهاية ؟ ... هل يرضيك أن تذلنى وتمتهننى ، أنا التى كنت أصبو إلى الحرية على يدك ، وإلى التفوق فى ظلك ، وإلى السمو الروحانى والفكرى أستمده من نبوغك وعبقريتك ؟! لا ... لا تجردنى من ثوب كرامتى . لا تنتزعنى من مقدس كبريائى . لا تنتهك بغيرتك الطائشة حرمة نفسى .

فثب إلى رشدك واهدأ . اكبح جماح غيرتك وفكر . كن ماشئت ولكن لا تهور . اقتلنى ولكن لا تهمنى فى شرفى ، فإنه لأحب إلى أن أموت مرفوعة الرأس عزيزة النفس مكفولة الكرامة من أن أعيش يرمقنى الناس بالنظر الشزر ، ويجللنى من أحب بشبهة الخزى والعار .

ففكر طويلا وتأمل . إما أن تخنق غيرتك وإما أن تتركنى . إما أن تثق فى ، وإما أن تنصرف عنى . إما أن تحترمنى وإما أن تفقدنى !

وينبغى أن تفهم يا أعز الناس عندى ، أن المرأة لا تحب الرجل بقدر غيرته عليها ، بل تحبه بقدر إخلاصه لها ، واحترامه إياها ، وتنزيهه قلبها ونفسها عن جميع الشبهات .

هكذا أريد أن تحبنى . فإن طاوعتنى فأنا لك ، وإن أودعت الثقة فى نفسك ونفسى ، فأنا متأهبة للزواج بك منذ الغد ، وإلا فليس فى مقدورى إلا أن أقول لك والحسرة تملأ نفسى كلمة واحدة هى : الوداع الوداع إلى الأبد ياحبيبى . »

وانخلع قلب فلوبير بعد أن طالع هذه الرسالة . هاله أن يفقد

المرأة كما هاله أن يظل فريسة لمتعة الحب والغيرة ؛ لمتعة الفرح والألم ؛ لمتعة النعيم الذى يعقبه فى هوس الغيرة جحيم . فالتمس إلى المرأة أن تصفح واستسلم لها مكرهاً ، بل نزل على حكمها صاغراً ، وكف عن غيرته ووثق فيها وآمن بصدق إخلاصها وولائها .

وعندئذ تبدلت المرأة نفسها . . .

لم تكد تشعر أن الرجل قد استلان لها ، ومكنها من قلبه ومشاعره . حتى ارتدت إلى غريزتها النسوية الغاشمة .

أصبحت هى التى تغار فى عنف على حبيبها ، وهى التى تضيق عليه الخناق . وهى التى تحرم عليه استقبال أية امرأة فى بيته ، وهى التى تنشىء خيلاء وعجباً كلما أحست بسلطانها واستوثقت من تأثيره العميق .

وأرادت أن تستأثر بالرجل ، أن تتحكم فيه ، أن تحوزه الحيازة التامة وتخضعه وتطويه . فاختبل الرجل أول الأمر . فقد حكمه على نفسه . تشبث بالمرأة جهده . فأحدقت به ، وضربت الحصار حوله ، وأغرقته فى لجة من الحب كان يعب فيها وهو تائه ومذهول .

بيد أنها كانت لا تفكر ولا تشعر ولا ترى . لا ترى مبلغ العذاب الذى يعانيه فلوبير .

استسلمت لأنوثتها وأسرفت فى السيطرة على الرجل كى تبقيه لها وحدها وتحتفظ أبداً به وتجعل منه متاعها . فاستفاق فلوبير بغتة ، وحدق إلى المرأة وارتعد . . .

أبصرها مخلوقاً نصفه ملك ونصفه وحش ، وأبصر نفسه إنساناً مستعبداً ، مسلوب الكرامة والحرية ، ضائعاً شريداً متخبطاً ، موزعاً بين الكسل والهوى ، بين النشوة والهمود ، بين الشهوة والاشمئزاز ، بين المتعة والعدم . ثم تلفت حوله وارتمى على مكتبه ، وجعل يقلب فى أوراقه . فتبين له أن ما كتبه فى تلك الفترة كان غثاً ، وما اعتقد أنه طريف كان شائعاً . فثار ثائره . خشى أن تصيبه المرأة بعقم/مروع فى ملكاته ومواهبه

فلم يحتمل . عزت عليه نفسه . كبر عليه أن تخنق هذه الأنثى الدخيلة المستبدة عبقريته . فاستجمع قواه وصد عنها . تذرع بشتى الوسائل وفر منها ، ثم أغلق بابه فى وجهها آخر الأمر وأبى أن يستقبلها . فاستهولت قسوته وجفاءه ، وأحنقها منه أن يطعنها فى كبرها وفى صميم أنوثتها وأن تغدو هى المهزومة بعد أن كانت هى الظافرة . فراحت تغتابه فى المحافل العامة ، وتعرض به ، وتسخر من أعماله الأدبية ، وتأمل — ولذة الحقد والانتقام تنهشها — أن يضعف الرجل ، وتفتر إرادته ، ويكل عزمه ، ويرتد من تلقاء نفسه إليها .

بيد أن فلوبير ظل فى ثباته راسخ العزم قوياً . فتاه عقل المرأة وبرح بها الحنق ولم تتردد .

غافلته ذات مساء واقتحمت داره ودخلت عليه وهو يكتب . فما إن رآها حتى رأى فيها صورة الآدمى الوحش الذى أوشك أن يفترسه . فأهاب بها أن تنصرف فلم تتحرك . ففقد بغتة صوابه ، وانقض عليها ، ومد ذراعه وأطلق أصابعه كأنها المخالب وكاد أن يخنقها .

وفى تلك اللحظة أدركت المرأة أنه قد بات يكرهها وأن كل شىء بينهما قد انتهى . فحنت رأسها مقهورة وذليلة ، وضمت معطفها على ثوبها الحريرى الأحمر ذى الصدر المكشوف ، وأرسلت نفساً مستطيلا يشبه الأنين وخرجت .

وإذ ذاك ، إذ ذاك فقط ، تنفس فلوبير الصعداء ، وأسرع وتناول جرعة من « البرومور » ، ثم ارتمى على مكتبه ، وشرع يكتب وهو يردد عبارته المشهورة « الإنسان لا شىء . العمل الفنى هو كل شىء ! ... »

ماريا بتروف
أو
عبقرية أم

« وقعت هذه الحادثة الغريبة فى عهد القيصر إسكندر الثانى ، وكانت حديث روسيا كلها . وقد أشار إليها المؤرخ الفرنسى جاك موران فى كتابه عن حياة الفنانين الروس فى عهد القياصرة » .

* * *

كانت الريح تزأر ، والرعد يقصف ، ووميض البرق يخطف الأبصار ، ومدينة بطرسبرج منكمشة وهامدة ، ينهمر عليها المطر كسيل ليس له من نهاية .

وكان المستشفى الكبير الواقع فى إحدى ضواحيها ، منطوياً هو الآخر على نفسه ، جاثماً فوق ربوة عالية تهزه الريح ، ويضربه المطر من كل صوب .

وكان فى إحدى حجراته شاب جميل الصورة ، أسود الشعر ، واسع العينين ، ملتهب الوجنتين ، ممدداً على فراشه ، ينظر من نافذة صغيرة إلى السماء المكفهرة ، ويعض شفتيه ويتلوى ، ويوشك أن يصرخ ويبكى من فرط الألم .

وأجال الطرف حوله ، وهم بأن يدق الجرس ويدعو الممرضة لإسعافه . ولكنه هز رأسه يائساً متحسراً ، وآثر أن يتحمل الألم متجلداً ، ولا يزعج فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل أى إنسان .

اختلج بغتة . أرهقه جهد المقاومة والاحتمال . فلم يستطع أن يكبح ألمه ، وانفجرت الدموع من عينيه .

ظل يبكى وفكره عالق بدائه ، حتى زايلته نوبة المرض فأرسل زفرة ثم انكفأ على نفسه ، خائر الأعصاب ، محطم القوى .

ولبث مستغرقاً فى نشوة الراحة لحظة ، ثم فتح عينيه . سرح البصر فى الغرفة . مد ذراعه فى رفق ، ودسها تحت وسادته ، وانتزع صورة

صغيرة ما كاد يتأملها حتى أشرق وجهه ، وأبرقت أساريره ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة عذبة قريرة هانئة .

وكانت الصورة لفتاة رائعة الجمال ، ذات شعر متهدل غزير ، وعينين مرحتين ضاحكتين ، وجبهة عريضة ساطعة وفم صغير نائىء تلمع ثناياه البراقة ، ويشبه ثمرة شهية أو زهرة متفتحة .

وطفق الشاب ينظر إلى الصورة ويرتجف .

وغلبته عواطفه ، فقبل الصورة قبلة طويلة محمومة ، ثم أجهش ثانية بالبكاء .

أين هى ؟ . . أين سونيا الفاتنة التى سلبت لبه ، وغزت قلبه ، وأيقظت عقله ، وأحالته بين عشية وضحاها من إنسان خامل مغمور إلى موسيقى نابغ مبدع يشار إليه بالبنان ؟ . . أين المغنية العظيمة والفنانة الموهوبة والمرأة التى فى مقدورها أن تهبه القوة والشفاء والحياة .

أجل . . إنها فى خياله ، فى حلمه ، فى عمق أعماق نفسه ، ولكنه يريد أن يراها ، يريد أن يلمسها ، يريد أن يودعها ، يريد أن يتوسل إليها أن تمنحه بيدها المعبودة الراحة الكاملة والشفاء الأبدى . .

وانجاب طيفها بعض الشىء عن ذهنه ، ومثل أمامه طيف أمه العجوز . فتمزق قلبه شفقة ولوعة . ولكنه ما إن تذكر مرضه ، وفكر فى حالته ، ونظر إلى بدنه الواهن الخائر الهزيل ، حتى عاودته شجاعته ، فهتف من أعماق نفسه وهو ينتفض : كن رجلا يافيدور . تفوق على ضعفك . تفوق على جبنك . احتقر الحياة وانبذها فهى سلسلة آلام قاسية لا جدوى لك من احتمالها ما دام الموت المحتم يكمن خلفها . ويقف لك بالمرصاد ! . .

ولم يروعه شبح الموت . بل روعه شعور الخوف . خاف أن ترفض سونيا ما سوف يلتمس منها أن تقوم به . . . خاف أن تمتنع عن زيارته .

خاف أن تضعف وتحجم وتستخذى وتتركه فريسة هذا الألم الذى لايطاق .

وتحامل على نفسه ، ونهض من فراشه . دنا من النافذة وطفق يحدق إلى السماء الحالكة ، والمطر المنهمر ، والجليد المتساقط على الربوة العالية ، والنور الخافت المنبعث من محطة الضاحية ، والمتراقص عن بعد كبصيص من الأمل المنشود .

وفجأة ، هلع قلبه واتقدت عيناه ، إذ طرق سمعه صوت زحافة صغيرة يصهل جوادها . فاستجمع مدخر قوته ، واتجه بخطى وئيدة صوب الباب ، وهم بأن يفتحه . وعندئذ ترامى إليه الصوت الساحر الذى يجلجل كأجراس العيد ، فلم يصدق سمعه ، وأوشك من فرط الفرح أن يهوى على الأرض . ولكن الباب فتح فى تلك اللحظة ودخلت منه الممرضة مصحوبة بأمه العجوز وسونيا .

وأخذ الفرح بمخنقه ، فاستند إلى حافة السرير ثم أسرع فتسدد عليه خشية أن تفاجئه نوبة المرض فتصرعه وتحول بينه وبين توديع سونيا . غير أن النوبة لم ترحمه بل اشتدت بغتة عليه وأشاعت التشنج فى أعضائه . فأخذ يصرخ ويتلوى ويجأر ، وسونيا تضمه فى جنون إلى صدرها ، وأمه العجوز تولول وتندب حظه وحظها ، والممرضة الملهوفة تسرع إلى نجدته بحقنة من المسكن الذى أشار به الطبيب .

ولم تستطع الأم رؤية ابنها يتعذب على هذه الصورة . فانهارت قواها . فنقلوها إلى غرفة بعيدة ، وأبوا إلا أن تظل فترة طويلة بمعزل عن ابنها ، وتركوا سونيا فى حجرة المريض تفرج عنه ، وتسعفه ، وتقضى الليل بجواره .

* * *

وفتح فيدور عينيه المتقرحتين ، ونظر إلى سونيا وغمغم :

— أين أمى ؟ . . .

فأجابت :

— إنها تستريح فى الغرفة المجاورة .

فاستوى المريض على فراشه . وحدق فى الفتاة المعبودة التى يعقد عليها كل أمله . ثم تناول يديها وقبلهما فى خشوع ؛ ثم استنهض ميت قوته . وقال فى صوت هادئ غائر أجش : وهو يحضن الفتاة وهى تهدهده بين ذراعيها الرقيقتين كأنه طفلها : اصغى إلى جيداً ياسونيا . لولاك ما كنت شيئاً مذكوراً . أنت التى قدرتنى ، ورفعتنى ، وغنيت بصوتك الساحر ألحانى فغنتها معك روسيا بأسرها . لقد بعثتنى من الظلمة إلى النور ، من ظلمة الخمول إلى نور المجد ، من ظلمة القلب إلى ضياء الروح ! . . لقد منحتنى النعمتين العظيمتين اللتين يتهالك عليهما الناس : المجد والحب ؛ فأصبحت بفضلك إنساناً يحالفه القدر وتحسده الآلهة ! . . . ولكن القدر يا معبودتى لا يحالف إلا ليغدر ، والآلهة لا تعطى إلا لتأخذ . ولقد أبت تلك الآلهة إلا أن تأخذ منى فجأة كل شىء وتحرمنى من كل شىء . لن أستطيع أن أتزوج . ليس فى وسع القدر أن يبدل حكمه وأن يهبك لى ويهبنى لك . . . يجب ، يجب أن تموت سعادتنا قبل أن تولد ، ويجب أن تموت عبقريتى قبل أن تنمو وتؤتى ثمارها . ذلك هو الحكم المرصود لى !

فصاحت سونيا وشعرها الغزير يطوقه ، وعيناها المرحتان تفيضان بالثقة والأمل : ولكنك ستشفى . لابد أن تشفى ، ولابد أن أمثل الدور الأول فى مسرحيتك الغنائية التى تم إعدادها ، ولابد أن أكلل هامتك بالنصر .

وأردفت وهى تبتسم لترفه عنه :

— كنت أراجع دورى بالأمس مع والدتك . لم تنس تلك المرأة الطيبة أنها كانت هى الأخرى ممثلة ومغنية شهيرة . أؤكد لك أن صوتها ما يزال بديعاً . لقد اختطفت منى الكراسة ، وشرعت تمثل وتغنى دورى ،

وتمدنى بالنصائح والإرشادات ، وتؤدى ألحانك فى رقة وحرارة وحماسة أدهشتنى . إنها فنانة بالفطرة ولولا شيخوختها لنصحتها بالعودة إلى أضواء المسرح !

فتمتم فيدور :

ــ لقد أصبحت أمى هيكل الفن العظمى . أما أنت ياسونيا فروحه ولحمه ودمه !

وأتأد لحظة ثم رفع إليها بصره الحاد ، وقال فى صوت عميق وهو يواجه عينيها المرحتين :

ــ وأما أنا ، أنا الذى كنت أثق فى نفسى ، وفى حظى ، وفى نجمى ، وأنظر إلى المستقبل بعين الفاتح الظافر ، فقد انهارت كل أحلامى يا سونيا ، وقضى على القضاء المبرم .

فارتعشت الفتاة ، وحملقت فيه مستفسرة . فقبض على يدها وصرخ وقد اندلعت عيناه وشاع فى قسماته اليأس والذعر : لن أعيش يا سونيا . الموت يتربص بى . الموت يرفرف على . الموت يطوينى منذ الآن بين أجنحته وإن كنت لا أعرف ساعتى ولا اللحظة التى سألفظ فيها النفس الأخير !

وانحنى عليها وهمس فى أذنها وهو يختلج : أتعلمين ما هو اسم المرض الذى أشكو منه والذى اتفق فى تشخيصه جميع أطباء المستشفى؟.. أنه السرطان . . . أجل أنا مصاب به . مصاب فى معدتى ، ومن المحال أن أشفى . . . وسواء أأجريت لى عملية جراحية أم عولجت بالعقاقير ، فموتى محتم ياسونيا ولن أخرج من هنا إلا إلى مثواى الأخير .

فجحظت عينا الفتاة ذهولا ورعباً وحاولت أن تتكلم . ولكن فيدور استطرد صارخاً : الموت لايخيفنى ولكنى لاأريد أن أتألم ! . . . لايمكنك أن تتصورى الألم الذى أعانيه . إنه ألم ممزق ساحق فظيع . أية فائدة من تحمل هذا الألم ما دام الموت هو القدر المحتوم . لو انى كنت واثقاً من

شفائى ؛ ولو بعض الثقة : لرحبت بأقصى الآلام عن طيب خاطر وكنت سعيداً . ولكنى يائس من الشفاء ، وجاهل بالساعة التى سيهبط فيها الموت على . فأنا لا أريد أن أظل فريسة لهذا الألم المروع حتى أموت . كلا . . . لا أريد أن أصبر عبثا ولا أريد أن أحتمل عبثاً ... لهذا كتبت إليك ودعوتك . . . دعوتك وحدك . . . ما كان يجب أن تصحبى أمى يا سونيا . كان عليك أن تأتى بمفردك . ولكنى أشكر الله وأحمده لأنها ليست بيننا . . . فاصغى إلى الآن يا سونيا ولا تضعفى .. شجعينى ولا تخذلينى . اخنقى الحب والرحمة فى قلبك وساعدينى ، بل انصتى لصوت العقل واعلمى أن الحب والرحمة يقضيان عليك بأن تعجلى بعرتى وتنقذينى !

وحدق إليها تحديقاً ثابتاً ، وأردف :

ــ هل جئت بالحقيبة الصغيرة التى طلبتها منك ؟

فتلفتت سونيا حولها كمخبولة ؛ وأومأت بأصبعها إلى الحقيبة التى كانت قد ألقت بها فى إحدى زوايا الغرفة عندما دخلت . ثم أشرق ذهنها بغتة ، فاندفعت ، واختطفت الحقيبة ، وصرخت :

ــ إن مفتاحها معك . إنها ثقيلة . ماذا يوجد بداخلها ؟ . . أجبنى وإلا فلن أسلمك إياها أبداً .

فهتف فيدور من أعماق قلبه :

ــ الرحمة يا سونيا . لقد شاهدت عذابى ، فإذا كنت حقاً تحبيننى فلا تعترضى طريق خلاصى .

فضمت الفتاة الحقيبة إلى صدرها وتمتمت وهى تزفر :

ــ أبداً . . . هذا محال . . . إن مسدسك فى هذه الحقيبة ولا ريب لن أعطيك إياها مهما توسلت . . . لن أقتلك بيدى !

فصاح فيدور :

ــ احذرى فقد يفوت الوقت وقد تستفيق أمى أو قد تدخل الغرفة

إحدى الممرضات . . . إعطنى الحقيبة إذا كنت حقاً تحبيننى .

فردت وهى تهدر :

ـ أبداً .

فقال بصوت حازم قاطع وهو يقطب حاجبيه :

ـ إذن فسأنتحر بأى شىء . . بأية وسيلة . . . سأنتحر بعد رحيلك وسأموت وأنا أكرهك !

فانخلع قلب سونيا ، وارتمت على السرير ، وقالت ملتمسة متضرعة وهى تنفجر بالبكاء :

ـ ارحم نفسك وارحمنى . هذا فوق طاقتى ، بل فوق طاقة البشر . أنت فى مقتبل عمرك ومن المحتمل أن تشفى . فثب إلى رشدك ولا تيأس .

فأشار بيده نحو الباب وقال وهو يرتعش :

ـ اخرجى .

وفاض سخطه واستنكاره وحنقه ، فناء عليه المرض . أصابته نوبة مفاجئة طاغية ، فعض أسنانه على منديله ، وأمسك بطنه بيديه ، ومضى يئن ويتلوى ، ثم طفق يصرخ ويستغيث ، وهو محتقن الوجه ، زائغ العينين ، مغفور الفم ، شبه معتوه فذدلت سونيا ، وملكها الرعب .

وإذ ذاك دخلت الأم العجوز متهافتة ومذعورة وفى صحبتها الطبيب وبعض الممرضات . دخلت متوكئة على عصاً ، وصاحت وهى تضرب صدرها بقبضتها وتبكى :

ـ فيدور . . . ولدى . . .

وأحاط الجميع بالشاب ، وحاولوا أن يسعفوه . ولكن النوبة كانت ساحقة ، والمقاومة شديدة ويائسة . أما سونيا فلم تكد تخلو بالطبيب ، وتضيق عليه الخناق ، وتستوثق منه أن فيدور مصاب حقاً بذلك الداء المروع ، حتى هالها عذاب حبيبها ، وهجس فى روعها أن تترك له الحقيبة كى ينقذ نفسه ويستريح . ولكن الأم العجوز التى اعتقدت أن

فى الحقيبة فطائر وحلوى صنعتها سونيا لفيدور ، تحولت صوب الفتاة واختطفت منها الحقيبة وطلبت إليها أن تفتحها . فارتعدت فرائص سونيا خشية أن تبصر الأم المسدس ، ونظرت إلى فيدور . نظرت إليه وهو يجأر ويبكى ، فتقطع فؤادها ، ولم تطق أن تراه يتعذب عذاباً فوق طاقة إنسان . فدنت منه وهى فى شبه لوثة وهمست :

ــ أعطنى المفتاح . . .

فناولها إياه ملهوفاً . فأسرعت واستردت الحقيبة من الأم العجوز ، وفتحتها وانتزعت منها المسدس . وعندئذ أبصرت فيدور وقد حطمته النوبة ، مرتمياً على الفراش ، أصفر الوجه ، مغمض العينين ، مضموم الشفتين ، مستنزف القوى ، صريعاً صرعة لابد أن تعقبها صرعات وآلام . فتاه عقلها ، ومزقها الحب بل مزقتها الشفقة . فلم تتردد . وفى مثل لمح الطرف رفعت ذراعها وأطلقت النار .

فصرخت الأم العجوز وهى ترتمى عليها وتنشب فيها أظافرها :

ــ قتلت ولدى !

فصاحت سونيا :

ــ قتلته لأنى أحبه . . . أحببته أكثر من حياتى وأكثر منك أنت أمه !

وخارت قواها فسقطت على مقعد مغشياً عليها .

* * *

وقبض على سونيا ، وأودعت السجن ، ثم بدأت محاكمتها . وكانت مشاعر الأم العجوز قد تبدلت خلال هذه الفترة تبدلاتاماً . أدركت وهى ترى الخطر الذى يهدد حياة الفتاة ، أن سونيا لم تقتل فيدور إلا بدافع من الحب والرحمة ، وأنها بهذه الجريمة الصادرة عن القلب والعاطفة قد غامرت بشبابها وفنها ومستقبلها وحياتها كى تنقذ فيدور من آلام مبرحة وحياة شقية كان هو نفسه يتوق ويسعى إلى الخلاص منها .

وذكرت عذاب ولدها ، واستشعرت الراحة الأبدية التى أنقذته بفضل سونيا . فزايلها حقدها على الفتاة ، وأحست على دهش منها أن ابنها لم يمت ، وأنه حى بروحه وفنه فى شخص سونيا . فأحبتها أضعاف ما كانت تحب وحيدها ، وهالها أن تفقدها هى أيضاً ، فاستجمعت كل قوى حسرتها ولوعتها وحبها ، وآلت على نفسها أن تبذل المستحيل لتنقذ سونيا .

ونوديت لتأدية شهادتها . فلما مثلت أمام المحكمة أذهلت القضاة بالموقف العجيب الذى وقفته . لم تحمل على الفتاة ، بل دافعت عنها ، والتمست لها الرحمة ، ومضت تقول وتصرخ إنها هى أم القتيل تفهم نفس القاتلة ، وسلامة نيتها ، وتصفح عنها من صميم أمومتها ومن أعماق عذابها .

وبهت القضاة ، ولكنهم لم يتأثروا . روعتهم الرحمة فى مثل هذا الموقف خشية أن تعتبر سابقة مشجعة . فاتهموا سونيا بالقتل العمد مع سبق الإصرار وأدانوها وحكموا عليها بالإعدام .

ووقع الحكم على الأم العجوز وقع الصاعقة . أحست أنها على وشك أن تفقد كل شىء ، روح ابنها ، ومجده ، وجهاده ، وآيات نبوغه الممثلة فى فن سونيا ، فحزمت أمرها ، واعتزمت أن تذهب إلى القيصر نفسه ، وأن تلتمس منه أن يضع الرحمة فوق العدل .

وكان أهم ما يشغل الأم فوق رغبتها الصادقة فى إنقاذ حياة سونيا ، هو أن تخرج الفتاة أيضاً إلى النور كى تسترد جهاد فيدور ، وتؤكد نبوغه ، وتؤدى الدور الأول فى المسرحية الغنائية الوحيدة التى كتبها قبل مرضه والتى أجل مدير المسرح تمثيلها بعد أن أتم إعدادها .

وكانت الأم العجوز تعتقد اعتقاداً راسخاً ، اعتقاداً متعصباً عنيداً يشبه الإيمان ، أن هذه المسرحية كى تخلد اسم ابنها ، وتظهر فى الحلة الفنية الخليقة بها ، وتحدث فى نفوس الجماهير والنقاد الأثر المنشود

منها ، يجب أن تكون سونيا على رأسها ، تؤدى الدور الأول فيها ، وتبرز بسحر صوتها ، وفتنة أوضاعها ، ودقة تمثيلها ، كل ما حوته المسرحية من حقيقة وفن وجمال .

فهذه الغاية العظيمة المزدوجة ، إنقاذ حياة سونيا وتخليد ذكرى فيدور هى التى كانت تضطرم فى نفس الأم العجوز ، وتلهب عزمها ، وتحفز إرادتها ، وتدفعها إلى التقدم بخطى ثابتة نحو البهو الفسيح الذى كان فيه القيصر ينتظرها .

وكان يحكم روسيا فى ذلك العهد ، أى فى عام ١٨٦٢ ، القيصر إسكندر الثانى . وكان رجلا واسع الذهن ، كبير القلب ، ألغى الرقيق وأعتق العبيد ، وحاول أن يستكمل رسالة بطرس الأكبر وأن يجلب إلى بلاده حضارة الغرب .

وكان يعرف الأم العجوز حق المعرفة ، ويذكرها أيام كانت مغنية شهيرة ، وممثلة ذائعة الصيت ، تحمل اسم روسيا وفنها فى مختلف أقطار العالم المتمدين . فلما دخلت عليه ، رحب بها ، وقربها إليه ، وشرع يستمع لها .

وبذلت الأم العجوز من ماء قلبها وذهنها ، ما شاءت لها عزيمتها الراسخة ، وأملها العنيد ، ولوعتها الحارقة . ولكن القيصر لم يتحرك .

بكت وانتحبت وتوسلت ، ولكن القيصر لم يتأثر .

جثت أمامه على الأرض ، وقبلت قدميه ، وبللتهما بالدموع ، ولكنه أشاح عنها بوجهه ولم يتكلم .

كان يستهول فكرة الرحمة بمجرمة تحدت مشيئة الله واستعجلت حكمه ، كما كان يستهول اعتراض القانون الذى ينص صراحة على أن القاتل المتعمد يجب أن يقتل . فرفع رأسه فجأة ، وتأمل المرأة المسكينة وقال :

ــ ليس فى مقدورى أن أخفف تلك العقوبة العادلة ياسيدتى . كل ما أستطيع أن أفعله من أجلك هو السماح لسونيا بأن تغادر السجن

وتظل حرة طليقة شهراً واحداً يمكنها فى خلاله أن تمثل دورها فى المسرحية التى كتبها ولدك . . . إنها مغنية وممثلة موهوبة . وأنا أفهم أن فنها الخارق سيعاون على إبراز الجوانب الرائعة من مسرحية موسيقى روسى نابغ . فمن أجل الفن وحده ، ومن أجل مجد ولدك ، وفى سبيل تخليد ذكراه ، أهبك هذه المنحة التى هى أقصى ما يمكن لحاكم فى مثل هذا الموقف أن يعطيه . . . طاب يومك ياسيدتى .

ونهض القيصر ، فنهضت الأم العجوز ، ساهمة شاردة يسحقها أمل خائب ويحفزها أمل أخير ، وتبعت الجندى الذى أمره القيصر بأن يرافقها ، وذهبت فى صحبته إلى السجن لتطلق سراح سونيا فترة الأجل المحدود .

بيد أنها ما كادت تدخل الحجرة الضيقة المظلمة وترى الفتاة حتى بهتت وذهلت وانهار أملها . . . أبصرت سونيا غائرة العينين ، شاحبة الوجنتين ، هزيلة وضعيفة وخائرة ، ترقد على فراش أشبه بمحفات الجرحى ، وقد تحطمت أعصابها وزايلها كل ما كان فى شبابها الغض من قوة وحيوية ونشاط .

وتفطر فؤاد الأم العجوز حزناً عليها . فلما أنهت إليها رأى القيصر ، ابتسمت الفتاة ابتسامة ممزقة ، وأشارت إلى بدنها المضعضع ، وعز عليها ألا يكون فى وسعها أن تخدم بفنها ذكرى حبيبها . ثم اختلجت اختلاجاً عنيفاً ، وانفجرت من عينيها الدموع .

وخرجت الأم من السجن وقد عراها من فرط اليأس شبه خبال . . . أين تجد المغنية والممثلة العظيمة التى فى وسعها أن تنقذ مسرحية ابنها ، وتضرم فيها شعلة الجمال والفن ؟ . . . المسرحية تنتظر من يخلقها ، وهى الآن هيكل فى حاجة إلى روح . فمن أين تجيئها بالروح ، وكيف تنفث فيها الحياة ، وبأية وسيلة تبرزها إلى النور بحيث تتألق من خلالها عبقرية ابنها الذى لا يجب أن ينسى ، ولا يجب أن يموت ! . .

واستعرضت فى ذهنها جميع أسماء المغنيات اللامعات ولكنها رأت أن أقدرهن وأشهرهن أعجز من أن تؤدى الدور الكبير الذى كانت ستؤديه سونيا . فخشيت على المسرحية من السقوط ، بل خشيت أن تهمل إهمالا نهائياً تضيع معه ذكرى ابنها . فارتعدت فرائصها ودب فيها جنون اليأس والحب ، ثم استحال هذا الجنون فى عقلها إلى إرادة عاتية روعتها وفتنتها .

أجل ، قام فى نفسها أن تنقذ هى مسرحية ابنها !

قام فى نفسها ، وهى العجوز المشرفة على السبعين ، أن تغالب سنها ، وتغالب ضعفها ، وتستعيد مجد شبابها ، وتمثل هى وتغنى الدور العظيم الذى كانت ستقوم به سونيا .

وقصدت من فورها إدارة المسرح ، وصارحت المدير بعزمها . ثم عرضت عليه من مالها الخاص مبلغاً كبيراً يعوضه خسارته فيما لو قدر للمسرحية السقوط .

وخيل إلى الرجل أنها جنت . ولكنها كانت مثال الإرادة والعقل ، فما زالت به تلتمس إليه ، وتلح عليه ، حتى قبل فى النهاية مشترطاً عليها أن تعلن فى الناس أنها هى التى نظمت الحفلة ، وهى التى جمعت أفراد الفرقة ، وهى وحدها المسئولة عن إخراج مسرحية ابنها .

وتم الاتفاق وأعلنت الصحف أن المغنية والممثلة القديمة العجوز « ماريا بتروف » ستقوم بالدور الأول فى مسرحية « عذراء الربيع » التى وضعها ابنها الموسيقى « فيدور بتروف » وأنها ستحل محل الفنانة الشابة الموهوبة « سونيا إيفانوفنا » التى أحبت الموسيقى وقتلته . . .

واستغرب الجمهور هذا الحدث الغريب واستملحه ، فتزاحم على المسرح مدفوعاً بعامل الفضول ، فبيعت التذاكر كلها فى يوم واحد . .

وبلغ القيصر النبأ ، وأدرك أن عذاب السجن قد أرهق سونيا وحال بينها وبين تأدية دورها ، فراق له أن يشهد الأم العجوز وهى تمثل دور

الشابة ، فحجز فى المسرح مقصورة دون أن يعلن عن شخصيته .

وجاءت الليلة المنتظرة ، وغص المسرح بالنظارة ، ورفع الستار . وبدأ التمثيل .

وما إن ظهرت الأم العجوز ، مكحلة العينين ، مطلية الخدين ، مخضبة الشعر ، تتهادى وتخطر كأنها صبية فى العشرين ، حتى تململ الجمهور وانبعثت منه دمدمة واضحة أوشكت أن تطغى على صوت المغنية . ولكنه سرعان ما هدأ وصمت ، واستمهل الأم العجوز تفضلا عليها ، وامتحاناً لقدرتها ، وإحراجاً لها .

ومضت « ماريا بتروف » تصطنع عواطف الشباب ، وتمثل وتغنى لأول مرة منذ ثلاثين سنة . فاضطربت بالرغم منها ، وتعثرت ، وتلعثمت ومازج الشذوذ أنغامها . فأهاب بها الجمهور فجأة أن تتنبه ، فتضاعف اضطرابها ، فقابلها على الفور بصفير التهكم والسخرية والاستهزاء .

وظل الجمهور يصفر وهى تمثل . وظل يضحك وهى تغنى .

وأحست المرأة التعسة أن الدوار يطوح بها ، وأن الفشل الذريع يطوقها ، ويوشك أن يقضى فى لحظة واحدة على حياتها وعلى فن ابنها . فصارعت ضعفها جاهدة ، واتخذت من الضعف قوة ، وراحت تمثل وتغنى فى حماسة مشبوبة لم تعهدها فى نفسها أبداً .

وفجأة ، لمع صوتها كالبرق ، وقصف كالرعد ، وهدر كالموج ، ثم تمايل وتراقص وتثنى ، ثم ترقرق كالماء ، وانساب كالهواء ، وغمغم كحفيف أوراق الشجر ، ثم تماسك وتدافع وتعالى ، وانتهى فى المقطع الأخير من الأغنية بصرخة يأس صادقة ممزقة تشبه قعقعة الأخشاب فى النار . . . فذهل الجمهور وضج بالهتاف . ثم تعالت صيحاته المهللة ، وطفق يلقى بطاقات الزهر على المسرح ، وهو يحيى العجوز النابغة ، ويهتف باسمها واسم فيدور ا .

وأسدل الستار على الفصل الأخير وسط عاصفة من التهليل والهتاف

أثارت إعجاب وحماسة القيصر . فنهض لفوره من مقصورته ، وكشف عن شخصه ، وطرق باب الممثلين ، ودخل مقصورة « ماريا بتروف » .

وما إن رأت الأم العجوز القيصر نفسه يقبل عليها مهنئا حتى ارتمت عند قدميه وقبلت يده ، وصرخت من أعماق قلبها تنشد استكمال سعادتها وجهادها :

ـ لقد أنقذت أنا مجد ولدى ، فانقذ أنت يامولاى سونيا !

فتأملها الرجل لحظة ، ثم أقبل عليها ومد ذراعه وأنهضها ثم حدق فيها طويلا ، ثم قال فى صوت هادىء ثابت عميق :

ـ لقد قمت بعمل خارق يا ماريا ، ويجب أن أكافئك . لن تظل سونيا فى السجن أكثر من خمس سنوات . . . هذه إرادتى !

فاختنق صوت العجوز فى صدرها من فرط الفرح وهوت على يد القيصر تقبلها وتغمرها بالدموع ، ثم تمالكت نفسها ، وخرجت مسرعة ، وشقت زحمة الجماهير ، وانطلقت إلى السجن تحمل إلى سونيا البشرى .

مأساة فنان مصرى

أو

الوهج الأخضر

« حياة الفنانين فى مصر لم تزل مجهولة منا ؛ ولم يحاول أى باحث أو ناقد أن يكشف عنها النقاب . وقد عرفت رساماً مصرياً نابغاً ، وكنت صديقاً حميماً له . فأفضى إلى بقصة حبه التى أحدثت أبلغ الأثر فى حياته كإنسان وفنان » .

* * *

كان ذلك فى حى الزمالك ، فى ليلة من ليالى الشتاء ، وفى منزل وجيه من وجهاء القاهرة .

وكان هذا الوجيه قد أقام ، بمناسبة عيد ميلاد ابنته ، حفلة شائقة دعا إليها جمعاً كبيراً من الأهل والأصدقاء .

وكانت زينة الحفلة وبهجتها رسام نابغ يدعى « الأستاذ عماد » ، أحرزت لوحاته الرائعة شهرة كبيرة ، واستطاع لأول مرة فى تاريخ النهضة الفنية فى مصر أن يبدع فناً شائقاً طريفاً يجمع بين دقة الصناعة الماثلة فى الفن الغربى وبين ما تمتاز به الروح المصرية من طابع خاص وجوهر مستقل . ولم يكن الأستاذ عماد رجلا جميلا ولكنه كان رجلا ساحراً . كان كهلا فى نحو الخامسة والخمسين ، حلو الحديث ، جم الفاكهة ، سريع البادرة ، ذا عينين واسعتين ملتهبتين ، وجبهة عريضة ساطعة ، وأنف كبير وفم عريض ، وأسنان ناتئة منفرجة يلمع بياضها الناصع لمعاناً غريباً ، وينم تكاملها عن قوة بدنية راسخة تمازجها طيبة أصيلة ، وبراءة فاتنة .

وكان يتحدث ويتلفت فى انقاد عجيب فى الحركة والإشارة ، يقترن بليونة فى الأعضاء ، وعذوبة فى الصوت ، وتوقد فى الذهن ، وحيوية غامرة جارفة تأخذ بمجامع القلوب .

وكانت عبارات الثناء تنهال عليه ، ونظرات الإعجاب تنبعث فى

لهفة وحرارة من عيون النساء وتتصاعد إليه ، فلاتظفر منه بغير نكتة لطيفة ، أو دعوة رقيقة ، أو ضحكة عابثة . يلطف من وقعها تحفظه المعتدل وأدبه الجم .

ودارت على المدعوين كؤوس الشراب ، ولعبت برؤوسهم نشوة الخمر . فجلس أحدهم إلى البيانو . وطفق يعزف ، وسرعان ما نهض بعضهم وشرعوا يرقصون .

وفجأة دخلت « سميرة هانم » ترفل فى فستان أسود بديع ، عارية الذراعين ، مكشوفة الصدر ، يزين جيدها الناصع عقد أبيض ، ويتهدل من أذنيها الصغيرتين قرطان من الماس على شكل هلالين ، يترنحان ترنحاً ساحراً ، ويبرقان بريقاً يخطف الأبصار .

وكف القوم عن الرقص ، وهللوا لمقدم سميرة هانم . فحيتهم شاكرة باسمة وارتمت على مقعد وهى تلهث . فأحاطوا بها ، وقدموا إليها كأساً من الخمر ، وأبوا إلا أن تشاركهم فى رقصهم . ولكنها نحت الكأس عنها ، واعتذرت بأنها متعبة ، وتوسلت إليهم أن يدعوها تستريح فترة وتأتنس بصديقتها الحميمة ربة الدار .

وانصرفوا عنها وعادوا يرقصون ، وأقبلت هى على صديقتها التى قدمتها إلى الفنان الأستاذ عماد ، وأجلستها بجواره ، ومضت تبالغ فى إطرائه وتفخر بأنه قد تنازل وشرف صالونها .

ورمق الفنان سميرة هانم بنظرة ، فراعه منها جمالها الباهر ، وتولته لأول مرة فى حياته رعدة خوف عقدت لسانه وأذهلته .

وكانت سميرة بنت المهندس الكبير حسنى بك ، أرملة صبية فى نحو الخامسة والعشرين ، توفى قرينها بعد زواجها بعام واحد ، فأصيبت بصدمة نفسية مروعة هدت قواها ، وأذهلتها عن نفسها . فعافت الطعام والشراب ، فضعفت وهزلت ، وأصابها داء الصدر . فعاشت بجوار امرأة أبيها منطوية على ذاتها ، منكمشة فى عزلتها ، تتمثل

حظها العاثر فتنهب الذكريات خيالها ويمزق المرض صدرها فلا تستطيع إلا أن تدفن حسرتها وهمها فى مطالعة الشعر والقصص أو التمرس بالعزف على البيانو . أو الاستغراق فى شغل التريكو . أو الاهتمام بتقليم ورى النباتات والأزهار التى تزين حديقة البيت .

وظلت سميرة لائذة بعزلتها أشهراً طويلة ثم ضاق صدرها ذرعاً بالمرض والوحدة ، فخرجت إلى المجتمع . فارتد إليها بعض نشاطها ، وعاودها الأمل فى الدنيا . فأحست أن المرض يترفق بها . فتجدد أملها ، وعز عليها شبابها وجمالها ، فمضت تغالب حسرتها ويأسها ، وتتبع فى دقة أوامر الطبيب عسى أن تسترد صحتها شيئاً فشيئاً وتشفى .

وعرف الأستاذ عماد كل هذا من ربة الدار بعد لحظات ، فازداد اهتماماً بسميرة هانم ، وطفق يتأملها من طرف خفى . فألفاها جميلة جمالا تقترن فيه الرقة بالأسى ، والدماثة بالحلم ، والسكينة باللاوعة ، والمرارة بالتواضع والانكسار .

وكانت مديدة القامة ، ممشوقة القد ، ينعقد شعرها المموج حول جبينها الوضاح أشبه بإكليل ، وتتأجج فى عينيها السوداوين شعلة التلهف على الحياة ، وتستعر فى خديها الغائرين الشاحبين تلك النار المتوهجة الملحوظة عادة فى وجنات المصدورين .

ولمحها تسعل سعالا جافاً متقطعاً . فلم ينفر منها بل أشفق عليها ، وأحس على دهش منه أنه يتوق إلى مؤاساتها ، ويتمنى لو أن فى مقدوره أن يحمل عبء المرض عنها . كما أحس أن المرض يضاعف سلطان جمالها ، ويجعل منها مخلوقاً شاذاً غريباً يلتقى فيه الأمل باليأس ، والقوة بالضعف ، والشباب بالعذاب .

وهكذا أحبها . أحبها عماد حباً مازج فيه بين نزعة الفن وعواطف الإنسان ومشاعر الألم . حباً قوامه العطف والرعاية والحنان والإعجاب ، ملك عليه عقله بغتة ، وأفقده اتزانه ، وذهب بتحفظه ، وأحاله فى

لحظة من رجل عاقل مجرب إلى فتى ساذج حديث العهد بعالم الحب والهوى .

وكان الأستاذ عماد قد انقطع لخدمة فنه ولم يتزوج . فلما أيقن من حبه الطارىء العميق لسميرة هانم ، فكر بالرغم منه فى الزواج وهو يرتجف . فتقرب إلى المرأة ، وتودد إليها ، وافتن فى إطراء محاسنها ، دون أن يذكر أنها مريضة ، وأنها شابة ، وأنه يكبرها بثلاثين سنة . . .

وراقها منه حديثه الساحر وعطفه الغامر وأدبه الجم . فاطمأنت إليه ، واجتذبتها فتنة الأمن المنبعثة من كهولته ، وهالة المجد المحيطة به . فاسلست له قيادها ، ودعته لزيارتها ، أسعد ما تكون بالاتصال برجل طيب ومهذب ومثقف ومشهور .

وتآلف كالعادة الفن والمرض ، وتحاب عماد وسميرة ، وأصبحت المرأة الجميلة المصدورة هى المادة الإنسانية الحية التى يستلهم منها الفنان وحيه ، والتى لا يستطيع أن يستغنى عنها أو يعيش لحظة بدونها .

وعرض عليها الزواج ، فتناست مرضها ، وخدعها ترقرق الداء بها . فلم تحفل بفارق السن بينها وبين عماد ، وذهلت وانتشت ولم تعد تسعها الدنيا .

وتمت حفلة الخطبة ، وارتمت سميرة هانم فى غمرة الفرح وشرعت تعد معدات الزفاف .

وخيل إليها أن الحظ قد عاد فابتسم لها . ولكنها كانت واهمة ، إذ على قدر حلاوة الحلم كانت مرارة اليقظة ، وعلى قدر لهفة الأمل كانت لوعة اليأس والعذاب .

استفاقت سميرة ذات صباح وإذا بالحمى تساورها والسعال يقطع صدرها والدم المروع يلوث منديلها الأبيض الناصع . فجن جنون عماد . أرغمها على ملازمة فراشها . ودع الفن والدنيا وانقطع لخدمتها . آلى

على نفسه أن يكافح ويجاهد ويبذل المستحيل ليرد عنها عادية الموت وينقذها .

كان لا يفارقها لحظة واحدة . يسعفها بالدواء فى الميقات . يدون درجات حرارتها . يعنى بغذائها . يسهر الليل بطوله عند فراشها . يغافل أهلها ويطمئنهم ثم ينسل إلى الحمام ويغسل بيديه مناديلها الملطخة ببقع الدم !

وأحدثت تضحياته فى نفسها أبلغ تأثير . فقاومت المرض من أجله ؛ وتشبثت بالعلاج وتهافتت على الغذاء ، حتى تماثلت للشفاء رويداً رويداً ، وامتلأ خداها الغائران ، وارتدت إليها بهجة الصحة ونضرة الشباب .

وأحس الفنان وهو مشدوه أن حبه قد خلق ملحة رائعة من جمال يعجز فنه عن إبداع مثلها ، وأنه قد انتزع الحياة انتزاعاً من براثن الموت . فازداد تعلقاً بسميرة ، وشغفاً بها ، ورغبة ملهوفة عنيدة فى الإسراع بوصل حياته بحياتها .

وخيل إليه هو الآخر أنه على وشك أن ينعم بانتصاره فى عزة الطمأنينة وزهو الثقة . وعندئذ تنكرت له الدنيا ، ووقع فجأة ما لم يكن فى الحسبان .

كانت سميرة تزوره فى مرسمه ذات مساء ، فدخل عليهما رسام ناشىء من مريديه يدعى « ممدوح » ، والتمس من أستاذه أن يصارحه برأيه فى بعض لوحات كان الرسام الناشىء قد عرضها فى معرض عام .

وكان « ممدوح » شاباً فى نحو الرابعة والعشرين . بل كان رجلا مكتمل الرجولة وفى الوقت نفسه شاباً فى ريعان الصبا . كان عريض المنكبين ، مفتول الساعدين ، دقيق الفم والأنف ، رصيناً إلى حد التجهم متزناً إلى حد الكبر والشموخ ، تناقض دقة تقاطيعه صرامة مظهره ويتألق وجهه الأسمر الحمرى تألقاً عجيباً كلما انعكست عليه أضواء عينيه الزرقاوين الساحرتين .

ولم تكد تبصره سميرة حتى بهتت ... بهتت على الرغم منها وتراجعت وارتجفت .

تولتها نفس الرعدة التى تولت عماد عندما أبصرها هى لأول مرة .

أصابتها ضربة الصاعقة كما أصابت الفنان بالأمس . فلبثت ساهمة حائرة واجمة ، تحدق إلى عماد تارة وإلى الشاب الغريب تارة أخرى ، وتحاول عبثاً إخفاء اضطرابها ، وكبح جماح الانفعالات العنيفة التى انقضت عليها بغتة وتخطفتها .

كان عماد هو الكهولة وممدوح هو الشباب . كان الشباب المتفجر من « ممدوح » يمثل فى ذهن سميرة شباب زوجها المتوفى ، ويبعث أمام عينيها أطياف سعادتها الأولى ، ويطلق فى مسرح خيالها المحروم صور الساعات الجميلة التى كانت تعيشها فى صحبة زوجها ، موفورة الصحة والنشاط ، مغمورة بحب متكافىء سليم يقترن فيه الفرح بالقوة .

وهكذا استجاب الشباب للشباب ، وأحبت سميرة « ممدوح » : أحبته وهى تائهة . أحبته وهى مذعورة . أحبته وهى ساخطة مستنكرة ؛ ومع ذلك فقد اندفعت إليه ، وطفقت تستفسر عنه ، ومضت تتحين الفرص وتزور المرسم كى تراه . وكانت كلما رأته ازدادت ضعفاً أمامه ، وخضوعاً له ، وهياماً به ، وخوفاً منه .

وبدأت تتأرجح وتتخبط وتتعذب . لم تنس إخلاص عماد . لم تنس تضحياته . لم تنس أنه أقدم على خطبتها وهو يعلم أنها مريضة . لم تنس أنها مدينة له بالحياة . ولكن هذه العاطفة نفسها ، عاطفة عرفان الجميل ، كانت تخنقها ، كانت تذلها ، كانت تثير أعصابها ، وتشيع فى نفسها ضرباً من الخجل العميق يضاعف حبها قوة وعنفاً واتقاداً .

ولم تجسر على مكاشفة « ممدوح » بهواها . لم تجسر على أن تقدم الهزال والضعف لمن هو رمز القوة والشباب . أوجست منه . لم تستطع أن تتصور أنه يمكن أن يقبلها زوجة له . لم تجد فى سلامة بنيتها

ما يشجعها على الإقبال عليه . خشيت أن يهزأ بها ، أن يصدها. فلعنت حظها . وكرهت نفسها : وعادت بفكرها إلى عماد ثم عادت بقلبها وحواسها إلى « ممدوح » ثم استهولت موقفها ، واستفظعت إحساسها ، وأشفقت على خطيبها ، وكبر عليها أن تغرر به وتخدعه وتطعنه فى الصميم. فآثرت أن تصمت وتتريث ، ولا تكاشف عماداً بتحولها دفعة واحدة بل تبدى له الفتور شيئاً فشيئاً ، بحيث يفهمها ، ويقدر عذابها ، ويتخلى فى النهاية من تلقاء نفسه عنها ، فتبقى على صداقته الثمينة ، وتحاول بعد ذلك أن تكافح كفاح المستميت علها تظفر بمن تهوى . . .

وأبت أن تستعجل موعد الزفاف . أخذت تماطل بحجة أنها ماتزال تعد جهازها . أما عماد فكان قد تنبه لكل شىء ولاحظ كل شىء ، وأدرك ببصيرته الوقادة كل شىء .

رأى الحب الكامل العميق يغزو سميرة ويجتاحها . رأى نية الغدر وروح الخديعة تحوم حولها ، وإرادة التحرر والانطلاق تستحوذ عليها بالرغم منها وتستبد بها . فتفطر قلبه ، تمزق حلمه ، عز عليه أن يكون قد وهب الحياة لإنسان عزيز ثم يراه يمنح تلك الحياة خالصة لغيره . فثارت ثورته . استنكر الغدر ونكران الجميل ، وارتد إلى نفسه . فأحس وهو يكاد يختبل أنه كهل منبوذ ، وأن الوحدة مقدرة أبداً عليه ، وأن الشباب أقوى منه ، وأن هذا الشباب الذى برز أمامه فجأة ، قد يذهب بلب سميرة ، وقد يقصيها عنه ، ويحرمه منها إلى الأبد .

وبات فى صراع مع الحنق والكبر ، وأوشك أن يكره ويبغض ويفكر فى الانتقام . ولكن حبه كان أعمق من أنانيته ، وطيبته أعمق من غيرته ، وكرامته أقوى من حبه . فأنكر ذاته ، وخنق عذابه فى صدره ، ولم يعترض مشيئة المرأة بل أسلمها لحكم ضميرها ، وتركها تنساق فى تيار حبها الجديد .

كان بوده أن يتشجع ويقطع ، أن يفسخ الخطبة ويخلى « لممدوح» السبيل ؛ ولكنه كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أن « ممدوح » الشامخ المتكبر لا يكترث لسميرة ، وأنه لا يمكن أن يحب ويتزوج امرأة عليلة مصدورة وأنه يجهل حبها الطارىء الشديد له . فخشى عماد إن هو تخلى عنها أن تفقده وتفقد أيضاً «ممدوح» فيتحطم مستقبلها وتتقوض حياتها . فآثر هو الآخر أن يصبر وينتظر ، وملء نفسه الأمل أن تثوب سميرة إلى رشدها ؛ وتصغى إلى نداء ضميرها ومصلحتها ؛ وتعود من تلقاء نفسها إليه .

وانتظر . . . انتظر طويلا . . . انتظر وهو يتألم ويتحمل ويصمت ويخفى . ولكن سميرة لم تفهم ، لم تحفل ، لم تشفق ، ختم الهوى على بصرها وزادها فتوراً وإعراضاً وقسوة ، فتزعزعت أعصاب عماد ، واكتأب وتجهم وتبلد . جف ينبوع عبقريته وزايلته القدرة على العمل والإنتاج . اختفى بريق وجهه . انطفأ لمعان عينيه . أحاطت بحدقتيه هالة زرقاء . شحب وضمر وانطوى واستحال إلى شبه روح حائر يهيم فى فسحات المرسم وينشد الراحة والخلاص على غير جدوى .

* * *

وعندئذ تحرك قلب سميرة واستفاق ضميرها .

لمست الألم البالغ الذى أحدثته . واجهت الجرم المروع الذى اقترفته . أشرفت على الهوة السحيقة التى احتفرتها بيدها والتى يوشك أن يتردى فيها الرجل الذى كان بالأمس حبيبها ومنقذها . فجاشت عواطف الرحمة الكامنة فى طبيعتها . كبر عليها أن تخضع لنذالة إحساسها . التهبت فيها عوامل الشهامة والنخوة والكرامة والعزة ؛ وأصبح قلبها ميداناً يتصارع فيه الماضى والحاضر ، والحب والواجب ، والشفقة والأنانية ، ودعوة الشرف ونداء الحياة .

ومع ذلك فقد كان حبها الجديد أقوى من نزاهة طبعها ، وأبلغ من

لوعة خجلها ، وأعمق من مرارة تحولها . فراحت تتخبط بين سحر الشباب ونبل الكهولة ، ولم تعد تدرى ماذا يجب عليها أن تفعل . أتصارح « ممدوح» بحبها وتقربه إليها وتستهدف لنفوره المحتمل من امرأة مريضة فتقضى على نفسها وعلى عماد ، أم تظل وفية لحبها الأول المتقلص فتقضى على نفسها أيضاً ثم تقضى فى الوقت ذاته على عماد ؟ !

واحتدم الصراع فى نفسها ، وأرهقها . وكان صراعاً قاسياً مريراً عجيباً لأنه كان صراعاً من أجل أمل مخيل وحب غير مكفول . صراعاً عجيباً فى سبيل شاب تريد سميرة أن تظفر به ، ويزين لها خيالها أن فى مقدورها أن تتزوجه ، وهى تشعر فى قرارة نفسها أن المرض قد جردها من كل ثقة فى نفسها ، وأن المرض لابد أن يقصى الشاب عنها ، وأن من المحال على أى شاب أن يرضى بها ويغامر بصحته وشبابه فيتخذ منها امرأة له .

هذا الصراع الجاحد ، هذا الصراع اليائس ، هذا الصراع الباطل المبذول فى دائرة التصور والوهم ، والمسدد نحو هدف مستحيل التحقيق ، ومقرون بخيانة حب صادق نبيل ، هذا الصراع أنهك سميرة واستنفد منها كل ما كانت قد ادخرته من صحة وقوة . فعادت الحمى تساورها ، وعاد السعال يقطع رئتيها ، وعاد الدم ينزف من صدرها . فتملكها الرعب واستبد بها اليأس . فكفت عن انتهاز الفرص لرؤية « ممدوح » ، وتباعدت عن عماد شيئاً فشيئاً ، ولم تصارحه بعودة المرض إليها ثم لزمت دارها ، ولاذت بعزلتها ، وطفقت فى هدأة العزلة وعلى ضوئها الغامر ، تفكر وتتأمل وتتروى .

وكان عماد يستفسر عنها ، ويصدع بأمرها ، ولا يقتحم عليها عزلتها . أما هى فقد ارتمت فى غمرة هذه العزلة ثلاثة أسابيع ، ثلاثة أسابيع بطولها ثم خرجت منها ذات يوم مختارة . خرجت منها عازمة . خرجت منها ثابتة ومتفوقة ومستبسلة ، وقد استقر رأيها على حل آمنت أن فيه وحده راحتها وخلاصها .

قالت فى نفسها : « ربما يكون الزمن قد فعل فعله وغيرنى وأضعف من سلطان العاطفة التى استبدت بى ... وإذن فيجب أن أمتحن نفسى . يجب أن أرى « ممدوح » مرة أخرى . . . مرة واحدة فقط . . . فإذا شعرت أنى أصبحت أقوى منه وأن فى وسعى أن أستغنى يوماً عنه ، بادرت من فورى إلى عقد قرانى على عماد . أما إذا شعرت بنقيض ذلك وأن « ممدوح » ما يزال أقوى منى ، وأن حبه مايزال متفوقاً على عقلى وإرادتى ، فلن أتزلف إليه ولن أستجدى من شبابه الرحمة ولن أسمح لنفسى بأن أصارحه بحبى وأستهدف لإعراضه عنى ونفوره منى واشمئزازه من مرضى ! لا . . . لن أسلك هذا المسلك المخزى ! . . سأحزم أمرى وأذهب ! . . أذهب راضية النفس مرتاحة الضمير دون أن أهدر كرامتى ودون أن أخدع عماد الذى أحبنى وأخلص لى ووثق فى ! . . .

واستحوذت عليها هذه الفكرة ، فتحينت كعادتها فرصة وجود ممدوح فى المرسم ، ولم تتجمل ، واستجمعت قواها وذهبت إلى عماد . . .

وما إن دخلت المرسم ووقع بصرها على ممدوح حتى تولتها نفس الرعدة الساحقة وأصابها من فرط الحنق شبه ذهول .

لم يكن الشاب أبداً جميلا كما كان فى تلك اللحظة .

لم يكن أبداً ظافراً وقوياً كما كان فى تلك اللحظة .

لم يكن أبداً صورة رائعة لما كان يجب أن يكون عليه عماد ، كما كان فى تلك اللحظة ! . . .

أحست سميرة أن العزلة لم تبدلها ، وأن الزمن قد غدر بها ، وأنها ماتزال تحب « ممدوح » . أحست أنها لاتحبه فقط بل تعبده . أحست أنه هو وحده حبيبها وزوجها وسيدها . فغشى الظلام بصرها ، وكادت تترنح وتسقط . ولكنها تمالكت نفسها جهدها . ومكثت فترة طويلة تشاهد بعض اللوحات وتعلق عليها ، ثم اعتذرت بأنها يجب أن تنام مبكرة . وتقدمت . . تقدمت وصافحت الرجلين ، وهمت بالخروج . بيد أنها

تباطأت وتعثرت وتوقفت لحظة وهى ذاهلة . توقفت لحظة أمام ممدوح وجعلت تحدق إليه تحديقاً ساهما طويلا غريباً وهى تبتسم . فامتقع وجه عماد ، وخيل إليه أن حياته كلها تستخلص منه فى تلك اللحظة وتعتصر وتذوب .

وشيع المرأة حتى الباب دون أن يتكلم . فالتفتت إليه ثم دنت منه ثم لاطفت خده بأناملها . فجاشت عواطفه وأمسك بيدها ، فتركته يقبلها ثم جذبتها منه فى رفق ، وابتسمت له هو أيضاً ، وخرجت مسرعة لا تلوى على شىء .

واندفعت إلى الشارع واستقلت الترام وهى تختلج ، واتجهت صوب منزلها ، مشبوبة العزم ، خاوية العقل من كل شاغل ما خلا الفكرة التى ملكتها ، واستغرقتها ، وأصبحت بعد رؤية « ممدوح » أشد بطشاً بها وطغياناً عليها .

ولم تتردد وأوصدت على نفسها باب مخدعها ثم نضت عنها ثيابها واستلقت على الفراش . ولكى لا تضعف حولت بصرها ولم تنظر إلى صورة عماد التى كانت مثبتة على الحائط أمامها . ثم مدت يدها ، يدها الناعمة الهزيلة الثابتة ، يدها التى أبى القدر إلا أن تمنحها مرة واحدة فى حياتها لرجل واحد ، وانتزعت من درج « الكومودينو » علبة صغيرة مختومة ، قلبتها فى يدها لحظة ثم أسرعت وفضتها ، وشرعت تبتلع كل ما فيها من أقراص الأسبرين .

* * *

وكان عماد وممدوح قد مكثا فى المرسم يتحدثان عن فنهما دون أن يجسر أحد منهما على ذكر اسم سميرة أو الإشارة إليها بكلمة .

وإنهما ليتجاذبان أطراف الحديث فى سهوم وشرود ، وإذا بجرس التليفون يدق . فهب عماد واقفاً ، وأسرع وتناول السماعة . ولم يكد يلتقط

الكلمات المتهدجة المتقطعة الممزقة التى كان ينطق بها والد سميرة حتى انتفض رعباً ، وتراجع واجماً مأخوذاً ، وأطلق صيحة مدوية وطفق يردد كمجنون :

ـ ماتت ؟ ! . . . انتحرت ؟ ! . . .

وألقى بالسماعة ، وجحظت عيناه . وفجأة وبينما هو ذاهل عن نفسه ، غائب عن وعيه ، استشعر وجود ممدوح بقربه . فأشرقت بصيرته إشراقاً طاغياً . فانفجر فى الشاب وصرخ :

ـ ماتت ! . . ولكنها ماتت بسببك ! . . انتحرت بسببك أيها الأعمى ! . . انتحرت لأنها كانت تحبك !

فغمغم الشاب وهو كالتائه :

ـ كنت أعرف أنها تحبنى ! . .وكنت أنا . . . أنا أيضاً أحبها بل أعبدها ! . . .

فاندفق الدم إلى وجه عماد ، وانقض على ممدوح بغتة وأمسك به ، وجعل يهزه هزاً عنيفاً وهو يصيح :

ـ ولماذا لم تصارحها إذن ؟ . . . لماذا لم تتكلم ؟

فقال الشاب والدمع يوشك أن يخنقه :

ـ لم أشأ أن أخونك وأنت أستاذى !

فصرخ عماد وهو يهدر :

ـ كان يجب أن تخونني لتنقذها ! . . . كان شبابك وحبك قوة لابد أن تشفيها . كان يجب أن تصارعنى أنا الكهل الغرير وتصرعنى وتفوز بها . كان هذا حقك بل واجبك مادمت قد شعرت أنها تحبك وأيقنت أنك أنت أيضاً تحبها . ولكنك استمسكت بشرف مثالى لا أستحقه أنا ، فخسرت كل شىء ، وأشقيتنى ، وقتلتها ! .. نعم ، أنت .. أنت الذى قتلتها !

وانهارت قوى عماد ، وارتمى على مقعد ، وأحس أنه لن يستطيع أن

يتحرك وينهض ويمشى . ولكنه كان يجب أن ينهض . كان يجب أن يتحرك ويمشى . فنهض وهم بالاتجاه نحو الباب . ولكنه أبصر ممدوح رازحاً محطماً منسحقاً ، يختلج اختلاجاً عنيفاً وتنقبض عضلات وجهه وتنهمر من عينيه الدموع . فتأمله فترة ثم اقترب منه ثم قال له فى صوت غائر أجش :

ـ تعال معى . . . تعال معى نودعها الوداع الأخير !

وتأبط ذراع الشاب ، واستقبل الرجلان فسحة الشارع وهما مذهولان.

وكان عماد يمشى مطرق الرأس متعثر الخطى ، ويأبى مع ذلك إلا أن يتمالك نفسه ، ويتجلد ويتصلب ويقاوم .

فلما ودع المرأة الوداع الأخير وعاد إلى مرسمه ، طافت به الذكريات . فالتهبت مشاعره ، واضطرمت لوعته ، ولم يجد راحة لقلبه ومتنفساً لأشجانه إلا فى فنه . فاختطف من فوره لوحة بيضاء ، وثبتها أمامه ، وانكب على العمل ، وطفق يرسم فى لهفة وحرارة واندفاع صورة لسميرة يبعث فيها المرأة التى كانت هى حبه الأوحد وأمله العظيم .

* * *

وكانت هذه الصورة أروع وأكمل أعمال الفنان المصرى عماد .

« تم الكتاب »

محتويات الكتاب

صفحة

(موريس ماترلنك) أو بين الحب والواجب الأعلى	٧
(الفريدو كاتالانى) أو وثبة قلب جريح	١٥
(ليون تولستوى) أو العبقرى تجاه زوجته	٢٧
(هيلينا سيكورسكي) أو النور المفتقد	٣٥
(إيزادورا دنكان) أو بين خريف وربيع	٤٧
(فردريك نيتشه) أو بين إرادة القوة وسطوة الحب	٦٣
(روزينا موار) أو وحى الأمومة فى الفن	٧٣
(مكسيم جوركى) أو القلب فى مغرب العمر	٨٧
(ماريا جارسيا) أو صراع الحب والمجد	٩٣
(جورج هرويج) أو العاصفة الملهمة	١٠٧
(مارت فلورى) أو تفوق بعد تضحية	١٢٣
(روبرت شومان) أو عبقرى يهذب امرأة	١٣٥
(بلزاك) أو حب وجهاد وعذاب	١٤١
(لرمنتوف) أو الكبرياء القاتلة	١٤٩
(ألفريد دى موسيه) أو فى مهب النار	١٥٩
(مارينو فوسكارى) أو الشبكة والصياد	١٧١
(جوستاف فلوبير) أو بين الاستعباد والحرية	١٨٥
(ماريا بتروف) أو عبقرية أم	١٩٣
(مأساة فنان مصرى) أو الوهج الأخير	٢٠٩

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٢٨١٤

مطابع دار المعارف بمصر — ١٩٧٥
١/٧٥/٣١